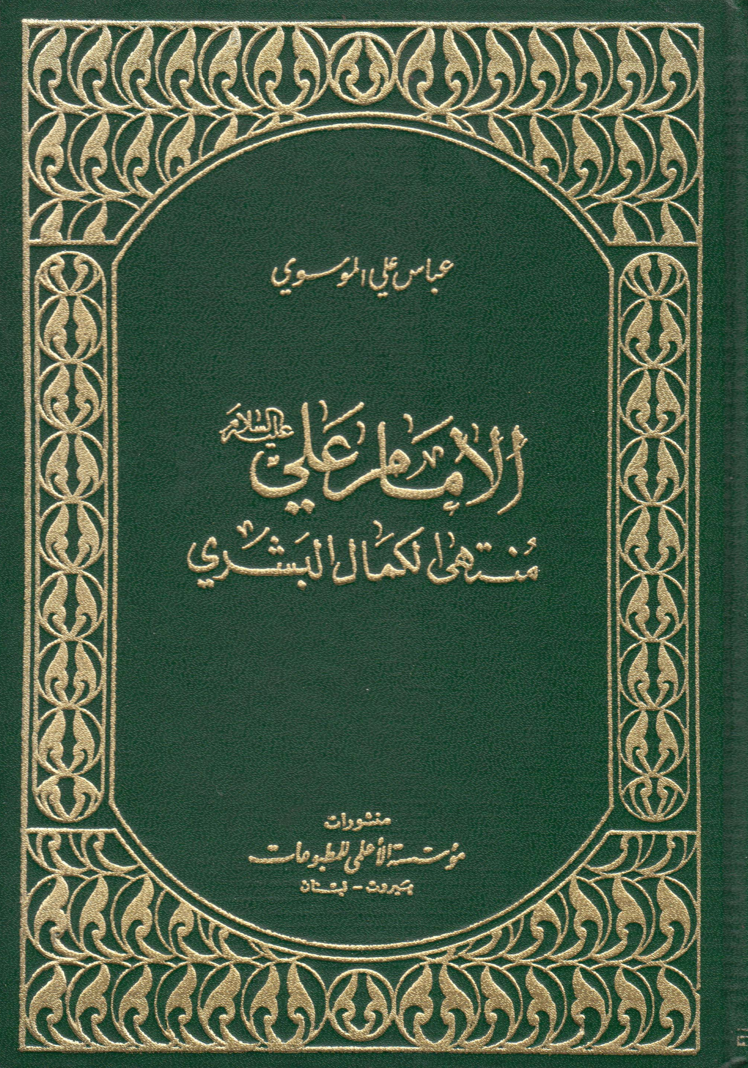


عباس علي الموسوي
الإمام علي عليه السلام
منتهى الكمال البشري
منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

الامام علي عليه السلام

منتهى الكمال البشري

عباس علي الموسوي



ص.ب ٧١٢٠

الطبعة الاولى

١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م

كلمة لا بدَّ منها

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين وبعد :

الإمام علي امة قائمة برأسها لها ملامحها الخاصة وصفاتها المميزة، في أي الميادين جئت تتحدث عنه وجدته أروع إنسان وأكمله على امتداد سلسلة الوجود البشري وسعتها .

انه البطل الذي حمل السيف بيمناه يدفع به عن رسالة الله ووحي السماء فكم جلى من كرب عن وجه رسول الله ، وكم دفع من أذى المشركين والمنافقين عنه ، وتلك حروبه في بدر وأحد وخيبر ، والأحزاب تنطق وتعرب عن شجاعته وفدائه وقوته وشدة شكيمته ، إنه الفارس الذي ما انهزم في واقعة ولا عثر في موضع بل كان النصر دائماً حليفه واعلام الفتح تخفق بين يديه .

وإذا جئت تتحدث عنه في ميادين العلم والمعرفة فتأخذك أفكار نهجه ، وما يتضمن من بلاغة وفصاحة إلى القول إنه أفصح الناس بعد رسول الله واعلمهم ، بل جاء باب مدينة علم الرسول وعيبة علمه، إليه ألقت الشريعة مقاليدها ، فأعطت عن يديه الخيرات والبركات، فكم من الشبهات قد دفع وكم من المعضلات

قد جلى ، وكم من الامور الغامضة والألغاز المعمية قـد فتق ، انك إذ تقف أمام كلماته تجدها فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق كما قيل .

وإذا جئت إلى كرمه فهو سيد الكرام وإمام الأسخياء ، قدم نفسه في سبيل الله ، فأنزل الله فيه : (ومن الناس [1] من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ...) وقدم طعامه فأنزل فيه وفي أهل بيته (ويطعمون الطعام على [2] حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله، لا نريد منكم جزاءاً ولا شكورا ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلـــك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا) وتصدق بخاتمـــه في صلاته ، فأنزل فيه : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا [3] الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) .

وإذا جئت إلى عدله فهو الإمام الذي ان قال فصل ، وإن حكم عدل، تولى الخلافة فأعاد الحق إلى نصابه ، ردّ المظالم لأصحابها فقسم بالسوية ، وعـــدل في الرعية حتى قال بعد ان عوتب على التسوية في العطاء: أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ، والله لا أطور بـه ما سمر سمير وما أمّ نجم في السماء نجماً ، ولو كان المال لي لسويت بينهم ، فكيف وإنما المال مال الله .

وقد كان عدله أهم الامور التي لم تتحملها الفئة المترفة في عهد من سبقه، فلذا كان أحد أسباب النقمة عليه ، بـــل أهم أسبابها التي أخرجت طلحة والزبير وغيرهما لحربه .

وإذا جئت لزهده فإنك تقرأه أزهد الناس وأشدهم نسكاً ، إنك ترسم له صورة الصوفي الذي انقطع عن الدنيا وبات همـه في آخرته ومعاده ، فلو قرأت زهدياته أرجفتك خوفـــاً إذ تقف أمامها على التجسيد الحي والصور المتحركة

---

(١) البقرة : ٢٠٧ .

(٢) الإنسان : ٧٦ .

(٣) المائدة : ٥٥ .

للنعيم والعذاب الأخروي ، إنك تشعر خلال استعراضك لزهدياته ، انه الإنسان الذي ليس له من دنياه صغيرة أو كبيرة ، انــه اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه ، بل قد طلـّق الدنيا طلاق من لا رجعة له فيها ولا حنين إليها .

وهكذا لو أتيت على سائر الصفات الاخرى واستعرضتها لوجدت عليــاً مدرسة قائمة بذاتها ، تجسدت مرة ثم غابت شمسها فلم تطلع من جديد ، فراحت الناس تقتبس من ذلك الشعاع الذي تألق فـترة من عمر الزمن ، ثم اختفى بعد أن رسم على آفاق السماء خطوطاً عريضة لكل المسلمين الطيبين .

إن هذا التفوق الباهر والمثل الكامل الذي حل في شخصية الإمام هو الذي قاد امة من الناس وأخذ باعناقهم للقول بإمامته وتفضيله على سائر المسلمين .

ان الشيعة لم تأخذ علياً إماماً لأجل هوى يدفعها لذلك أو انحراف في السلوك أو خطأ في التفكير ، بل ان قيام الأدلة بكافة أنواعها من نقلية وعقلية ، وما اجتمع فيه من صفات ذاتية وأخرى اكتسابية جعلته أفضل الخلف بعد رسول الله ﷺ ، كل ذلك هو الذي دفع الشيعة للقول بإمامة علي وأولاده الأحد عشر .

ولقد ذاق الشيعة خلال التاريخ أشد العذاب وأعظم التنكيل فقتلوا وشردوا وعذّبوا وطوردوا حتى لم يعودوا يأمنوا على دمائهم وأعراضهم ، فقد كان الكفر بنظر الأمويين واضرابهم من المجرمين أهون عليهم من الشيعة المسلمين .

ومع ذلك كله بقي الوفــاء للمبدأ والعقيدة والفكرة الحقة ، ألا وهي إمامة علي وتفضيله أهم وأعظم من جميع الدماء والاشلاء ، فلذا هانت التضحيات دون التضحية بإمامة علي ، فـلم يلوا أعناقهم لحاكم جائر ولم يلوا قيادهم لمنحرف ، بل كان الولاء لعلي وأهل بيته عليه يحيون ، ومن أجــله يموتون شهداء شرفاء أعزة كرماء .

وقد عرف كثير من الناس ان الحق مع علي وعلي مع الحق تصديقاً لرسول الله وللحقيقة البيضاء ، ولكن خوفاً من الحكام لم يجهروا بالحق ، فكانوا جبناء المواقف

منهزمين ضعفاء ، فقد سأل أبان بن عياش للحسن البصري عن علي ، فقال : ما أقول فيه : كانت له السابقة والفضل والعلم والحكمة والفقه والرأي والصحبة والنجدة والبلاء والزهد والقضاء والقرابة ، إن علياً كان في أمره علياً ، رحم الله علياً وصلى عليه .

فقلت يا أبا سعيد أتقول (صلى عليه) لغير النبي ؟ فقال : ترحم على المسلمين إذا ذكروا وصل على النبي وآله وعلي خير آله ، فقلت : أهو خير من حمزة وجعفر ؟ قال : نعم ، قلت : وخير من فاطمة وابنها ؟ قال: نعم والله إنه خير آل محمد كلهم ، ومن يشك إنه خير منهما ، وقد قال رسول الله ﷺ (وأبوهما خير منهما) ولم يجر عليه اسم شرك ولا شرب خمر ، وقد قال رسول الله ﷺ لفاطمة عليها السلام : (زوجتك خير امتي) فلو كان في امته خير منه لاستثناه ولقد آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ، فآخى بين علي ونفسه ، فرسول الله ﷺ خير الناس نفساً وخيرهم أخاً ، فقلت : يا أبا سعيد فما هذا الذي يقال عنك إنك قلت في علي : (كان يقال أنه منحرف عن الإمام) .

فقال : يا ابن أخي أحقن دمي من هؤلاء الجبابرة ، ولولا ذلك لشالت بي الخشب .

هذا نموذج ممن عرف علياً ، ولكنه لم يجرأ أن يعلن عن موقفه ، فكان يسّره لبعض أصحابه ، ولكن غيره لم ترهبه السيوف وبريقها ، بل كانت عنده أتفه من أن يحسب لها حساب إذا تعارضت حياته مع مبدئه والنور الذي آمن به .

إن هذه الصفات الكريمة التي اجتمعت في علي بدليل الاستقراء ، نكتشف بها إمامته ، إذ لم تكن مجرّد صدف تتوافق وتلتقي في شخص واحد ، فإن بعض الناس ينفرد بالعلم ، وبعضهم الآخر ينفرد بالشجاعة ، وثالث ينفرد بصفة أخرى ، وهكذا تتقاسم مجموعة الناس مجموع الصفات ، فيأخذ كل واحد منهم بطرف منها ، ولكنّ علياً كان ملتقى لجميع الصفات والمجمع لكل الكمالات ، وهذا بنفسه دليل إمامته .

وهذه جولات مع بعض صفات علي وكمالاته نستعرضها باقتضاب كي نجـــدد الولاء له، ونعيد لأنفسنا الحياة من جديد باتخاذ علي إماماً وقائداً وملهماً نتخذه وأهل بيته الأئمة الطاهرين ، ونرفض كل الأصنام والأوثان التي طرحت كبدائل عنه قديماً أو حديثاً كي نحقق طموحاتنا الإسلامية المنشودة ، فـإلى الحديث عنه وإلى الله المرجع والمصير .

النبي شيث في غرة رمضان سنة ١٣٩٩ هـ

عباس علي الموسوي

ربيب النبي ﷺ

هـــذه هي الأيام الاولى من حياة علي عليه السلام ، وهل تكون كأيام غيره من الأطفال ، حيث ينشأون في بيوت آبائهم تكلؤهم أردان الابوّة ويظلهم عطف الامومة ، وينعمون بما ينعم به الأبناء من رعاية وعطف وحنان وتربية وإحسان ، حيث يحاول الأب تنشئة أبنائه على أخلاقه وعاداته وتقاليده وانفتاحاته ؟..

فإن الآباء عادةً يعيدون وجودهم ويجددون حيــاتهم بحياة أبنائهم ، إذ هم الامتداد الطبيعي للآباء ، وبهم يعيش الأهل حياة جديدة بعد رحيلهم عن عالم الأرض والفناء .

فهل نال علي شيئاً من تربية أهله ؟ وأهله في المرتقى العالي والسنام الرفيــع ، وبيته من أشرف البيوت وأعزّهـــا ، فأبوه شيخ الأباطح وسيد قريش ، إليه انتهت الزعامة وبيده مفاتيح الحلّ والعقد ، وقد كان هـــذا الشيخ الكبير على جانب عظيم من المكانة والقدسية وعلوّ النفس والإباء والهمة .

فهل يكتب لعـــلي أن يمشي على خطى والده ويتخلق بأخلاقه ويتقمص شخصيته ونفسيته ، أم إن أمامه غيره ؟

ومن يكون يا ترى ذلك الإنسان الذي يتقــدم على أبي طالب فضلاً وسمواً وقدراً ؟ وكيف الوصول إليه وعلي لمّا يزل طفلاً لم ينمو عوده وهو بعـــدُ في مهد أيامه ؟

نعم هنــاك أعظم ولد آدم دون استثناء ، أكرمهم نفساً وأحسنهم أخلاقاً وأفضلهم عملاً ، هناك غرسة ربانية تعهدتها يد الله فصاغتها كما أرادت وأحبّت، رسولاً نبياً .

إنه محمد بن عبدالله سيد البشر .

إن هذا الوجه الكريم ليس غريباً عن علي ولا بعيداً عنه ، إنه محمــد نفسه الذي تعهّده والد الإمام فربّاه في بيته وتكفله في صغره وحافظ عليه بجهـــده ولم يفارقه في حياته، ولكن محمداً قد تزوج وانتقل إلى بيته الجديد ، وعلي ليس وحيد أهله بل إن له اخوة، فكيف يكتب لهذا الطفل أن يعيش في بيت محمد ؟ ومن أي الأبواب يستطيع الدخول إلى الحضن الحنون ، حضن النبوة ومرتع الملائكة والمثل العليا ؟

كيف ينفرد من بين إخوته كي يعيش في كنف النبوة الطاهرة والإنسانية الرفيعة ، فيتنسم عطر الحق والعـــدالة فيولد مسلماً كأرفع إنسان تصوغه يد النبوة ويخلقه الإسلام كما أراد هذا الدين وأحب .

ليس الصدف – كما يعللها العاجزون – هي التي تلعب دورها في هذا المجال ، ولا الحظ – كما يقول آخرون – هو الذي يخطُّ طريق الإنسان من سعــادة أو شقاء ، بل هنــاك يد خلفية خفيّة هي يد الله وعنايته بهذا الإنسان الذي سوف يكون الامتداد الطبيعي للنبوة ، حينما تكمل مسيرة التبليغ في الدنيــا وتنقضي أيامها وترتحل إلى الرفيق الأعلى .

نعم إن هذا الإنسان يحتاج إلى إعداد خاص في مدرسة خاصة على يد أمهر الأساتذة وأكملهم، فكان الإسلام مدرسة علي وكان محمد معلمه ومربيه ، فمنذ أن فتح عينيه للنور رأى نور محمــد ، ومنذ عرف الكمال عرفه في محمــد وتعاليمه السامية .

لقد كتب الله لهذا الطفل أن ينتقل إلى بيت محمد ، يقول صاحب مستدرك الصحيحين :

كان من نعَم الله على علي بن أبي طالب عليه السلام مـــا صنع الله وأراد به من الخير . إن قريشاً أصابتهم ازمة شديدة ، وكان أبو طالب في عيـــال كثيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعمه العباس – وكان من أيسر بني هاشم – : يا أبا الفضل إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الازمة ، فانطلق بنا إليه نخفف عنه من عياله ، آخذ أنا من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفلهما عنه .

فقال العباس : نعم .

وانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه ، فقال لهما أبو طالب : إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله علياً فضمّه إليه ، وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه ، فلم يزل علي عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله حتى بعثه الله نبياً ، فاتبعه علي وصدّقه ، وأخـــذ العباس جعفراً ، ولم يزل جعفر مع العبـــاس حتى أسلم واستغنى عنه .

هكذا أراد الله أن ينضم علي إلى اسرة محمـــد فيكون تحت رعايته ويعيش في حجره ، يتنسم عطر النبوة ويشم عرف الرسالة ويتبعه في كل أفعاله وأعماله وخصائصه ومميزاته ، حتى أضحى ظل النبي الذي لا يفارقه وربيبه الذي ورثه في جميع خصاله النفسية والإسلامية ، وهـــذا ما أفصح عنه علي نفسه في بعض كلماته ، حيث قال :

وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره وأنا وليد يضمني إلى صدره ويكنفني إلى فراشه ويمسني جسده ويشمني عرفه ، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه ، ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه ، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به ، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئـــذٍ في

الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما ، أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة .

هذا هو علي يستقر في بيت محمد فيرعاه النبي بحنانه ورحمته فيسقيه الإسلام قطرة قطرة ويغرس في نفسه أحكامه حكماً حكماً ، كيف يكون حال التلميذ الذكي الألمعي مع معلم قدير يحرص على تثقيفه وبنائه ؟ كيف ينظر الطفل إلى مثله المعين فيحاول تقليده .

لقد كان علي يرى في محمد المثل الكامل الذي يشبع تطلعاته وعبقرياته ، فجاء صورة طبق الأصل عن محمد .

أراده النبي شجاعاً فجاء أشجع الناس ، وأراده سخياً فكان أسخاهم ، وأراده زاهداً فكان من أزهد البشر ، وأراده عالماً فأتى باب مدينة علم محمد ، وأراده .. وأراده .. فجاء كما أراده .

هكذا صنع محمد علياً كما أراد وأحب ، وكم للمعلم من أثر في نفس تلميذه ، وكم من كلمة صدرت عن استاذ فأبدلت حياة التلميذ وقلبته رأساً على عقب ، وكثير منا انغرست في نفسه تربية استاذه، وكثير منا اتخذ بعض أساتذته قدوة له ، مع أن فترة مرافقة الاستاذ لتلميذه عادة قصيرة وبضاعة قليلة ، فإذا كانت هذه هي حالتنا نحن مع أساتذتنا ، فكيف بمن يعيش مع استاذه طفولته ومهد صباه ؟ لا بد وأن يحمل كل معطيات استاذه في كبره ، فيحمل التربية النفسية لاستاذه وأخلاقه .. وهكذا حمل علي كل صفات محمد .

وجاء الإسلام فكان علي مسلماً قبل قدومه ، إذ ان محمداً كان قبل البعثة كما أراد الله ، فهو المعصوم منذ ولادته، المترفع عن الدنيا قبل تنبؤه ، الممتثل لأمر ربه في عباداته ومعاملاته وأخلاقه ، وكان بدوره يقوم بصقل نفس الإمام علي وتهذيبها وجعلها المرآة الصافية التي ينعكس عليها تشريع السماء بأصفى ما يكون وأنقى ما يتصور ، فلم ينفذ إلى مسارب نفس الإمام أي شعاع من شرك أو

سجود لصنم ، فهو المولود على الفطرة المخلوق على الإسلام منذ أول يوم فتح عينيه على النور ، فلذا عندما جاء الإسلام بعد ذلك وهبطت رسالة الله على قلب محمد كان علي أول الرواد والطليعة السابقة إلى الإيمان برسالته ونبوته ، فهو يرصد حركات النبي ويقتدي به قبل بعثته ، فكيف وقد جاء الناموس من عند الله ؟ فكان أمراً طبيعياً أن يكون علي أول المستجيبين له المؤمنين به ، وبهذا تسقط كل أقوال المعارضة والمقارنة بينه وبين أبي بكر ، وأن أيهما كان إسلامه قبل الآخر .

من الظلم أن يكون هناك خلاف أو اختلاف في مسألة من يكون أول المؤمنين بالنبي ، وأين كان أبو بكر ؟ وما هي تربيته ؟ وعلى أي شيء نما عوده وشب قوامه ؟ هل على غير اللات والعزى وعبادة الأصنام والأوثان ؟! وكيف يقارن مثل هذا بمن ولد على الإسلام ولم يسجد لصنم قط ؟ لقد قضى أبو بكر شطراً كبيراً من عمره وانغرست في نفسه بذور الشرك وعادات الجاهلية ، وعندما جاء الإسلام عُرض عليه فأسلم ، وأين هذا ممن تربى في مهبط الوحي والتنزيل على عين الرسول الأمين ؟..

ولا يلام أبو بكر في تربيته أو يؤاخذ في نشأته ، فقد كان المجتمع بأسره يعيش تلك العادات والشعائر ، إلا ما استثني ممن اهتدوا بفطرهم ، وكانوا يسمون الحنفاء .

نعم لا يؤاخذ أبو بكر على شيء مما مضى ، ولكن تلك العادات القديمة والاصول النفسية التي شبّ عليها وشاب لا يمكن محوها تماماً واستئصالها كاملاً ، بل تبقى جذورها في أعماق النفس واللاشعور تتحين الفرص للظهور ، وفي بعض اللحظات قد يضعف المرء فتشدُّه رواسبه القديمة وتحنُّ نفسه إلى ما كان عليه ، وهذا شيء معاش بالوجدان مدرك لكل واحد .

إننا نتذكر الماضي عند مرور ما يشبهه أمامنا ، وإن ذلك الفقيه الذي أصبح في رتبة عالية وبقيت نفسه تحنّ إلى أن يكسر قطعة الفخار تحت قدميه ليسمع

صوتها تدلل على ذلك ، وهذا هو الخليفة الأول يدرك ذلك ويحسّ به بوجدانه، ولذا أعلن عن ذلك وأفصح، حيث قال: أيها الناس، إني وليت أمركم ولست[1] بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوّموني ! إن لي شيطاناً يعتريني ، فإياكم وإياي إذا غضبت ، لا اوثر في إشعاركم وإبشاركم .

إن هذا الشيطان هو تلك العادات التي شبّ عليها وشاب ، إنه يخاف أن تنازعه نفسه أو يطغى عليه هواه ، وشتان بين هـــذا وبين مَن فتح عينيه على الإسلام فرأى نور النبوة يشعّ من بيته، فيغدق عليه فيوضاته النبوية ويغذيه من تعاليم الإسلام وأحكامه، ولم يكن للجاهلية وعاداتها فيه أي نصيب ، إنه التبر الصافي والجوهر الذي عزّ نظيره .

لقد كان لتربية علي عليه السلام على يد النبي صلى الله عليه وآله عظيم الأثر في حيـاة الإمام ، إذ جاء كما أراد الله وأحب، فقد زرع النبي الإيمان في نفس علي قطرة قطرة منذ طفولته ، حتى أصبح الإيمان بالله ورسوله وبالإسلام هو كل شيء في حياته ، فلا يتحرك إلا عن هـــذا الإيمان ولا يقف إلا للحفاظ على هذا الإسلام ، فجميع تصرفاته خاضعة لميزان واحد هو رضى الله والحفاظ على هذا الدين ، وقد كان المنطلق لجميع تصرفاته هو هذا الإيمان القوي الذي بلغ الإمام منه مرتبة لا يصل إليها أحد من الناس ، فهو صلوات الله عليه يفصح عن ذلك بقوله : « لو كشف لي الغطاء لما ازددت يقيناً » . إنها مرتبـــة من الوصول لا تزداد ولا تزيد ، إنه اليقين المطلق الذي تقف دونه البراهين والأدلة عـاجزة عن أن توصل الإنسان إليه ، إنها مرتبة من اليقين تمثل الرقم القياسي في عالم الإيمان ، فإليها ينتهي العدّ دون أن يصل أحد إليها .

وقد جاء ذلك على لسان النبي صلى الله عليه وآله تقييماً عادلاً كاشفاً عن كبر هـــذا الإيمان وعمقه، فقد ورد عن عمر بن الخطاب أنه قال: أشهد على رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) ابن أبي الحديد ، ج ٦ ص ٢٠ .

لسمعته [1] وهو يقول : « لو أن السماوات السبع وضعت في كفة ، ووضع إيمان علي في كفة لرجح إيمان علي » .

وقد ورد عن ابن عمر هذا المضمون عن رسول الله ﷺ : « لو أن السماوات والأرض موضوعة في كفة ، وإيمان علي عليه السلام في كفة لرجح إيمان علي » .

شهادة من رسول السماء بإيمان علي بهذا التقييم الرائع الذي ليس هنـاك وزن أكبر منه ، ليعبر النبي عنه ويأتي ليضعه في كفة الميزان ، إنه إيمـان علي الكبير الكبير الذي يعجز اللسان عن تقديره .

وأين هذا من إيمان سائر المسلمين الذين انحدروا في أوقات ماضية مع الجاهلية فأثرت على إيمانهم حتى بعد الإسلام ؟.. فلذا نرى عمر بن الخطاب لما جرى صلح الحديبية والتأم الأمر ، أتى إلى رسول الله ﷺ قائلاً :

ألست برسول الله ؟!

قال : بلى .

قال : أوَلسنا بالمسلمين ؟

قال : بلى .

قال : أوَليسوا بالمشركين ؟

قال : بلى .

قال : فعلام تعطي الدنية [2] في ديننا ؟

قال ﷺ : أنا عبدالله ورسوله ولن اخالف أمره ولن يضيعني .

قال : فكان عمر يقول : ما زلت أصوم وأتصدّق واصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذٍ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً .

---

(١) الرياض النضرة ، ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٢) الطبري ، حوادث سنة ٦ .

إنك تجد في هـذا الحوار أن نفس ابن الخطاب قد خامرها الشك في رسالة محمد ﷺ ، فلذا عمدت إلى هـذه الاستفهامات المتكررة ، ثم أعقبتها بالصلاة والصيام والعتق حتى رجا خيراً .

وقد مرّ بنا أيضاً ما قاله أبو بكر : إن لي شيطاناً يعتريني .

أما عثمان فدعه ولا تتحدث عنه ، فيكفيه فراره يوم أحد ، حيث قال النبي ﷺ له ولمن فرّ معه : « لقد ذهبتم بها عريضة » .. وسيأتي بيـان ذلك عند ذكر هذه الغزوة .

فإذا كانت هذه هي نفوس الطليعة السابقة إلى الإسلام ، وقد اضطربت في بعض الأحيان وشككت في حين آخر ، فإنما كان ذلك نتيجة طبيعية لِما شبّت عليه من انحراف في عهـد جاهليتها الاولى ، بحيث أصبح من العسير أن يجتثّ الإسلام جذور تلك العادات القبيحة التي تأصّلت ، حتى إذا وجدت منفـــذاً مدّت رأسها وخرجت معلنة عن وجودها .

وإذا كان الأمر كذلك ، فمن يضمن لمسيرة الخلافة أن تسير بسلام في طريق الإسلام السويّ ، وتتخذ رسالة محمـد ﷺ وتشريعاته قانوناً يتحكم في كل شيء ، حتى لو خالف الهوى والميول الشخصية ؟

ومَن يضمن عدم انحراف القيادة ، إذا شبّت فيها بعض تلك العـــادات الجاهلية ؟

ومَن هو الذي يقف في وجهها ، إذا كانت تحرّكها تلك الجذور النفسية التي كانت في أيام جاهليتها بعيدة عن الإسلام غريبة عن الإيمان ؟

ومَن الضامن المسيرة أن تبقى ضمن الإطار الإسلامي العـــام ، إذا كانت قيادتها بهذه النفسية وهذه الروح ؟

من جرّاء ذلك كله .. نرى كيف وقع الخلفاء في كثير من الخطأ والانحراف،

فخالف بعضهم بعضاً مع أنهم عاشوا في عصر النبوة الزاهر، ونرى سيرة كل منهم تخالف سيرة الآخر .

وأين هـــذا ممن تربّى على تعاليم الإسلام ، فلم يكن له من عادات الجاهلية وتقاليدها أي أثر أو صلة ، بل كان خالياً من كل أدرانها وأحقادها ، بل كان مسلماً قرآنياً ترجم تعاليم الإسلام وتشريعاته وآدابه ، فجـــاء امتداداً طبيعياً للنبوة وظلاً ثابتاً لهـا ، يحفظ حدودها وأوامرها ، معصوماً عن كل انحراف ، مأموناً من كل خطأ ، ألا وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام .

الفَصْلُ الأوّل

في شجاعة الامـــام

مقتطفات من كلام الإمام

نجدة وشجاعة وانس بالموت مفردات صاغها علي فلازمه وجوده، وجاءت كما أحب الله لأعز عباده، ثم أحاطت به ظروف قاسية وقفت في طريقه فنفثها أنات تجرح القلب وتدمي الفؤاد .

١ – قال عليه السلام :

ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد [١] صلى الله عليه وآله إني لم أرد على الله ولا على رسوله ساعة قط ، ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال وتتأخر الاقدام نجدة أكرمني الله بها .

٢ – وقال عليه السلام : فإن أقل يقولوا حرص على الملك ، وان أسكت يقولوا جزع من الموت ، هيهات بعد اللتيا والتي ، والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي امه .

٣ – وله عليه السلام : حتى قالت قريش : ان ابن أبي طالب [٢] رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب لله أبوهم ! وهل أحد منهم أشد لها مراساً وأقدم فيها

---

(١) ابن أبي الحديد ج ١٠ ص ١٧٩ .

(٢) » » » » ج ٢ ص ٧٥ .

مقاماً مني ! لقد نهضت فيها ، وما بلغت العشرين ، وها أناذا قـــد ذرفت على الستين ، ولكن لا رأي لمن لا يطاع .

٤ – وله عليه السلام : ان اكرم الموت القتل [١] والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من ميتة على الفراش في غير طاعة الله .

٥ – وله عليه السلام : والله لو تظاهرت [٢] العرب على قتالي لما وليت عنها، ولو أمكنت الفرص من رقابها لسارعت إليها .

٦ – وله عليه السلام : إني والله [٣] لو لقيتهم واحداً وهم طلاع الأرض كلها مـا باليت ولا استوحشت ، وإني من ضلالهم الذي هم فيـه ، والهدى الذي أنا عليه لعلى بصيرة من نفسي ويقين من ربي ، وإني إلى لقـــاء الله لمشتاق ولحسن ثوابه لمنتظر راج .

٧ – وقـــال عليه السلام : ومن العجب [٤] بعثتهم إليّ أن أبرز للطعان ، وان أصبر للجلاد . هبلتهم الهبول ، لقد كنت وما أهدد بالحرب ولا أرهب بالضرب وإني لعلى يقين من ربي وغير شبهة من ديني .

---

(١) ابن ابي الحديد ج ٤ ص ١٢ .
(٢) « « ج ٧ ص ٢٨٩ .
(٣) « « ج ١٧ ص ٢٢٥ .
(٤) « « ج ١ ص ٣٠٣ .

ليلة الفداء

بزغ فجر الإسلام في أحضان مكة ، وأخذ نور الإيمان يخترق القلوب المظلمة لينيرها بتعاليم الله وهديه ، وأخذت هذه النفوس الطيبة تدخل في هذا الدين لتمثل الرعيل الأول من حماة هذه الرسالة ، والبذرة الطيبة التي سوف تعطي كل ما تملك في سبيل الله ، أخذ أنصار الرسالة يزدادون يوماً فيوماً ، وهنا أحسّت قريش بالخطر يتهددها ، ولم يكن العدد هو الذي يشكل الخطر على الجاهلية ، بل هناك تعاليم هذه الرسالة التي تصوغ الفرد صياغة جديدة ، وتنقضه من جميع رواسبه الماضية لتخلق منه إنساناً يحمل رسالة مملوءة حيوية ونشاطاً ، رسالة فيها وحدها يكمن الخطر على الطواغيت والإنحراف ، وما تحمله الجاهلية من اسفاف في الفكر والعادات القبيحة .

أخذت قريش تفتن المسلمين عن دينهم ، فإن عجزت أخذت في تعذيبهم واضطهادهم حتى استشهد على أيدي الطغاة والعتاة عدد من المسلمين المستضعفين الذين لا يملكون قوة يرجعون إليها ، فتحميهم من أيدي الجلادين وسياطهم ، فلذا كانوا يفرّون من قريش وجبروتها،فيتركون أوطانهم إلى حيث يجدون ملجأ يأوون إليه ويطمئنون إلى عقيدتهم في جواره ، وهذا ما حداهم إلى الهجرة فراراً بدينهم ، حيث لا حول لهم ولا قوة في دفع أذى قريش واضطهادها ، ولكن مع هذا الفرار وتلك الهجرة كانت القيادة الإسلامية المتمثلة بالنبي ﷺ

لا تزال تقف مشعلاً للهداية ، تبلغ رسالة الله طالما احتملت وصول شعاع الإيمـان إلى قلوبهم ، لم يزل النبي في مكة مهد هذه الرسالة ومنطلق هذا النور بالرغم من هجرة أصحابه إلى البلد الذي يحتضن هذه الفكرة ، ويتبنى هذه الدعوة .

هـــاجر المسلمون من مكة تاركين أموالهم وديارهم فراراً بدينهم وصوناً لعقيدتهم .

فهل يهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن أذن لأصحابه بالهجرة ؟ أم أنه يقابل قريشاً وجهاً لوجه ويتحداها – كما كان – بمفرده وهي جموع متكاثرة قد أتحدت كلمتها واجتمعت فكرتها عليه وعلى مناهضته .

وما هو موقف قريش من رسول الله ، هـل تسمح له بالسفر والهجرة ، أم تقف في طريقه تمنعه من الوصول إلى أصحابه الذين آمنوا به وبرسالته .

هل تترك قريش رسول الله يجمع أصحابه في مهاجره ، فيعيدها عليهم حرباً تمنعهم من الرقاد،ويسدد إليهم الضربات القاسية التي يضطرون أمامها إلى الإيمان بدينه كرهاً واضطراراً .

لا .. لن تتركه قريش يهاجر وفيها عين تطرف ، إنها تفكر في الخلاص منه والقضاء عليه دون أن تتحمل تبعة ذلك قبيلة بعينها أو جهة بمفردها على قريش أن تفكر في مشكلة هي من أهم المشاكل ألا وهي : الخلاص من محمد .

فأين اجتمعت ؟

وبمن اجتمعت ؟

وما هي الفكرة التي توصلت إليها في حل هذه المشكلة ؟

وما هو موقف رسول الله وابن عمــه علي بن أبي طالب الذي بعدُ لم يفارقه فهو إلى جنبه ؟

هنا تأتي صورة قاتمة للضلال واجتماعه للقضاء على الحق واتباعه .

هنا ترسم طريقة الموت بشكل لم يسبق لهـا مثيل ، فيتدخل إبليس بذاته للموافقة عليها ، وتسديدها وتبريكها بعد أن يرفض عدة حلول قـــد طرحت فينقضها ويسّفه من جاء بهـــا ، فإذا أردنا أن نعرف مكان الاجتماع ، ومن هم المجتمعون وما توصلوا إليه في ختام مشاورتهم ، فعلينا أن نرجع إلى التاريخ وهو يقول : لما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قـد صارت له شيعة وأصحابه من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله إليهم ، وعرفوا أنه قـد أجمع أن يلحق بهم لحربهم ، فاجتمعوا له في دار الندوة وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله حين خافوه ، ولمـا اجتمعوا كذلك واتعدوا أن يدخلوا دار الندوة اعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل فوقف على باب الدار ، فلما رأوه واقفاً على بابها ، قالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذي أتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى أن لا يعدمكم منه رأي ونصح .

قالوا : أجل فادخل فدخل معهم ، وقد اجتمع فيها أشراف قريش كلها من كل قبيلة .

فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان أمره ما قد كان وما قـد رأيتم وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قـد اتبعه من غيرنا ، فاجمعوا فيه رأياً فتشاوروا .

ثم قال قائل منهم : أحبسوه في الحديد واغلقوا عليه باباً ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله زهيراً والنابغة ، ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه منه ما أصابهم .

فقال الشيخ النجدي : لا والله مـا هذا لكم برأي ، والله لو حبستموه – كما تقولون – لخرج أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم .

ثم تشاوروا فقال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلدنا ، فإذا خرج فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا والفتنا كما كانت .

قال الشيخ النجدي : والله ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما أتى به ، والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد أديروا فيه رأياً غير هذا .

فقال أبو جهل : والله ان لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد !

قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟

قال : أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدون إليه ، ثم يضربونه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل كلها ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، ورضوا منا بالعقل (الدية) فعقلناه لهم .

فقال الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل ، هذا الرأي لا رأي لكم غيره وتفرق القوم على ذلك .

لقد اجتمعت كلمتهم وتوحدت على قتل محمد ، لم يخالف أحد في هذا الرأي لقد وافق عليه حتى إبليس ذاته ، واجتمعت أصابع المؤامرة لتقضي على محمد ، انها اتفقت على تنفيذ الخطة ليلاً ، فإن فحمة الدجى تستر قبح الجريمة ، هكذا ظنوا وحسبوا ، وهكذا قادتهم الأفكار الجهنمية وتخيلات الباطل والضلال .

ضربة رجل واحد بسيوفهم جميعاً ، فيموت ويتفرق دمه بين القبائل فتعجز بنو عبد مناف عن الأخذ بثأره ، فتقبل الدية وتنتهي المشكلة التي أقلقت

مضاجعهم وأسهرت عيونهم مشكلة محمد ودعوته .

وعلم رسول الله بالخبر، وما اجتمعت عليه قريش من بغي وعدوان في إهدار دمه وقتله .

فما هو الموقف وما المخرج ؟

إنها النهاية ، فلا بدّ لها من فداء ، إما أن يقتل محمد ، وبذلك تنتهي الرسالة وينتهي دور الإسلام الذي جـاء لإنقاذ الناس وهدايتهم ، أو يقدّم قرباناً بديلاً عنه مهما كان غالياً ، وقيمته عظيمة من أجل الإسلام ونبيه .

وإذا كان الأمر يتطلب قرباناً ، فمن هو الذي تطاوعه نفسه ويوطنها لملاقـاة السيف ، فيدعها طعمة هينة بين أيدي الذئاب الكاسرة ؟

نعم لقد وجد الفدائي الذي علم العالم الفداء ورسم لهم الدرب بأجلى صوره وأحسنها .

أنه مأزق لا يُحلّ إلا أن يقدم ابن أبي طالب نفسه طعمة لسيوف الجاهلية ، وإذا نجا النبي ، وكان ذلك مدعاة لسلامته ، فما أطيب الموت بظبا السيوف من أجل محمد والحفاظ على بقاء الإسلام .

وأمر محمد علياً أن يتّشح ببرده الحضرمي وينام على فراشه ليوهم قريشاً أن محمداً لا يزال في مضجعه ، وفي تلـك الساعات يخرج النبي مغادراً مكة قاصداً يثرب دار الهجرة وبـــلد الأمان ومحط الرحال ، واتشح علي ببرد النبي ينتظر السيوف المشرعـة والفتيان الشداد الذين سوف ينفذون جريمتهم عن سابق عزم وتصميم وإصرار وعناد ، ولكن للنفس اطمئنان وللقلب ارتياح وللروح سكينة إذا كان ذلك يؤمن سلامة محمد ويحفظ حياته .

اضطجع علي على فراش رسول الله ليقيه بنفسه ويفديـه بروحه ، وتحلقت فتيان قريش وضربت حوله سوراً تريد القضاء عليه والإنتهاء منه ، وإذا تفاجأ

أنه علي وليس محمداً ، فيقع مـــا في أيديها وتسقط أوراقها التي راهنت عليها فخسرتها خسارة فادحة لم تتصورها ولم تمر في مخيلتها .

لقد اكلت نفوسها الحسرة ومـلأ الغيظ جوانحها ، وتمنت أن يقع محمد تحت ظلال سيوفها لتؤدي المهمة التي انتـُدِبت من أجلها ، لقد تبين ان خطتها قـــد فشلت ، وأن محمداً قد نجا .

هذا هو علي في أروع صور البطولة والفداء ، يقدم نفسه من أجل محمد ، من أجل الإسلام الذي يحمله محمد ، فأي شجاع يوطن نفسه هـذا التوطين ، يوطنها لتمزقها الأسنة والسيوف ، وأين هذا ممن هو في مكان أمين لم يكن هدفاً للقتل ولا مقصداً له .

إن مبيت علي على فراش النبي يثبت أنه الشجاع الذي لا يصل إلى كعبه الشجعان ، فقد نزل فيه من الله قوله تعالى : (ومن الناس [1] من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رؤوف بالعباد) .

فقد أجمع المفسرون أنهـا نزلت في علي ليلة المبيت على الفراش ، فقد روى الثعلبي في تفسيره : أن النبي صلى الله عليه وآله لمـا أراد الهجرة إلى المدينة ، خلـّف علي بن أبي طالب بمكة لقضاء ديونـه وأداء الودائع التي كانت عنده ، وأمره ليلة خرج إلى الغار ، وقـد أحاط المشركون بالدار أن ينام على فراشه ، وقال له : أتشح ببردي الحضرمي الأخضر ونم على فراشي ، فإنه لا يصل منهم إليك مكروه إن شاء الله تعالى، ففعل ذلك علي عليه السلام ، فأوحى الله تعالى إلى جبرائيل وميكائيل إني آخيت بينكما وجعلت عمر أحـدكما أطول من الآخر ، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ، فاختار كلاهما الحياة ، فأوحى الله تعالى إليهما : أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب، آخيت بينه وبين محمد، فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، أهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه فنزلا، فكان جبرائيل عند رأسه وميكائيل

---

(١) البقرة : ٢٠٧ .

عند رجليه ، وجبرائيل ينادي : بخ بخ من مثلك يا علي ؟ يباهي الله تبـــارك وتعالى بك الملائكة .

فضافاً إلى تلـك الشجاعة التي يثبتها المبيت ، فهناك مؤشرات يمكن أن نستفيدها من ذلك ، وهي أن علياً هو الخلف الطبيعي للنبي بعد ارتحاله عن دار الفناء ، فكأن مبيت علي رمز للامة وإشارة كي تتخذه إماماً إن فقدت النبي من بينها ، وأن تتمسك به لأنه الإنسان الذي يحل محل النبي ، وبــه يكمل الإسلام الشوط حتى تتم مقاصده وتقوى فروعه .

دور الإمام علي عليه السلام
في معركة بدر الكبرى

خابت قريش فيما تعاقدت عليه من قتل النبي صلى الله عليه وآله، وضلّ سعيها فيما أمّلت من نجاح خطتها التي رسمتها للقضاء عليه .

لقد نجح محمـــد في هجرته وانتصر على الشرك بترك مكة ليؤسس دولته الجديدة في المدينة ، وها هو يستقر في مهجره مع الثلة الطيبة التي هاجرت معه والاخرى التي استقبلته .

لقد ارتحل محمـــد عن وطنه ، بعد أن عذبت قريش أتباعه وأذاقتهم حرّ الحديد والنار .

لقد فارق محمد وأتباعه وطنهم، وللوطن لوعة إذا فارقه أبناؤه ، خصوصاً إذا كان فراقهم له عن كره واضطرار .

استقر المقام للمهاجرين في المدينة، ولكنهم بتوجيه من القيادة النبوية أخذوا يتربصون لقريش ليفجعوها بأموالها وليشعروها أنهم أصبحوا قوة تهدد مصالحها وتتحداها في ممتلكاتها ، ولن تتركها تفعل كما يحلو لها .

كانت قريش تعتمد رحلة الصيف إلى الشام ، فترقب المسلمون هـــذه القافلة العائدة منها المحملة بما تحتاجه الجزيرة العربية وما يحلو لتجارها ، ترقبها المسلمون

للاستيلاء عليها ، ردّاً ولو لبعض ما فقدوه في مكة وتركوه من ديار وعقار ، وإشعاراً القرشيين بأن الذين أخرجوا بالأمس من بين أظهرهم قد أصبحوا قوة تقف في وجوههم ولن تتركهم بحال .. لكن أبا سفيان رئيس القافلة حادَ عن الطريق وتنكّب عنها ، بعد أن وصلت إليه الأنباء عن عزم المسلمين على التصدّي للقافلة .

وسمعت قريش أيضاً بنوايا المسلمين وأنهم تعرّضوا لقافلتهم، فجمعوا جموعهم ووحّدوا صفوفهم لتأديب هذه الجماعة التي تريد أن تنقضّ على أموالهم وتنغّص عليهم أمن رحلتهم .

لقد هاجت قريش وعظم الأمر عليها وأخذت تتحدث مع نفسها وتتناقل الحديث بينها : إن محمداً وأنصاره الضعفاء الذين ارتحلوا عن مكة يريدون أن يقفوا في وجه قريش وجبروتها؟! يريدون أن يتحدّوا عنفوان مكة وأبطالها؟!

لا .. لن تمر محاولة المسلمين تلك دون عقوبة، ولن تترك قريش محمداً وشأنه بعد الآن يتصرف كما يحب ويشاء ، إن هذا شيء يمسّ شرف قريش ويحطّ من كرامتها ، وتسقط قيمتها الاجتماعية عند العرب إذا سمعت أن محمداً قد تعرّض لقافلتها وهي لم تؤدّبه .

إذن فليُسمِع النفير كل أبناء البطحاء ولتخرج أفلاذ مكة وأكبادها إلى حيث اعترض محمد القافلة ، ولتضربه وأصحابه ضربة واحدة تقضي عليهم وتؤدّب مَن تسوّل له نفسه يوماً ما اعتراض قريش في تجارتها أو أمر من امورها .

تأهبت مكة ، فجمعت شبانها وشيبها حتى بلغ عدد من انضوى تحت لوائها تسعمائة رجل أو يزيدون خمسين ، بينما المسلمون لا يزيد عددهم على الثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، وقد خرجوا دون توقع لقتال بل لأخذ قافلة عزلاء تريد المرور ، فهم لم يكونوا على استعداد للمعركة ولكنهم مع ذلك يملكون أكبر النفوس وأعظمها وأقوى الأبطال وأقدرها .

واستشار النبي ﷺ أصحابه في مواجهة قريش، فقـام المقداد بن الأسود الكندي قائلاً للرسول: يا رسول الله، امضِ لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون»[1]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرتَ بنا إلى برك الغماد (يعني مدينة الحبشة) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

وقال سعد بن معاذ: قد آمنا بك وصدقناك[2] وأعطيناك عهودنا، فامضِ يا رسول الله لما أُمرت، فوالذي بعثك بالحق، إن استعرضت بنا هـــذا البحر فخضته لنخوضنه معك، وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غداً، إنا لصُبر عند الحرب صُدُق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك، فسِرْ على بركة الله.

لقد تقررت الحرب فلا مناص، ولتأتِ قريش بكل جحافلها، فإن للمسلمين عزيمة تفلُّ الحديد وتدكُّ الشم الرواسي من الجبال، إن لديهم القلوب المؤمنة التي تتسابق إلى الموت فتراه امنيتها إذ هو إحدى الحسنيين لا محالة.

تسعمائة وخمسون رجلاً يقابلهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فـــارق عددي كبير.. فلو كان المسلمون يقاتلون به لانهارت عزائمهم وخارت قواهم، ولكنهم لم يقاتلوا ولن يقاتلوا إلا بعزيمتهم وإيمانهم وحقهم.. إنها الثلة الطيبة الخيِّرة التي ليس على وجه الأرض مثيل لهـا، إنها بمفردها آمنت بالله وخلصت له وتوكلت عليه.. لقد باعوا أنفسهم لله فهان عليهم كل شيء وتغيرت في أنظارهم مقاييس الحياة والموت.

وقف كلٌّ إزاء الآخر وجهاً لوجه، ما هي إلا لحظات وتندلع المعركة وتبين النتيجة وينكشف الأمر.

---

(١) و (٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج ٢ ص ١٢٠.

وفي تلك الأثناء خرج أبطال الشرك يدلون بشجاعتهم، خرجت أفلاذ مكة وفرسانها ، لقد خرج ثلاثة رجال هم طليعة الشرك وشجعانهم، ولعل بهم تتقرر النتيجة إذا هم ضربوا ضربة قضت على رؤوس المسلمين وشجعانهم .

لقد برز هؤلاء الثلاثة وفي نفوسهم أمل كبير ، إنها نهاية المسلمين.. برز عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، ثلاثة صناديد من أبطال قريش .

وماذا يريدون ؟

هل يدعون إلى الكف عن القتال وحقن الدماء والرجوع إلى بلدهم ؟ أم ماذا يطلبون ؟

إنهم يدعون للمبارزة !..

دعوة تحمل في طيّاتها الموت .. دعوة تحمل اعتداداً بالنفس وثقة بها .

ومَن لهؤلاء الثلاثة الطغاة والجبابرة العتاة ؟ فليُخرج إليهم محمد ثلاثة من المسلمين .. وأمر النبي بأمره، فبرز ثلاثة أبطال ممن شروا أنفسهم في سبيل الله، برز عوف ومعوّذ ابنا الحارث ، وعبدالله بن رواحة .. ها هم قد انحدروا نحو أخصامهم إجابة لهم واستجابة لتحدّيهم ، وما ان وصلوا على مقربة منهم حتى قالوا لهم : مَن أنتم ؟

قالوا : رهط من الأنصار .

قالوا : ما لنا بكم من حاجة .

ثم نادى مناديهم : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا .

ما أشد الكبر في نفوس هؤلاء القوم ! يأبون مبارزة أحـد إلا أمثالهم من الفرسان والشجعان ممن يمثلون الثقل في جانب المسلمين ، حتى تكون الضربة التي يوقعونها بأعدائهم ضربة قاصمة ، فلا تقوم للمسلمين بعدها قائمة .

ومَن لهؤلاء الطواغيت ؟ لا بد وأن ينتقي النبي أعظم أصحابه وأقواهم ، أشدهم وأشجعهم .

فقال رسول الله ﷺ : قم يا حمزة بن عبدالمطلب، قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا علي بن أبي طالب .

وقام فرسان الله لأداء واجبهم وتوجهوا نحو أخصامهم، فلما دنوا منهم قالوا: من أنتم ؟ فانتسبوا .. فقالوا : أكفاء كرام .

فبارز عبيدة بن الحارث [1] عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز علي الوليد .. فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه (جرحه جراحة قوية) وكرّ حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فقتلاه .

وفي بعض المصادر : إن علياً قتل الوليد وأعان على قتل شيبة وعتبة، وهذا يؤيد ما ذكره الإمام في بعض كتبه التي كتبها لمعاوية الباغي ، حيث ذكر فيها: « وعندي السيف الذي أعضضته بجدك وخالك وأخيك في مقام واحد » .

ويقول عليه السلام في مورد آخر : « فأنا أبو حسن قاتل جدك وخالك وأخيك شدخاً يوم بدر، وذلك السيف[2] معي وبذلك القلب ألقى عدوي، ما استبدلت ديناً ولا استحدثت نبياً ، وإني على المنهاج الذي تركتموه طائعين ودخلتم مكرهين » .

إذن فلسيف علي عليه السلام فضل كبير ، به قد سقطت رؤوس الشرك وتهاوت تحت أقدام الحق .. وما أن انجلت المبارزة عن سقوط العناصر المعادية ، حتى اقتحم المسلمون كرجل واحد، انقضّوا يضعون فيهم السيف يقتلون ويأسرون، وقد كان حصيلة ذلك أن قُتل من المشركين سبعون فرداً وأُسر سبعون .

ولو أردنا أن نعرف سهم علي من هؤلاء القتلى لكان شيئاً مذهلاً ، إنه حقاً

---

(١) الطبري ، ج ٢ ص ٤٤٥ .

(٢) نهج البلاغة .

من الأرقام الخيالية التي تُلحق علياً بالمعجزات ، بل حقاً إن علياً نفسه معجزة ، فكيف لا تأتي ضرباته وشجاعته وقوته عناصر تلك المعجزة ؟..

لقد قتل علي بسيفه نصف عدد القتلى، علي وحده قد هشّم رؤوس الكفر ، وعلى يديه تمّ الانتصار في بدر .

لقـــد عدّد المؤرخون مَن قتلهم الإمام واحداً واحداً ، ذكروهم بأسمائهم وأوصافهم فبلغ عددهم خمسة وثلاثون رجلاً، وكانوا من أشراف قريش وشجعانها وأهل القوة والنجدة فيها ، فلم يبقَ بيت في قريش لم ينله سهم من سيف علي .

ونحن لا نريد هنا ذكر أسماء من قتلهم الإمام فله مكان غير هـذا ، ولكن يجب أن ننظر إلى موقف الإمام ودوره في هـذه المعركة ، ونقلب أنظارنا في التاريخ وفي كتب السير والحديث والرجال وكل من تعرّض لهذه المعركة، لنرى كيف تمّ الانتصار؟ وبسيف مَن ؟ وهل هناك شجاع يقف في صف ابن أبي طالب قديماً أو حديثاً ؟..

وهل هناك من أصحاب محمد مَن تنازعه نفسه وتقوده جرأته إلى أن يتفوّه بكلمة يفضل فيها أحداً من الصحابة على علي؟ فهل عزّ الإسلام وارتفعت راياته إلا بسيف علي ، وهل ارتفعت شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا بضربات علي البكر ؟

إن أصحاب محمـد صلى الله عليه وآله وسلم لهم الفضل والسابقة والأجر والثواب ، جاهدوا وبذلوا وقدّموا ، ولكن أين هم من علي عليه السلام ؟! إنه قد سبق الكل دون استثناء وفاقهم في جميع الخصال والخلال.. إنه معجزة محمد الخالدة في كل شيء في الجهاد والعلم والزهد والعدل .. إلى آخر قائمة الفضائل التي فاز علي بأوفرها.

دور الامام في معركة أحد

مواقف البطولة في أحد :

غزوة أحد هي إحدى الغزوات التي كان الإمام فيها سيف الله وفتى الإسلام الخالد ، به حفظ الله حياة النبي ، وبسيفه كشف الكرب عن وجه رسول الله في هذه الواقعة ، أعطي علي علامة فارقة في تاريخ النضال ، وضرب رقماً قياسياً في الدفاع عن رسول الله ، أنه موقف بطولي رائع لم يتحمله إلا من امتحن الله قلبه للإيمان وملك شجاعة فائقة النظير منقطعة المثيل، أنها واقعة كلفت المسلمين الدماء والأنفس الزكية الطاهرة ، وقدّمت فيها أطهر القرابين وأقدسها وأعز الأرواح ، وأغلاهـا على رسول الله حيث سقط حمزة عم النبي شهيداً في أرض المعركة مع عدد من المسلمين الطيبين المجاهدين دفاعاً عن العقيدة وصوناً لرسول الله من وصول الأذى إليه .

إنها معركة لحق النبي من آثارها وأذاها، ما لم يلحقه فيما سبق، ولن يلحقه فيما يأتي ، فقد شجت جبهته الكريمة وأدميت شفته وأصيبت رباعيته ، ويجمل هذه الواقعة ملخصاً مما روته كتب السير والتاريخ :

إن قريش بعد هزيمتها الساحقة في بدر ومقتل صناديدها ورجالها والأبطال منها عزمت على الثأر من المسلمين رداً لاعتبارها الذي فقدته ، فلذا عزم أبو

سفيان رأس الكفر والضلال مع رجال من قريش أن تجعل العـــير التي سببت الواقعة في تمويل جيش لغزو المسلمين والقضاء عليهم، واتفقت كلمة الكفر واتحد الباطل لمواجهة الحق .

لقد تأهبت قريش بما تملك من قوة وما عندها من عزم، ولكن لتتأكد أزيد من النصر وتضمنه إلى جانبها ، قررت أن تضم إليها أكبر عدد من الناس ، فلذا سارت في العرب تستنصرهم لحرب المسلمين ، وقد أفلحت في مسعاها إذ جمعتهم لحرب رسول الله ، فقد استطاعت أن تلملم ما قدرت عليه حتى بلغ مجموعهم ثلاثة آلاف رجل يتقدمهم صاحب اللواء طلحة بن أبي طلحة .

ووصل النبأ إلى مسامع النبي ، وأن قريش تريـــد غزو المدينة ، فاستشار أصحابه بين الخروج من المدينة لملاقاة قريش، وبين بقائه فيها والدفاع من داخلها وبعد ابداء الآراء واختلافها، قرر النبي أن تكون الحرب خارج المدينة، فاختار (أحد) ، وخرج المسلمون بقيادة النبي، وقد بلغ عددهم الألف، وفي منتصف الطريق رجع شيخ النفاق عبدالله بن أبي بمن تبعه ، وقـد بلغوا ثلاثمائة ، ولكن النبي لم يكن ليهن من ذلك التخاذل ، بـل تابع مسيره حتى وصل إلى أحد ، فجعل الجبل خلف ظهره واستقبل المدينة بوجهه ، وكان قد وضع على ثغر جبل أحد خمسين من الرماة بقيادة عبدالله بن جبير وأمرهم أن لا يغادروا المكان موجهاً لهم قائلاً : احموا لنا ظهورنا ، فإنا نخاف أن نؤتى [1] من ورائنا والزموا مكانكم لا تبرحوا منه، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم،فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فـلا تعينونا ، ولا تدفعوا عنا ، اللهم إني أشهدك عليهم ، وارشقوا خيلهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقدم على النبل .

ووصلت قريش إلى أُحد، واقترب الكفر والبغي، ودنى الباطل حتى أصبح في مواجهة الحق ، وقـاموا بعملية تقسيم للأدوار وتوزيع للمهام فرتبوا أنفسهم

---

(١) مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٢٤ .

كما أحبوا وبالطريقة التي يرضون عنها كي يتيسر لهم النصر .

وفي تلك اللحظة التي كمل فيها التنظيم وتمت الموافقة الكاملة على ابتداء الحرب خرج من بين جموع الشرك حامل لوائهم، وكان من أهم فرسانهم وأقوى شجعانهم فقد كانت العرب لا تعطي الراية ولا تسلمها إلا لمن يقوم بحقها، ولا يفر عنها مهما اشتدت الأحوال واسودت الساعات لأنها رمز الصمود للجيش المقاتل وملتقاه ، فإذا سقطت فهي العلامة البارزة لسقوط شوكة المنضويين تحتها ، والمقاتلين من أجلها ، في هذه اللحظات خرج كبش الشرك وحامل الراية طلحة بن أبي طلحة يتقدم نحو المسلمين رافعاً صوته متحدياً لهم مستهزئاً بهم قائلاً :

« يا معشر أصحاب محمد ، إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة ، فهل أحد منكم يعجله سيفي إلى الجنة أو يعجلني سيفه إلى النار ؟ » .

بهذا البيان أفصح طلحة عما يريد، إنه رجل معتد بنفسه يملك القوة والجرأة والشجاعة ، وإن العرب تعرفه أنه الفارس العظيم الذي يخطف الأرواح ويهوي بالنفوس إلى القبور ، فمن لهذا المشرك ؟ ومن يتقدم إليه ؟ أين أبطال المسلمين وشجعانهم عنه ؟ لماذا لم يردّوا ؟ لماذا السكوت ؟

نعم سكت الجميع إلا فرداً واحداً على يديه يتم التخلص من هذا المتكبر الذي لم يؤمن بالله ، إنه سيد المسلمين بعد محمد ، إنه علي بن أبي طالب عليه السلام .

وبرز علي لطلحة فلم يمهله أن ضربه ضربة قطعت رجله ، فسقط على الأرض وانكشفت عورته ، فناشده الله والرحم فتركه الإمام .. وعندما رأى النبي ذلك كبر وكبر المسلمون من خلفه، ثم زحفوا على المشركين فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى انكشف أهل الشرك لا يلوون على شيء ونساؤهم تدعو بالويل، وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاؤا حتى أجهضوهم عن المعسكر ووقفوا ينتهبون ، فلما رأى الرماة ذلك قال بعضهم لبعض : لمَ تقيمون ها هنا في غير شيء ؟ قد

هزم الله العدو وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم ، فادخلوا عسكر المشركين فاغنموا مع إخوانكم . فقال بعضهم : ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ قال لكم : احموا ظهورنا فلا تبرحوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا غنمنا فلا تشركونا ، احموا ظهورنا ؟.. فاختلفوا بينهم ، فقال لهم أميرهم عبدالله بن جبير : إنه لا يخالَف لرسول الله أمراً ، ولكنهم عصوه وانطلقوا فلم يبقَ معه إلا عشرة .

وهنا يخبّيء القدر مصائبه وتأتي النازلة العظمى لتحلّ بالمسلمين، حيث يرى خالد بن الوليد ذلك – وقد كان على خيل المشركين – يرى قلة المسلمين في ثغر الجبل ، فيصيح بخيله ثم يحمل على الرماة فيقتلهم ويستشهد أميرهم على يد ابن الوليد .. ولما رأى المشركون أن خيلهم تقاتل تنادوا فشدُّوا على المسلمين ، وكانت المأساة التي لم يعرف المسلمون مثيلاً لها في تاريخهم ما قد مضى منه وما هو آتٍ .. إنها هزيمة بعد نصر ، وانكسار بعد انتصار ، وهذا له في القلوب وقع لا يدرك وأثر لا يجبر .

لقد آن للنبي أن ينشر كنانته ، وحقّ للمسلمين أن يبرزوا شجاعتهم ويقدموا الشهداء والقرابين .. إنها السيوف قد شحذت ، والهمم قد التهبت ، وقريش قد أتاها النصر الذي صنعه لها ابن الوليد .

لقد أحدق المشركون بالمسلمين وأطبق الكفر على النبي وصحابته يريدون القضاء التام عليهم .. إنها نهاية المسلمين وخاتمة حياتهم .

ونشر رسول الله ﷺ كنانته ، فرمى بالنبل حتى فنيت نبله وتكسرت سية قوسه، لقد انقطع[1] وتره وبقيت في يده قطعة تكون شبراً في سية القوس، لقد باشر رسول الله الحرب بنفسه ، فرمى وضرب وقتل ، ولماذا يباشر محمد الحرب بنفسه ؟ أين جموع المسلمين ؟ أين أبطال الحروب وفرسان المسلمين ؟ أين

(١) مغازي الواقدي .

الذين بايعوه على الموت وأحبوا حياته وقدّموها على حياتهم ؟ أين هم اليوم ؟ هلاّ صمدوا في وجه العواصف الطاغية التي تقودها قريش ؟ وهل يستطيعون المقاومة أو يدفعون عن أنفسهم وعن نبيهم القتل ؟.. لقد حمي الوطيس واشتد القتال وثار النقع يسدّ الفضاء، ولم يبقَ مع النبي إلا خُلّص أصحابه من المؤمنين الذين أحبوا نبيهم وإسلامهم ، فإذا أصابها مكروه فلا يسألون عن الحياة بعد ذلك .

وفي هذه اللحظات الحاسمة الحرجة تتمّ بيعة خالدة تذكرها كتب التاريخ ، إنها بيعة ليست على صفقة رابحة بالنظر المادي ، ولا بيعة على ملك في الدنيا ، إنما هي بيعة للنبي على الموت .. لقد بايعه الإمام علي عليه السلام مع سبعة معه على الموت ، فلا فرار من الزحف ولا نكوص عن المعركة ، إنه الضراب حتى النفَس الأخير .

نعم ، لقد بايع علي للنبي ، وهو بدون بيعة لا يتخلى عن رسول الله ، فلأجل النبي خُلق ومن أجل الإسلام يبذل نفسه ودمه .

ولنا الحق أن نتساءل : أين الجموع الباقية من المسلمين ؟ أين حمزة ؟ أين الصدّيق ؟ أين عمر ؟ أين عثمان ؟ أين .. أين ؟..

أما حمزة فقد قدّم نفسه قرباناً في هذه المعركة ، لقد استشهد وكذلك غيره من المسلمين قد استشهد، فالشهداء إلى الله قد فازوا بجنته ورضوان من الله أكبر.

ولكن أين عثمان بن عفان؟ هل تخلى عن نبيه في هذه المعركة؟ أين أبو بكر؟ لماذا لم يُسمع له صوت ولم يضرب بسيف ولم يرمِ عن قوس نبلاً؟ أين ابن الخطاب؟ هل ترك النبي وحده في حومة الميدان يكابد هول المعركة وقساوتها ؟ أين هم رجال المسلمين ؟..

نعم ، إذا أردنا أن نعرف أين عثمان وعمر ، فما علينا إلا أن نفتش عنهما خارج المعركة ، فلنفتش عنهما في موطن آخر ، في موطن آمن يأمنون به على

أنفسهم ويحفظ عليهم أرواحهم .

أما عثمان ، فبإجماع المؤرخين ، قد فرّ لا يدفع عنه الفرار أحد ولا يعذره فيه بشر . يقول ابن الأثير في تاريخه :

وقد انتهت الهزيمة بجماعة من المسلمين ، فيهم عثمان بن عفان وغيره ، إلى « الأعوص » [١] ، فأقاموا به ثلاثاً ثم أتوا النبي ، فقال لهم : « لقد ذهبتم فيها عريضة » .

وأي عرض بعدها ، وأي عار أكبر منها ؟! قوم مسلمون يتخلون عن نبيهم في ساعة العسرة وفي أحرج المعارك وأشدّها !.

وإذا أردنا أن نعرف أين أصبح عمر ، فلنرجع إلى الواقدي في مغازيه لينبئنا عنه : قالوا : أتينا عمر بن الخطاب في رهط من المسلمين قعوداً ، ومرّ بهم أنس ابن النضر بن ضمضم عم أنس بن مالك فقال [٢] : ما يقعدكم ؟ قالوا : قُتل رسول الله ، قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم جالدَ بسيفه حتى قُتل .

وهذا ما ذكره الطبري في تاريخه حيث قال: انتهى أنس بن النضر عم أنس ابن مالك إلى عمر بن الخطاب [٣] وطلحة بن عبدالله في رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا ما بأيديهم ، فقال: ما يجلسكم ؟ قالوا :قُتل محمد رسول الله ، قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا كراماً على ما مات عليه رسول الله ، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قُتل .

أين ابن الخطاب وصوته الجهوري ما له قد خفت ؟ لماذا ألقى ما في يده واستلقى؟ هل انتصر في المعركة وانهزم الشرك؟ وكيف يتخلى عن نبيه ويتركه

---

(١) الأعوص : موضع قريب من المدينة .
(٢) المغازي للواقدي ، ج ١ ص ٢٨٠ .
(٣) الطبري ، ج ٢ ص ٥١٧ .

يكافح الأعداء وقد أحدقوا به وبمن معه من القـلة المؤمنة ؟ لماذا لم يشحذ سيفه ويشد عزيمته ويضرب ، فلعله يقتل كافراً فيدخله النـار أو يقتله كافر فيدخل الجنـة ، أو يسد فرجة لعل العدو ينفذ منها إلى النبي ﷺ فيصيبه بمكروه ؟ أين هو ؟ مَن يبحث يعرف أين هو ...

وأين أبو بكر ما له لا يسمع له صوت ولا ترتفع له عقيرة في خلال هـذه المعركة ، فلم يذكر أنه قتل أحداً أو انتضى سيفاً أو دافع عن رسول الله ﷺ نعم أن له موقفاً يذكره ابن الأثير في تاريخه وغـيره من المؤرخين ، وهو أنه قد كان ولده عبد الرحمن بن أبي بكر مـع المشركين ، فنزل إلى المعركة وطلب المبارزة ، وهنا أراد أبو بكر أن يثكل نفسه إن قـدر أو يفجع ولده ، فأراد أن يبرز لابنه ، ولكن النبي حفاظاً عليه، وخوفاً من أن يراق دمه على يد ولده قال : « شم [1] سيفك وامتعنا بك » .

ولهذا الموقف عدل ونظير يمثله عمر والزبير ، حيث قال رسول الله ﷺ في ذلك اليوم : من يأخذ [2] هذا السيف بحقه .

قالوا : وما حقه ؟

قال : يضرب به العدو .

فقال عمر : أنا فاعرض عنه رسول الله ﷺ .

ثم عرضه رسول الله ﷺ بذلك الشرط .

فقام الزبير فقال : أنا فاعرض عنه رسول الله ﷺ حتى وجد (حقد) عمر والزبير في أنفسهما .

ثم عرضه الثالثة ، فقال أبو دجانة : أنا يا رسول الله ﷺ آخذه بحقه فدفعه إليه رسول الله ﷺ .

---

(١) تاريخ ابن الأثير ج ٢ ص ١٥٦ .

(٢) المغازي للواقدي ج ١ ص ٢٥٨ .

هذه إحدى الصور التي تمر أمام الناس ويذكرها التاريخ، إنها واقعة واحدة تمر فيها هـذه الأحداث المتلاحقة من هؤلاء الأبطال ، لم نسمع عنهم أنهم نزلوا لفارس طلب البراز ، فإذا كان ذلك ردهم النبي أو منعهم أو أعرض عنهم، وإذا حمي الوطيس ودارت رحى الحرب ، كان نصيبهم الفرار من الزحف والتولية عندما يلتقي الجيشان وتشتبك الأسنة وتشرع الرماح .

وأين هم من علي ؟!

هل نستنطق التاريخ عنه ؟ وهل بحاجة نحن لذلك ، ونحن نعرف من هو ؟ وأين هو من الشجعان ، أنه درة التاج أن عـدت الأبطال وله اكليل الغاران ، سمعنا بغزوة انتصر فيها المسلمون أو كادوا .

وفي هـذه الغزوة كان الإمام يمثل الدرع التي تقي رسول الله عن وصول مكروه إليه ، أنه معه يحامي عنه ، يدفع عن وصول الأذى إليه ، أنه يحارب على جميع الجبهات ، يدفع هـذه الكتيبة بسيفه فيردها ، ويقاوم تلك فيصدها حتى نادى جبرائيل :

لا فتى إلا علي ... ولا سيف إلا ذو الفقار

ذكر الطبري :

لما قتل علي بن أبي طالب أصحاب الألوية [1] ، أبصر رسول الله ﷺ جماعة من مشركي قريش فقال لعلي: أحمل عليهم فحمل عليهم، ففرّق جمعهم وقتل عمر بن عبدالله الجمحي ، ثم أبصر رسول الله ﷺ جماعة من مشركي قريش فقال لعلي : حمل عليهم فحمل عليهم ففرق جماعتهم وقتل شيبة بن مالك بن عامر بن أؤي ، فقال جبرائيل : يا رسول الله إن هذه للمؤساة ، فقال رسول الله : (إنه مني وأنا منه) ، فقال جبرائيل : وأنا منكما فسمعوا صوتاً :

---

(١) الطبري ج ٢ ص ٥١٤ .

لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار

فهذه مواقف علي تستصرخ الناس ليكونوا حكماً بينه وبين من يسوى به غيره إن من يقرن علياً بغيره فهو إنسان متعصب لهواه، اتخذ إبليس إماماً في عصبيته فأبى مخالفته ، فلذا عمد إلى كل هذه الظواهر الشامخة من الجهاد الكبير لعلي ، فجعلها لا شيء ، بل فضّل من فرّ وهرب أو جبن وقعد، وهل هذا يستحق الرد إنه العمى الذي يصيب البصائر ، فيحول الحق إلى باطل ، والباطل إلى حق ، إنه التعصب والجور .

فاسمع للجاحظ حيث يقول :

«والحجة العظمى للقائلين بتفضيل علي قتله الإقران وخوضه الحروب، وليس له في ذلك كبير فضيله، لأن كثرة القتل والمشي بالسيف إلى الإقران ، لو كان من أشد المحن وأعظم الفضائل ، وكان دليلاً على الرئاسة والتقدم لوجب أن يكون للزبير وأبي دجانة ومحمد بن مسلمة وابن عفراء والبراء بن مالك ، من الفضل ما ليس لرسول الله ﷺ لأنه لم يقتل بيده إلا رجلاً واحداً ، ولم يحضر الحرب يوم بدر ولا خالط الصفوف ، وإنما كان معتزلاً عنهم في العريش ومعه أبو بكر .

ثم يقول : وأنت ترى الرجل الشجاع قد يقتل الإقران ويجندل الأبطال ، وفوقه من العسكر من لا يقتل ولا يبارز، وهو الرئيس أو ذو الرأي والمستشار في الحرب ، لأن للرؤساء من الإكتراث والإهتمام وشغل البال والعناية والتفقد ما ليس لغيرهم ، ولأن الرئيس هو المخصوص بالمطالبة : وعليه مدار الامور ، وبه يستبصر المقاتل ويستنصر ، وباسمه ينهزم العدو » .

يا لله من الاسفاف، هكذا مسخ الجاحظ عقله وصغّر قدره ، لقد تنازل عن كل عبقريته ، وهبط إلى الحضيض في التفكير كي يدحض منقبة لعلي يتقدم بها على من يحبه الجاحظ ، لقد خبط وهبط وسبح في ماء آسن وفكر فقدّر ، فقتل كيف قدر ، وأثبت أن الأطفال بصفائهم حكموا عليه بالخبل ، حينما عرض هذه

الأفكار لأنها أحسن المحامل له وأشرفها .

وأحسن رد عليه وابلغه بحيث يلقمه حجراً،هو ما رد به أبوجعفر الاسكافي في تفنيده للحجج التي أوردها ، أذكر منها بعض ذلك .

يقول : كيف يقول الجاحظ لا فضيلة لمباشرة الحرب ، ولقاء الإقران وقتل أبطال الشرك ؟ وهل قامت عمد الإسلام إلا على ذلك ، وهل ثبت الدين واستقر إلا بذلك ، أتراه لم يسمع قول الله تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » والمحبة من الله تعالى ، هي إرادة الثواب، فكل من كان أشد ثواباً في هذا الصف وأعظم قتالاً ، كان أحب إلى الله ، ومعنى الأفضل الأكثر ثواباً ، فعلي عليه السلام إذاً هو أحب المسلمين إلى الله ، لأنــه أثبتهم قدماً في الصف المرصوص لم يفرقط باجماع الامة ، ولا بارزه قرن إلا قتله ، فموقف الناس في الجهاد على أحوال ، وبعضهم في ذلك أفضل من بعض ، فمن دلف إلى الإقران واستقبل السيوف والأسنة ، كان أثقل على أكتاف الأعداء لشدة نكايته فيهم ، ممن وقف في المعركة وأعان ولم يقدم ...

ثم قال ونعم ما قال :

وأنت إذا تأملت أمر العرب وقريش ونظرت السير وقرأت الأخبـــار ، عرفت أنها كانت تطلب محمداً صلى الله عليه وآله وتقصد قصده وتروم قتله ، فإن أعجزها وفاتها طلبت علياً وأرادت قتله ، لأنه كان أشبههم بالرسول حالاً ، وأقربهم منه قربـاً ، وأشدهم عنه دفعاً ، وأنهم متى قصدوا علياً فقتلوه ، أضعفوا أمر محمد صلى الله عليه وآله وكسروا شوكته ، إذ كان أعلى من ينصره في البأس والقوة والشجاعة والنجدة والإقدام والبسالة ...

إلى آخر ما يردّ به أبو جعفر الاسكافي على الجاحظ ، ونعم ما ردّ به عليه إذ هو في غاية الجودة والمتانة سدده ربه لنصرة الحق وأهله ، من أراد التفصيل

فليرجع إلى شرح النهج لابن أبي الحديد .

فهذه واقعة واحـــدة تمر أمامنا أحداثها ، يستحق فيها علي رتبة الشرف بتفوق كبير حيث ينادي أمين الله جبرائيل بفتوة علي وسيفه ، وسيبقى هـذا النداء تردده الأجيال المسلمة ، ما امتد عمر الدنيا وما سمر على وجه هذه الأرض سمير ، وسيبقى فرار من فر عاراً إلى يوم الدين .

دور الإمام في فتح خيبر

فتح خيبر :

لقد كان دور الإمام علي عليه السلام في هـــذه المعركة دوراً فذاً امتدّت إليه الأعناق من كل جانب، وتمنى كل واحد أن يكون هو سيد الموقف وبطل الفتح، ولكن للنصر رجـــال يصنعونه بعزيمتهم وقوتهم ، وللفتح سلاح مرصود بيد الأوحدي من الناس ، وعلي عليه السلام هو سيد الفاتحين وإمام المنتصرين .

ففي هذه المعركة ، بعـد أن قرر النبي صلى الله عليه وآله غزو خيبر تأديباً لليهود الذين غدروا وخانوا ونقضوا العهـد الذي كان بينهم وبين رسول الله ، قرر النبي أن بفتح حصونهم، وقد كانت حصوناً منيعة قوية حصّنها اليهود استعداداً لمثل هذه الحالات الطارئة .

دعا النبي أبا بكر، فعقد له الراية ووجهه إلى فتح خيبر، فسار بالناس وبقي طيلة يومه دون أن يحقق شيئاً ، بقي يراوح مكانه حتى رجع دون أن يظفر بشيء . ثم في اليوم الثـاني دعا النبي عمر بن الخطاب فعقد له الراية ووجهه إلى الحصن ، ولكن هل يكون ابن الخطاب أسعد حظاً ممن تقدمه ؟ كلا.. إنه ليس بأقدر من أبي بكر فرجع منهزماً، بل زاد انه رجع إلى رسول الله يجبن أصحابه ويجبنه أصحابه .

وهنا عزّ على رسول الله ﷺ أن يعقد بيده لواءً فيرجع خائباً ، أو يوجه أحداً نحو هدف فيرتد منهزماً .

عزّ على رسول الله أن يتأخر الفتح وبيده مفاتيح النصر ، لقد أعلنها كلمة خالدة تتضمن معانٍ عميقة ومغازٍ جليلة قائلاً : « لاعطينّ الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كرّاراً غير فرّار يفتح الله عليه، جبرائيل عن يمينه وميكائيل [1] عن يساره .

وهنا اشرأبّت الأعناق وامتدّت وتمنى كل واحد أن يكون مصداق ذلك ، حتى ان عمر بن الخطاب قال : ما أحببت الإمارة إلا يومئذٍ ، ولكن لله خواص في بعض الناس .. وبات المسلمون ليلتهم كلٌّ يتمنى أن يعطيه النبي تلك الراية ، ولكنه صلوات الله عليه يعلم لمن يدفعها وبيد مَن يجب أن تكون .

وارتفع صوت محمد ﷺ قائلاً: ادعوا لي علياً ، فيدفع إليه الراية فيأخذها علي وينحدر نحو الحصن ، فيجد ملكهم مرحب يخطر بسيفه ويقول :

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرّب
إذا الحروب أقبلت تلهب

فقال الإمام مجيباً :

أنا الذي سمّتني امي حيدرة كليث غـابات كريه المنظرة
اوفيهم بالصاع كيل السندرة

واختلف علي مع مرحب ضربتين، فضربه علي على هامته حتى عض السيف منها بأضراسه ، وسمع أهل المعسكر صوت ضربته وانهزم أصحابه فتحصنوا وأغلقوا البـاب ، فتقدم الإمام إلى الباب ففتحه ، وكان باباً عظيماً يعجز الجمع

---

(١) كنز العمال ، ج ٦ .

الغفير عن رفعه ، وقد أشار ابن أبي الحديد في علوياته ، حيث قال مخاطباً أمير المؤمنين عليه السلام :

يا قالع الباب الذي عن هزّه عجزت أكفٌ أربعين وأربع

وفي رواية الطبري عن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وآله : ان علياً عندما خرج لمقاتلة أهل خيبر ، ضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده ، فتناول علي باباً كان عند الحصن فتترّس به عن نفسه ، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ .. فلقد رأيتني في نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه .

هذا أحد المواقف العظيمة للإمام عليه السلام ، فعلى يديه تمّ فتح الحصن وبسيفه قتل مرحب.. فهل يستوي فاتح الحصن وقالع الباب مع من رجع يجبن أصحابه ويجبنه أصحابه ، أو مع من انهزم ولم يقدر أن يصمد أمام جمع اليهود ؟..

هل يستوي النصر والهزيمة ، أم يستوي من يكرّ ومن يفرّ ؟.. إنه أمر غريب أن يقاس علي بغيره، وإليه تتجه الأنظار إن حزب أمر أو وقع المسلمون في شدة أو ضيق !.

دور الإمام في غزوة الخندق

أما في هذه الغزوة فقد كان لعلي عليه السلام فيها سهم وافر ونصيب فـــاق كل المسلمين مجتمعين إلى يوم الدين ، إذ كان فارسها الوحيـد الذي جلا الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله ، حيث اجتمعت الأحزاب واليهود ومن لفّ لفّهم لغزو المدينة والقضاء على المسلمين .

فبعد أن اقتحم عمرو بن عبد ودّ الخندق الذي حفره النبي حول المدينة ، وأخذ يجول ويصول وكان يعدّ بألف فارس ، ويتحدى المسلمين بقوله : هل من مبارز ؟ وينشد ويردد :

ولقد بححت من النداء بجمعهم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن الشجاع موقف القرن المناجز

أمام هذا النداء هدأت أصوات المسلمين وكأن على رؤوسهم الطير كلٌ يفكر في نفسه ويحسب لهذا البطل ألف حساب ، وعمرو يرعد ويهدد ويقول للمسلمين:

« أيها الناس ، إنكم تزعمون أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار .. أفما يحب أحدكم أن يقدم على الجنة أو يقدم عدواً له إلى النار ! » .

وأخذ عمرو يطلب البراز فلم يجـد مَن يجيبه ، إلا شخصاً واحداً كان يقف ويطلب من النبي الاستئذان .

وتكرر النداء وتكرر وقوف هـذا الشخص إلى أن استأذن في المرة الثالثة من النبي ، فأذن له .

هل يخفى ذلك الشخص عن أعين الناس ؟ وهل غاب في موقف ما ؟! كلا.. إنه علي بن أبي طالب عليه السلام .

نعم ، لقد أذن له النبي صلى الله عليه وآله في هذه المرة ، بعـد أن عمّمه بعمامته وقلده سيفه ومنحه أشرف وسام وأعظم رتبـة شرف سيبقى صداها يتردد على مرور الزمن ، قائلاً : « برز الإيمان كله إلى الشرك كله » .

وانحدر الإمام عليه السلام نحو عمرو ، فلما وصل إليه قـال له : يا عمرو ، إنك كنت في الجاهلية تقول : لا يدعوني أحد إلى ثلاثة إلا قبلتها أو واحدة منها .

قال : أجل .

قال : فإني أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن تسلم لرب العالمين .

قال : أخر عني هذه .

قال : أما إنها خير لك لو أخذتها ، ثم قال : ترجع من حيث جئت .

قال : لا تتحدث نساء قريش بهذا أبدا .

قال : تنزل تقاتلني .

فضحك عمرو وقال : مـا كنت أظن أن أحداً من العرب يرومني عليها ، وإني لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك .

فقال الإمام : لكني احب أن أقتلك فانزل إن شئت .

فغضب عمرو عند ذلك واقتحم عن فرسه فعقرها ثم أقبل على علي فتناوشا فضربه عمرو في الدرقة فقدّها وأثبت فيهـا السيف وأصاب رأسه فشجّه ، وضربه الإمام ضربة على عاتقه فسقط إلى الأرض ، وعندها كبّر الإمام وكبّر المسلمون من خلفه وانجلت الواقعـة عن مصرع عمرو ، واستحق علي أن يقول

النبي فيه : « لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ود أفضل من عمل أمتي إلى يوم القيامة »[1] .

فأين الأبطال عن ملاقاة عمرو ؟ ولمَ هدأت الأصوات ولم يُسمع لأحد منهم حس ؟ هل في السوح غير علي ؟ وهل لملاقـاة الأقران غير ابن أبي طالب ؟ أين الذين تقدّموه ؟ أين مَن ادُّعي لهم الأفضلية عليه ؟ لماذا لم ترتفع أصواتهم في تلك الساعات الحرجة ، بل لاذوا بالصمت مكتفين أن جيء بأسير إلى النبي مكتوف اليدين أن ينبري عنـدها أحدهم ويعلو صوته : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا الكافر أو المنافق .

نعم ، إن هذا الوقت ليس وقت مساومة على النفس ، وليس كل واحد يقدر على ملاقاة الأبطال وتحمله قدماه أن يقدم نفسه شهيداً في سبيل الله .

نعم ، هناك بطل خـالد لا يبالي أوَقع على الموت أم وقع الموت عليه ، إنه ابن أبي طالب الذي ينتزع النصر انتزاعاً .

---

(١) البحار ، ج ٤١ ص ٩١ .

دور الإمام في حرب الجمل

لقد أجهز على عثمان عمله فأورده مورده، واجتمعت كلمة المهاجرين والأنصار وسائر المسلمين على بيعة الإمام ، وكان أول من بايعه وصفق على يده طلحة ثم الزبير .

روى البلاذري : فلم يبقَ أحد من أهل بدر إلا أتى علياً فقالوا : ما نرى أحداً أحق بهذا الأمر منك .. فلما رأى علي ذلك صعد المنبر ، فكان أول من صعد إليه فبايعه طلحة بيده وكانت شلاء ، فتطير منها علي وقال : « ما أخلقه أن ينكث » .

وفي رواية الطبري : إن حبيب بن ذؤيب نظر إلى طلحة حين بايع فقال : أول من بدأ بالبيعة يد شلاء ، لا يتم هذا الأمر .

اجتمع المسلمون واتفقت كلمتهم على استخلاف علي ولم يعد بإمكانه دفعهم عنه، حتى قال عليه السلام في إحدى خطبه مصوراً تلك الحال: فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إليّ ينثالون عليّ من كل جانب ، حتى لقد وطىء الحسنان وشق عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم ، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت اخرى وفسق آخرون .

ولكن هذه اليد التي بايعته قررت أن تغدر به ، إذ انها توقعت مع الزبير أن

تقتسم المغانم التي يمكن أن تنالها من خلافة علي ، ولكن بعد تصريح الإمام لهما أنه ليس عاجزاً حتى يشركهما في أمره ، أيقنا أن الأمر قد فاتهما وأن علياً يستقل بالخلافة ، فأخذا يفكران في إعلان الحرب عليه ولكنهما تحت يده ، إنهما لا يزالان في المدينة وهي تحت سلطانه وإرادته ، مضافاً إلى أن الإمام لم يحدث شيئاً يؤخذ به أو يحاسب عليه ، ولا يمكن أن تتوجه نحوه أية تهمة ، خصوصاً وأنهما قد بايعاه وصفقا على يديه بالأمس .

إذن ليس بإمكانهما أن يعلنا العصيان عليه وهما في المدينة ، فلذا فكرا بمكة ، إنها البلدة التي آوى إليها حثالة الامويين وأعداء الإمام ، مضافاً إلى وجود أم المؤمنين عائشة فيها حيث خرجت قبل مقتل عثمان ورفضت دعوى مروان لها أن تتوسط بين الخليفة عثمان والثوار وتتأخر عن رحلتها إلى مكة لعل الله يدفع بها القتل عن الخليفة ، ولكنها أصرت على مغادرة المدينة موجبة على نفسها — كما تدعي — العمرة .

لقد استأذن طلحة والزبير من الإمام في العمرة ، فقال لهما : ما العمرة [1] تريدان ، فحلفا له بالله أنهما ما يريدان غير العمرة ، فقال لهما : ما العمرة تريدان وإنما تريدان الغدرة ونكث البيعة ، فحلفا بالله ما الخلاف عليه ولا نكث بيعته يريدان وما رأيهما غير العمرة ، فقال لهما : فأعيدا البيعة لي ثانية ، فأعاداها بأشد ما يكون من الإيمان والمواثيق ، فأذن لهما وخرج الاثنان من المدينة إلى مكة فلم يلقيا أحداً إلا وقالا له : ليس لعلي في أعناقنا بيعة ، بايعناه مكرهين والتحقا بمكة ، واجتمع فيها كل من لم يكن هواه مع علي أو على رأيه .

إذن اجتمع كل أخصام الإمام في هذه البلدة الطيبة ، إنهم في جوار الله يريدون حرب أولياء الله !.. ما أقسى يد القدر أن يعقد العزم في حرم الله على معركة تودي بحياة جملة من أفراد الصحابة الذين عايشوا الدعوة وبزوغ فجر

---

(١) ابن أبي الحديد ، ج ١ ص ٢٣٢ .

الإسلام ، ولكن المطامع والأهواء والأحقاد التي في الصدور تأبى أن تتخلى عن محاربة الحق المتجسد في علي وأصحابه .

إن مسؤولية حرب الجمل تُلقى على ثالوث مكوّن من امرأة ورجلين ، وإن دماء الآلاف التي اهدرت في هذه الواقعة تقع في أعناق هؤلاء الثلاثة وهم الذين يتحملون آثارها والحساب عنها ، ويتحمل القسط الأوفر منها أم المؤمنين عائشة إذ كانت هي الحاملة لقميص عثمان تنـادي بمظلوميته ، وكانت قد رفعته من قبل شعاراً لظلمه .

يقول ابن الأثير : إن عائشة كانت قـد خرجت إليها – إلى مكة – وعثمان محصور ، ثم خرجت تريد المدينة ، فلما كانت (بسرف) لقيها رجل من أخوالها من بني ليث يقـال له عبيد بن أبي سلمة وهو ابن ام كلاب ، فقالت له : مهيم ؟ قال : قتل عثمان وبقوا ثمانياً ، قالت : ثم صنعوا ماذا ؟ قال : اجتمعوا على بيعة علي،فقالت: ليت هذه انطبقت على هذه إن تمّ الأمر لصاحبك، ردوني ردوني، فقال لها : ولمَ ؟ والله إن أول من أمال حرفه لأنتِ ، ولقد كنتِ تقولين اقتلوا نعثلاً فقد كفر .

إن أم المؤمنين هي أول من حمـــل راية المعارضة ضد عثمان لأنه أنقص من عطائها الذي فرضه عمر لهـا ، حيث ميّزها [1] ورفيقتها عن سائر نساء النبي ورفع عطاءها عن عطائهم ، وقـد كان عمر هو أول من فاوت في القسم وعدَلَ عن طريق النبي ، فقد ميّز عمر بين المهاجرين والأنصار وبين القرشيين وغيرهم، وكان هذا أول انحراف عن مسيرة الرسالة وسلوك النبي .

روى اليعقوبي في تاريخه: فقد بدأ – عمر – بالعطاء بالعباس بن عبد المطلب في ثلاثة آلاف ، وكل من شهد بدراً من قريش في ثلاثة آلاف ، ومن شهد بدراً من الأنصار في أربعة آلاف ، ولأهل مكة من كبار قريش مثل أبي سفيان بن

---

(١) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٤٢ .

حرب ومعاوية بن أبي‌سفيان في خمسة آلاف، ثم قريش على منازلهم ممن لم يشهد بدراً ، ولامهات المؤمنين ستة آلاف، ولعائشة وأم حبيبة وحفصة في اثني‌عشر ألفاً ، ولصفية وجويرية في خمسة آلاف ... وفي أهل مكة الذين لم يهاجروا في ستمائة وسبعمائة ، وفرض لأهل اليمن في أربعمائة ولمضر في ثلاثمائة ولربيعة في مائتين .

فقد كان لام المؤمنين عائشة وحفصة خصوصية عند عمر، ولكن عندما تولى عثمان الخلافة لم يترك الأمر كما هو بل أنقصها نصيبها ، فلذا حملت عليه حملتها الشديدة وأعلنت عليه الثورة ، وها هي الآن تتطلع إلى ابن أبي طالب فتراه على الحق الصريح ولكن كثيراً من الناس يخافون العدل ، فلذا أعلنت مع طلحة والزبير قادة العصيان ، أعلنت معهما الحرب على إمام الهدى .

ومن مكة توجهت ام المؤمنين وصحبُها نحو البصرة، لقد أرادوا أن يتخذوا منها حصنهم الذي منه يقذفون ابن أبي طالب بالحرب ، وقد جرت في الطريق أحداث لام المؤمنين أبانت لها معالم الحق بصراحة وبصّرتها أزيد ، وإن كانت تعرف الحق انه في صف الإمام ومعه ، إنها تعرف أن الحق مع علي بالنص الصريح من النبي ﷺ ...

لقد نبحتها كلاب الحوأب في الطريق فأبت أن ترجع ، وكتبت إليها ام المؤمنين ام سلمى ذلك الكتاب العظيم التي تقول فيه : « ما كنتِ قائلة لرسول الله ﷺ لو عارضك بأطراف الفلوات ناصّة قلوصك قعوداً من‌منهل إلى‌منهل، ان بعين الله مثواك وعلى رسول الله تعرضين .. ولو أُمرت بدخول الفردوس لاستحييت أن ألقى محمداً هاتكة حجاباً جعله الله عليّ » .

إن ام المؤمنين عائشة كانت من أعلام الثورة على الإمام علي ولن ترجع مهما كلفها الأمر ، فلذا أقبلت مع جيشها حتى وصلت البصرة ، فنزلوا بموضع يقال له (المربد) ، وخطب الزبير وطلحة وخطبت ام المؤمنين .

لقد عظم على المسلمين الغيورين خروج ام المؤمنين ، فلذا حارب كثير منهم

من أجلها ، لا من أجل إيمانهم بأنها وجماعتها على الحق ، أنهم نظروا إليها أنها زوجة نبيهم وأم المؤمنين ، فكيف يتخلون عنها ، لقد حارب كثير منهم غيرة وحفاظاً عليها ، وقد تذمر كثيرون لخروجها من بيتها الذي أمرها الله بلزومه ، فهذا جارية بن قدامة السعدي يقول لها : يا أم المؤمنين [1] والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح ، أنه قد كان لك من الله ستر وحرمة ، فهتكت سترك وابحت حرمتك ، أنه من رأى قتالك يرى قتلك .

وقال لها أبو الأسود عند دخولها البصرة : وما أنت من عصانا وسيفنا وسوطنا ؟ وأنت حبيس رسول الله ﷺ أمرك أن تقري في بيتك ، فجئت تضربين الناس بعضهم ببعض .

لقد دخلوا البصرة ، وكان عثمان بن حنيف عاملاً من قبل الإمام عليها، وبعد محاورات جرت وأخذ ورد اتفقوا مع ابن حنيف أن يبقى يصلي بالناس حتى يكتب لعلي ويأتيه الجواب ، ولكنهم لم يلبثوا إلا يومين حتى وثب عليه طلحة والزبير ومروان بن الحكم ، أتوه نصف الليل في جماعة معهم في ليلة مظلمة سوداء مطيرة ، وعثمان نائم فقتلوا أربعين رجلاً من الحرس ... وأرادوا قتله ، فسمحت عائشة بالعفو عنه ، فنتفوا لحيته وحاجبيه وأشفار عينيه .

وأما الإمام علي فقد خرج من المدينة بعد أن عرف بخروجهم إلى البصرة ، خرج ليقطع الطريق عليهم إليها، خرج ومعه وجوه المهاجرين والأنصار، ولكن القوم فاتوه وسبقوه إلى البصرة ، وتنقل الإمام بين الربذة وقرب الكوفة ، وفي نهاية المطاف بعد أن ألتحق فيه من التحق ، أكمل السير حتى وصل البصرة .

إنها البصرة ستجري على ثراها أول معركة بين المسلمين ، وستكون فاتحة

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٢١٣ .

الشر بين أمة وحدّها النبي وجمع كلمتها ، لقد وقف الجميع وجهاً لوجه ينتظرون اللحظة الحاسمة التي يدق فيها النذير صوت الحرب .

قـــام الإمام ووعظ فخوّف ورغّب فذكّر بالله كثيراً ، ولكنها النفوس الشحيحة تأبى أن تذعن للحق، ثم تقدم نحوهم على بغلة رسول الله الشهباء ، وهو حاسر فقال أين الزبير ؟ فخرج إليـــه شاكاً سلاحه ، فقيل لعائشة فقالت : واحرباه باسماء ، فقيل لهـــا : إن علياً حاسر فاطمأنت واقتربا حتى اختلفت أعناق فرسيهما ، فقال له الإمام :

تذكر يوم مررت مـــع رسول الله ﷺ في بني غنم ، فنظر إليّ فضحك وضحكتُ إليه فقلت له : لا يدع ابن أبي طالب زهوه ، فقال لك رسول الله : ليس به زهو لتقاتلنه وأنت له ظالم .

قال : اللهم نعم ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا ، والله لا أقاتلك أبداً ، وعندها رجع الزبير إلى أم المؤمنين بغير الوجه الذي فارقها منذ قليل، لقد رجع إليها وقال لها : ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمري غـــير موطني هذا .

قالت : فماذا تريد أن تصنع ؟

قال : أريد أن أدعهم وأذهب .

لقد رجع الزبير عن الحرب ، ولكن تلك العصابة لن تنتهي عن غيها ، إنها ستكمل الشوط مهما كانت النتائج ، وعواقب ذلـك حتى لو كانت الخزي والعار وبعدهما النار .

والتقى الصفان ودارت رحى الحرب ، فما هو دور الإمام في تلك المعركة ، أنـــه الموجّه والمحارب ، وسأقتصر على بعض تلك المواقف التي أعادت للإمام ضرباته في بدر وأحد والأحزاب ، لئن وقف سيف الإمام مدة ربع قرن ، فإن وقفته تلك كانت لا عن كلل ، بل للظروف القاسية التي مرّ بها .

قال ابن أبي الحديد : دفع (الإمام) الراية إلى محمد (ولده) وقال : أقدم بها حتى تركزها في عـين الجمل ولا تقفن دونه ، فتقدم محمد فرشقته السهام ، فقال لأصحابه : رويداً حتى تنفد سهامهم ، فلم يبق لهم إلا رشقة أو رشقتين ، فأنفذ إليه علي عليه السلام يستحثه ويأمره بالمناجزة ، فلما أبطأ عليه جاء بنفسه [1] من خلفه ، فوضع يده اليسرى على منكبه الأيمن وقال له : أقدم لا أم لك ، فكان محمد رضي الله عنه ، اذا ذكر ذلك بعدُ يبكي ويقول : لكأني أجد ريح نفسه في قفاي ، والله لا أنسى أبداً ، ثم أدركت علياً عليه السلام رقة على ولده ، فتناول الراية منه بيده اليسرى وذو الفقار مشهور في يمنى يديه ، ثم حمـل فغاص في عسكر الجمل ثم رجع ، وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته ، فقال له أصحابه وبنوه والأشتر وعمار : نحن نكفيك يا أمير المؤمنين ، فلم يجب أحداً منهم ولا رد إليهم بصره وظل ينحط ويزأر زئير الأسد حتى فرق من حوله وتبادروه ، وأنـه لطامح ببصره نحو عسكر البصرة ، لا يبصر من حوله ولا يرد حواراً ، ثم دفـع الراية لابنه محمد ، ثم حمل حملة ثانية وحده فدخل وسطهم فضربهم بالسيف قُدُماً قدماً والرجال تفر من بين يديه ، وتنحاز عنه يمنة ويسرى حتى خضّب الأرض بدماء القتلى ثم رجع وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته فاعصوصب به أصحابه ، وناشدوه الله في نفسه وفي الإسلام ، وقالوا : انـك أن تصب يذهب الدين فامسك ونحن نكفيك .

فقال : والله ما أريد بما ترون إلا وجه الله والدار الآخرة .

ثم قال لمحمد ابنه : هكذا تصنع يا ابن الحنفية .

فقال الناس : من الذي يستطيع ما تستطيعه يا أمير المؤمنين .

ان للإمام ضربات هي فريدة من نوعها ، ولم يكن هذا الموقف إلا أحدها ، فقد برز إليـه في تلك الواقعة عبد الله بن خلف الخزاعي وهو رئيس البصرة ،

---

(١) ابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٥٧ .

واكثر أهلها مالاً وضياعاً ، فطلب البراز وسأل أن لا يخرج إليه إلا علي عليه السلام فخرج إليه فلم يمهله أن ضربه ففلق هامته ، وكذلك توالت الرجال ، وكلما برز منهم واحد ، قصم الله عمره بيد الإمام ، ثم التحم القتال بين الفريقين ، فما هي إلا ساعات حتى انجلى الموقف عن هزيمة ساحقة للناكثين ، وقتل طلحة قتله مروان بن الحكم .

لقد انجلت المعركة عن آلاف من القتلى صرعهم بغيهم وخروجهم على إمام الحق والهدى علي بن أبي طالب ، لقد كان لسيف علي المقام المشهور ولعلي الشجاعة المعهودة التي لم ينساها الدهر ولن ينساها ، وسقط الجمل الملعون .

وأمر الإمام منادياً فنادى : ألا لا تتبعوا [1] مدبراً ولا تجهزوا على جريح ، ولا تدخلوا الدور ، وقال لمحمد بن أبي بكر : أنظر هل وصل إليها شيء من جراحة ؟ فادخل رأسه في هودجها – السيدة عائشة – فقالت : من أنت ؟

فقال : أبغض أهلك إليك ، قالت : ابن الخثعمية ، قال : نعم ..

وقد بقي لأم المؤمنين من معركة الجمل أثار ظاهرة شاخصة أمام عينيها ، كيف قامت هذه الام بهذه المجازر ، وكيف ضحّت بهذه الأنفس البريئة من أجل مطامعها ومطامع عصبتها ، وكيف أنها لو بقيت محافظة على سترها وحجابها ، ولم تحارب أمام الحق والهدى ، كيف كانت في منزلة غير ما وصلت إليها الآن وتمنت لمن ذكّرها بتلك الواقعة ، أنها قد ماتت [2] قبل ذلك بعشرين سنة .

لقد كان الحق إلى جانب علي في جميع معاركه ، وما كانت معركة الجمل إلا إحدى تلك المعارك التي خاض علي غمارها والحق معه بأوضح معانيه ، فقد تمت له البيعة باتفاق المهاجرين والأنصار وجميع المسلمين من أهل الحل والعقد ، ثم نكث من بايعه ، فكان على الإمام أن يرده عن غيه ويردعه عن ضلاله ، وقد

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٢٥٤ .
(٢) ابن ابي الحديد ج ١ ص ٢٦٤ .

كان الإمام في مواقفه كلها على الحجة الواضحة البيضاء ليلها كنهارها ، فهو يقاتلهم ويعرف أن يضع سيفه ، فإن هذا السيف لم يقع على أحد إلا أدخله النار ، لأنه لا يقع إلا على من يستحقه ، والإمام نفسه يقول : « مـا شككت في الحق منذ أريته » .

ويقول : وإني لعلى بينة من ربي ومنهاج من نبي ، وإني لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطاً .

وهو الذي رد على رجل قام إليه بعد معركة الجمل وقال له :

يا أمير المؤمنين أي فتنة أعظم من هذه ؟ ان البدرية – أهل بدر – ليمشي بعضها إلى بعض بالسيف فأجابه الإمام :

ويحك ! أتكون فتنة أنا أميرها [1] وقائدها ، والذي بعث محمداً بالحق وكرم وجهه ما كذَبتُ ولا كذّبت ، ولا ضللت ولا ضُلّ بي ولا زللت ولا زلّ بي ، وإني لعلى بينة من ربي بينها الله لرسوله ، وبينها رسوله لي ، وسأدعى يوم القيامة ولا ذنب لي ، ولو كان لي ذنب لكفر عني ذنوبي ما أنا فيه من قتالهم.

حاشا يا أمير المؤمنين إلا أن تكون على الحق ، فقد سبق في لسان الغيب ، وأن أخبر رسول الله عنك ، وكشف عن أحقيتك حيث قـال : علي مع الحق والحق مع علي .

---

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ١ ص ٢٦٥ .

دور الإمام
في معركتي النهروان وصفين

موقف الامام من حروب البغاة :

إن علياً على بيّنة من أمره يعرف أين يضع سيفه ، فلا يضعه إلا في رقاب المستحقين له ، ومـا وضعه في عنق أحد إلا وأدخله النار ، إنه على الحق الجلي لا يشوبه شائبة ولا يكدر صفوه مكدر ، إن الحرب التي يخوضها الإمام يعتبرها حرباً مقدسة لا يجوز السكوت فيها أو القعود عنها ، ومن قعد عنها فهو شريك الشيطان يخذل بقعوده الحق وينصر الباطل ، إنهـا حرب يعتبر السكوت عنها كفراً بما أنزل على محمد .

فقد ذكر ابن أبي الحديد في شرحه : خرج رجـل من أهل الشام في صفين بين الصفين ونادى : يا أبا الحسن يا علي ابرز إليّ ، فخرج إليه علي عليه السلام حتى اختلفت أعنـاق دابتيهما بين الصفين ، فقال : إن لك يا علي لقدماً في الإسلام والهجرة ، فهل لك في أمر أعرضه عليك يكون فيه حقن هـذه الدماء فتؤخر هذه الحرب حتى ترى رأيك ؟ قال : وما هو ؟ قال : ترجع إلى عراقك فنخلي بينك وبين العراق ، ونرجع نحن إلى شامنا فتخلي بيننا وبين الشام .

فقال علي عليه السلام : قد عرفت ما عرضت ، إن هذه لنصيحة وشفقة ، ولقد

أهمّني هذا الأمر وأسهرني وضربت أنفه وعينه فلم أجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل الله على محمـــد ، إن الله تعالى ذكره لم يرضَ من أوليائه أن يُعصى الله في الأرض وهم سكوت مذعنون لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر ،فوجدت القتال أهون عليّ من معالجة في الأغلال في جهنم .

ويقول في موضع آخر :

وإني لعلى يقين من ربي وغير شبهة من ديني .

معركة صفين :

يمكن أن نقول : إن معركة الجمل هي التي أنجبت معركة صفين ، فهـــذا الفصيل من ذاك الجمل .. فلولا السيدة عائشة ومن سار معها في حرب البصرة لم يكن يدور في خلد معاوية أن يقابل إمام الحق والخليفة الذي تمّت له البيعة ، ولكن ام المؤمنين ومعها بعض الصحابة قد خرجوا على علي بعـــد أن بايعه طلحة والزبير ، فإن خروج معاوية وليس لعلي بيعة مباشرة في عنقه أهون بكثير من الحرب السابقة .

إن معاوية يريد أن يستأثر بالشام ويبقى ملكاً عليها، إنه قضى زمن الخلفاء الثلاثة والياً عليها ، فكيف يمكن أن يتخلى عنها بهذه السهولة ؟ إنه استبدّ بها كيف شاء ، وإن كان للخلفاء السابقين سيطرة وحزم على الولاة والامراء ، فقد كان معـــاوية في الشام عليه من الحصانة ما ليس لغيره ، لأسباب ليس هنـا موضع ذكرها .

إن معـاوية قرّة عينه الشام ، وعلي قد انتُخب خليفة للمسلمين ، وليس للشاهد أن يرجع ولا للغائب أن يختار بعـــد أن تمت البيعة بإجماع أهل الحل والعقد ، إذن فماذا يكون موقف معاوية إذا جرّده علي عن منصبه ونزعه عن ولاية الشام ؟ لا بد لهذه المشكلة من حل ، ولا بد لهذه العقدة من نقض .. إنه علي الذي يعرف الجور الاموي والاستئثار الظالم الذي يعيش فيه معاوية ، إنه

لن يدعه لحظة واحدة على ولاية الشام ، لأن الظلم قبيح ولا يمكن لعلي أن يقرّ الظلم مهما كان لونه ، ولذا لما بلغ عمرو بن العاص مقتل عثمان ، وكان (بايلة) من أرض الشام ، كتب إلى معـاوية : « ما كنت صانعاً فاصنع إذ قشرك ابن أبي طالب [1] من كل ما تملكه كما تقشر عن العصا لحاها » .

إن معاوية وزمرته وكل المسلمين يعلمون رأي علي في إبقاء معاوية على الشام ، إن علياً عنوان العدل والمساواة لا يمكن أن يقرّ طاغوتاً من طواغيت بني اميـة على رقاب المسلمين ، ولذا أعلن معاوية الطلب بدم عثمان واتهم علياً في ذلك وأن له يداً في الإجهاز عليه .. وبعـد حرب كلامية امتدت شهوراً بين علي ومعاوية كان معاوية خلالهـا يستعد للحرب ويحيك المؤامرات ويدبر الامور ليقلب لعلي ظهر المجن، وقد سخّر المال فاشترى به الضمائر وأفسد به كل من في نفسه مرض.

معاوية وعمرو بن العاص :

إن معاوية على علم برأي الإمام وأنه لن يدعه على الشام والياً ، فلذا قرر على أن ينهض لمحاربته ،وأخذ يفكر في الأوتاد التي يضع يده في يدها فيهذه الظروف العصيبة التي لم يعهدها ابن أبي سفيان من ذي قبل ، إنهـــا ظروف قاسية تريد إخراجه من الامرة وتجعـله سوقة كسائر الناس على أحسن تقدير ، فلذا التفت ليجد طاغوتاً مثله يعينه على حل مشكلته ، فلم يجد إلا ابن النابغة عمرو بنالعاص في فلسطين، فكتب إليه : أما بعد ، فقد كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك وقـد سقط علينا مروان بن الحكم في رافضة من أهل البصرة ، وقدم عليّ جرير بن عبدالله في بيعة علي ، وقد حبست نفسي عليك فاقدم على بركة الله .

عمرو بن العاص وخادمه وردان :

إن عمرو بن العاص يلاحظ المنفعة وينظر أين هي ليقتنصها ، وإنه لن ينال

---

(١) ابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٧٠ .

من خلافة علي مقـــدار نقير ، إنه أقل الناس وأحقرهم في نظر علي لأنه يعرفه ويعرف نفسيته، ولا يخفى ذلك على عمرو، والآن قد أتاه كتاب معاوية فانشرح صدره وارتاحت نفسه ، هـــذا هو المجد قد أتاه وقد احتاج إليه وإلى مشورته معاوية ، وهو يتمتع بالجنـد والأموال ويحكم بلاداً واسعة خصبة ، فما عليه لو أجاب طلبه ولبى دعوته ؟ إنها فرصة العمر فلن يدعها عمرو تمر دون أن يفوز بها وينال مآربه منها ، ولكن دون الدخول مع معاوية حرب مع علي قـــد يطيح فيها رأس معاوية ومعه رأس عمرو ، وهذا في ظني هو عامل التردد – إن كان – فسره عمرو وأحب إظهاره بصبغة الدين أو الدنيا .

إن ابن العاص لم يكن صاحب دين ولا يفكر بالآخرة حتى يحسب لها حساباً أو تأخذ من تفكيره قليلاً أو كثيراً ، ولكن عمرواً – في نظري – عندما جاءه كتاب معاوية يدعوه إليه برزت أمامه الدنيا بزخرفها وآمالها وعزتها ، وتصوّر أن معاوية تكون له الدولة ويكون له الملك ويفوز عندها عمرو بحصة الأسد ، ولكن في مقابل ذلك هنـاك ابن أبي طالب الذي لن يقرّ معاوية وسوف يعلن الحرب عليه ويطهّر البلاد منه ويريح العبـــاد من شرّه ، فتصوّر أن الدائرة ستدور عليه وسيشمله سيف علي ويلحقه بالأشرار في النـار ، فلذا اختلط عليه الأمر وماجت الأفكار في رأسه وأخذ يفكر في أنجع السبيلين وأنفعها وأضمنها له ، وهي القاعدة العامة التي كان يتبعها والميزان الذي يقيس به الأشياء .

ومن هنـــا نعرف أن ما ورد من أن عمرو بن العاص قد استشار ولديه وخادمه وردان،ليس على ظاهره وحقيقته كما يرويه المؤرخون، حيث استشارهم في لحوقه بمعاوية، فأجابه ابنه الأكبر عبدالله بقوله : أرى والله أن نبي الله قُبض وهو عنك راضٍ ، والخليفتان من بعـــده كذلك ، وقُتل عثمان وأنت غائب ، فأقم في منزلك فلست خليفة ولا تزيد على أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة أوشكتما أن تهلكا فتستويا فيها . وقال له محمـــد : أرى أنك شيخ قريش وصاحب أمرها ، فإن ينصرم هذا الأمر وأنت فيه غافل يصغر أمرك ، فالحق

بجماعة أهل الشام واطلب بدم عثمان فإنك به تستميل إلى بني امية. فقال عمرو: أما أنت يا عبدالله فأمرتني بما هو خير لي في ديني، وأما أنت يا محمد فقد أمرتني بما هو خير لي في دنياي .

وما ورد من أن وردان خادمه عندما رأى حيرة مولاه ابن العاص قال له : اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت مع علي الآخرة بلا دنيا ، ومع معاوية الدنيا بغير آخرة ، فأنت واقف بينهما .

إن هذا السرد لهذا الحوار والجواب لا ينسجم مع نفسية ابن العاص ، فلذا يحمل على ما قلناه .

وعلى كل حال ، ركب عمرو دابته وضرب وجهها تلقـــاء معاوية ، والتقى الشيطان بقرينه واتفقا على حرب الإمام .

مهر الدخول في الحرب ضد علي :

لقد قدم ابن النابغة على معاوية واتفقت كلمتهم على حرب الإمام ، ولكن ليس لعمرو أن يدع الفرصة تفوته ، إن حرب علي لا بد له من مهر ، فلذا قال لمعاوية : اعطني مصر .

فتلكأ معاوية وقال : ألم تعلم أن مصر كالشام ؟

قال : بلى ، ولكنها إنما تكون لي إذا كانت لك، وإنما تكون لك إذا غلبت علياً على العراق .

وهنا يدخل سماسرة الباطل وشياطين الإنس ليوفقوا بين الطاغوتين، فيدخل عتبة بن أبي سفيان على معـاوية ويقول له : أما ترضى أن تشتري عمرواً بمصر إن هي صفت لك ؟ ليتك لا تغلب على الشام .

وهكذا تمت الصفقة وباع عمرو ضميره وشرفه وبقي عنواناً لكل المتاجرين بالكرامات في سبيل المنفعة واللذة الخاصة، هكذا تهاوت كبرياء الرجال وذلّت

أمام المنافع والملذات دون أن تعتنق مبادءها ، عفواً... ان عمرواً تلك مبادؤه وقد حافظ عليها .

وتأهب معاوية لقتال أمير المؤمنين بغياً وعدواناً ، ولفّ حوله كل الزمر الفاسدة التي وترهـا الإسلام في مصالحها الدنيئة وأهلها المشركين ، وسار حتى وصل صفين من أرض العراق في ثلاثة وثمانين ألفاً ، وقد سبق إلى سهولة الارض وسعة المناخ وقرب الفرات ، وكتب إلى الإمام يخـبره بسيره فتوجه علي إلى معاوية حتى نزل صفين .

معاوية وخططه الدنيئة :

ولما وصل معاوية إلى صفين قبل الإمام بعث أبا الأعور السلمي بمن معه — وكان على مقدمة جيشه ليحولوا بين الفرات وبين أهل العراق،وقد أرسل الإمام إلى معاوية : ان الذي جئنا له غير الماء ، ولو سبقناك إليه لم نحل بينك وبينه ، فإن شئت خليت عن الماء ، وإن شئت تناجزنا عليه وتركنا ما جئنا له ، ثم قام معاوية فاستشار أصحابه ، فأبدوا معارضتهم قائلين : نرى أن نقتلهم عطشاً كما قتلوا عثمان ظلماً ، ولكن ابن العاص عارض هذا الرأي، وأشار على معاوية قائلا: لا تظن يا معاوية أن علياً يظمأ واعنة الخيل بيده وهو ينظر إلى الفرات حتى يشرب أو يموت دونه خل عن القوم يشربوا .

وأجاب معاوية : لاسقاني الله من حوض رسول الله أن شربوا منه حتى يغلبوني عليه ... إنها فرصة العمر لابن آكلة الاكباد أن يجتثّ جند العراق، لقد ظن أنه باستيلائه على شريعة الماء قد تحقق له النصر ، أنه لا يدري من يقاتل ؟ أنه يقاتل سيد الشجعان وأسد الفرسان ، ان أمامه علي بطل الإسلام .

بقي معاوية مصرّاً على رأيه ، ولم يستجب لطلب الإمام عندها وجه الإمام إليه الأشتر مالك بن الحارث ، وجه إليه مالك ، وما أدراك ما مالك ، أنه كما يقول ابن أبي الحديد : لله ام قامت عن الأشتر ، لو أن إنساناً يقسم أن الله تعالى

ما خلق في العرب ولا في العجم أشجع منه إلا استاذه علي بن أبي طالب لمـــا خشيت عليه الإثم .

لقد توجه الأشتر وحمل على أبي الأعور حمــلة كشفته عن الماء ، وأرسل إلى الإمام : قـــد غلب الله لك على الماء ، وعندها شمت عمرو بن العاص وقال : يا معاوية ما ظنك إن منعك علي الماء اليوم كما منعته أمس .

ولكنه علي الذي لم يخلق الله مثله ، ان أخلاق النبوة التي تربى عليها تترفع أن تقابل معاوية بمنعه المـــاء ، فقد جاء لأجل هدف أهم وأعظم ، فلذا فسح له عن الشريعة موضعاً يستقي الماء ثم دار حوار ، وجرت أحداث وعجز الكلام ، ولم يرتدع معاوية عن غيه ، فدارت المعركة – وقد كان قبل ذلك يبرز الرجل للرجل – وزحف الناس بعضهم إلى بعض ، وقـــد تميزت ثلاثة من الأيام مع ليلة الهرير حيث كان القتال على أشد ما يكون فقـــــد ارتموا بالنبل والحجارة حتى ُفنيت ، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسرت واندقت ، ثم مشى القوم بعضهم إلى بعض بالسيوف وعمد الحديد فلم يسمع السامعون إلا وقع الحديد بعضه على بعض لهو أشد هولاً في صدور الرجال من الصواعق ومن جبال تهامة يدك بعضها بعضاً وانكسفت الشمس بالنقع وثار القتام... وضلت الالوية والرايات، وأخذ الاشتر يسير فيما بين الميمنة والميسرة ، فيأمر كل قبيلة وكتيبة من القرّاء بالاقدام على التي تليها ، فاجتلدوا بالسيوف وعمد الحديد ، فلم يزل الاشتر يفعل ذلك حتى أصبح والمعركة خلف ظهره ، وافترقوا عن سبعين الف قتيل في ذلـك اليوم ، وتلك الليلة وهي ليــــلة الهرير المشهورة ، ثم استمر القتال من نصف الليل الثاني إلى ارتفاع الضحى، والاشتر يقول لأصحابه وهو يزحق بهم نحو أهل الشام: ازحفوا قيد رمحي هذا ويلقي رمحه ، فإذا فعلوا ذلك قال : ازحفوا قاب القوس ، فإذا فعلوا ذلك سألهم مثل ذلك .

أنه مالك بن الحارث صاحب أمير المؤمنين لم يعد يطيق الحياة حتى ضرب وجه دابته وقال لصاحب رايته : أقدم فتقدم بهـــا ثم شدّ على القوم وشد معه

أصحابه فضرب أهل الشام حتى انتهى بهم إلى معسكرهم فقاتلوا عند المعسكر قتالاً شديداً وقتل صاحب رايتهم ، وأخذ الإمام لما رأى الظفر قد جاء من قبله يمده بالرجال .

وإذا أردت أن تعرف مواقف علي وضرباته في هـذه المعركة ، إذا نسيت وقع علي في أعداء الله فـيما تقدم من المعارك والغزوات ، فهلم إلى بريق سيفه ولمعان سنانه ، وعدّ رؤوس القتلى انك ستعجب ستقف مدهوشاً مأخوذاً أن يكون في يوم واحد قد قتل خمسمائة من فرسان العرب وشجعانهم .

نقل ابن أبي الحديد عن جابر بن عمير الأنصاري : قال والذي بعث محمداً بالحق ما سمعنا رئيس قوم منذ خلق الله السموات والأرض ، أصاب بيده في يوم واحد ما أصاب، انه قتل فيما ذكر العادون – زيادة على خمسمائة من اعلام العرب يخرج بسيفه منحنياً فيقول : معذرة إلى الله وإليكم من هذا ، لقد هممت أن أفلقه ولكن يحجزني عنه إني سمعت رسول الله يقول :

لا سيف إلا ذو الفقـار ولا فتى إلا عـــلي

وأنا اقاتل به دونه فكنا نأخذه فنقوّمه ثم يتناوله من أيدينا ، فيقتحم به في عرض الصف فلا والله ما ليث بأشد نكاية منه في عدوه .

وإذا أردت أن تعرف أكثر من ذلك ، وعلى يـد من يتم النصر ، قف قليلاً عند كتب التاريخ ستبصر علياً وسيفه في يده مشهوراً مقبلاً عليه النصر من كل جانب قف قليلاً ، فسترى معاوية يضع رجله في ركابـه ويستعد للهرب ، يقول صاحب الإمامة والسياسة . أقبـــل الأشتر جريحاً فقال : يا امير المؤمنين خيل كخيل ورجال كرجال ، ولنا الفضل إلى ساعتنا هذه فعد مكانك الذي كنت فيه ، فإن الناس إنما يطلبونك حيث تركوك ، وعندها دعا علي ببغلته التي كانت لرسول الله ﷺ ، ثم تعصب بعمامته السوداء ثم نادى : من يبيع نفسه اليوم يربح غداً يوم له ما بعده ، وان عدوكم قد قدح كما قدحتم فانتدب له ما بين عشرة

آلاف إلى اثني عشر ألفاً واضعي سيوفهم على عواتقهم وتقدموا ، فحمل علي والناس حملة واحدة فلم يبقَ لأهل الشام صف إلا اهمد حتى أفضى الأمر إلى معاوية ، وعلي يضرب بسيفه ولا يستقبل أحداً إلا ولّى عنه ، فدعا معاوية بفرسه لينجو عليه ، فلما وضع رجله في الركاب نظر إلى عمرو بن العاص فقال له: يا ابن العاص ، اليوم صبر وغداً فخر ، قال : صدقت ، فترك الركوب وصبر وصبر القوم معه إلى الليل فبات الناس يتحارسون وكرهو القتال ، وهو اليوم الذي فيه البلاء العظيم يوم قتل عمار ...

ولما أصبحوا إذا علي وأصحابه إلى جانبهم قد خالطوهم .. فعندها أيقن معاوية بالهلكة وعلم أن علياً يريد استئصاله واجتثاث فساده ، وهذه هي أعلام الفتح قد ظهرت ، فهذا هو الأشتر على قاب قوسين من النصر ، لم يبقَ إلا عَدْو الفرس ويتم الأمر وتنتهي أذيال الباطل إلى الأبد ...

وهنا يطلب معاوية من عمرو ، شريكه في الجريمة ، يطلب منه أن ينفتق خبثه عن أمر يحجز علياً عن إكمال المعركة ، فيقول له : يا عمرو ، إنما هي الليلة حتى يغدو علينا علي بالفيصل ، فما ترى ؟

فيجيبه عمرو : إن رجالك لا يقومون لرجاله ولست مثله ، هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره ، أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء ، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم ، وأهل الشام لا يخافون علياً إن ظفر بهم .

إن هذه المقدمات التي يطرحها عمرو كلها عند معاوية ليس فيها من جديد ، إنه يريد الحل ، يريد أن ينطق به ابن العاص ، إن معاوية يكاد أن يخرج عن مداراة عمرو ، إنه موقف يتطلب السرعة والعجلة .. فيقول له :

يا عمرو ، ألم تزعم أنك ما وقعت في أمر قط إلا خرجت منه ؟

قال : بلى .

قال : أفلا تخرج مما ترى ؟

قال : والله لأدعونّهم إن شئت إلى أمر افرّق به جمعهم ويزداد جمعك إليك اجتماعاً ، إن اعطوكه [1] اختلفوا وإن منعوكه اختلفوا .

قال معاوية : وما ذاك ؟

قال عمرو : تأمر بالمصاحف فترفع ثم تدعوهم إلى ما فيها ، فوالله لئن قبله لتفترقن عنه جماعته ، ولئن ردّه ليكفرنه أصحابه .

إنها ضربة أصابت المقتل ، إنهــا بذرة سيجني علي والحق منها أمرّ الثمار وأنكده ، إنها كلمة دعا لها الإمام قبل المعركة فرفضها القوم ، وهــا هي اليوم تعود مبتلة بالدماء ممزوجة بالغدر مموّهة باللؤم .

وأصبح الناس من ليلة الهرير ، فإذا أشباه الرايات أمام أهل الشام في وسط الفيلق حيال موقف علي ومعاوية ، فلما أسفر الصبح وإذا هي المصاحف قــــد ربطت في أطراف الرماح .. وقد شدوا ثلاثة رماح جميعاً وربطوا عليها مصحف المسجد الأعظم يمسكه عشرة رهط . وأمر معاوية جنــــد الشام أن يصرخوا ويستغيثوا : يا أبا الحسن ، مَن لذرارينا من الروم إن قتلتنا ؟ الله الله ، البقيا ، كتاب الله بيننا وبينكم .

وسمع الإمام النداء ورأى المصاحف في رؤوس الرماح وأعناق الخيل وعرف أنها المكيدة ، عرف أنها بذرة الشر التي تفسد عليه جنده ، وهذا ما حدث .

لقد اختلف جنــد علي ، فمنهم من يريد [2] مواصلة القتال إلى أن يتم النصر ويقطع رأس الثعبان ، ومنهم من دعا إلى الموادعة ، فقام الإمام خطيباً قائلاً : أيها الناس، إني أحق من أجاب إلى كتاب الله ، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وابن أبي سرح وابن مسلمة ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إني

---

(١) الإمامة والسياسة ، ج ١ ص ١٠١ .

(٢) ابن أبي الحديد .

أعرف بهم منكم ، صحبتهم صغاراً ورجالاً فكانوا شر صغار وشر رجال ، ويحكم إنها كلمة حق يُراد بها باطل ، إنهم ما رفعوها ، إنهم يعرفونها ويعملون بهـا ، ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة ! أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطعه ولم يبقَ إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا .

علي وأصحاب الجباه السود :

لقد قرر علي بخطبته إكمال الحرب ، ولكن القوم اختلفوا فيما بينهم ، وبرز من أصحابه زهاء عشرين ألفاً مقنعين بالحديد شاكي السلاح سيوفهم على عواتقهم وقد اسودّت جباهم من السجود ، يتقدمهم مسعر بن فدكي وزيد بن حصين وعصابة من القرّاء الذين صاروا خوارج من بعد، فنادوه باسمه لا بإمرة المؤمنين: يا علي ، أجب القوم إلى كتاب الله إذا دُعيت إليه وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنّها إن لم تجبهم .

فأجابهم الإمام : ويحكم ! أنا أول من دعا إلى كتاب الله وأول من أجـاب إليه ، وليس يحلُّ لي ولا يسعني في ديني أن أُدعى إلى كتاب الله فلا أقبله ، إني إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم القرآن ، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونقضوا عهده ونبذوا كتابه ، ولكني قد أعلمتكم أنهم قـد كادوكم وأنهم ليس العمل بالقرآن يريدون .

أصحاب الامام وموقفهم من القتال :

ما مرّ كان أحد المواقف المشينة الذي تكلمت فيه هذه الفرقة فأفصحت .. وهنـاك مواقف اخرى مخزية سجّلها التاريخ في سجل العار والخيانة ، فهذا هو الأشعث يقول : أجب القوم إلى كتاب الله عز وجل فإنك أحق به منهم ، وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال .

وقال آخر : إن هذه الحرب قد أكلتنا وأذهبت الرجال، والرأي الموادعة.

إنها الفرقة التي ما مُني بها جيش فانتصر ، ولا حلّت بساحة قوم إلا وأورثتهم الذلّ والهوان .. إنها الكثرة الغالبة من جند علي ، أحبّت الموادعة وإنهاء القتال، ويقابلها رأي القائد العظيم أمير المؤمنين وبعض أصحابه ممن كانوا على رأيه وطوع إرادته ، كالأشتر وغيره .

وإزاء هذا الموقف المتصلب ممن أحب الموادعة ، أيقن علي أنه لن يتمكن من مواصلة الحرب ، وكيف يمكنه ذلك وقد أحدق به أصحاب الجباه السود يطلبون منه أن يستدعي الأشتر للكف عن القتال — وقد كان الأشتر قد أشرف على معسكر معاوية ليدخله — ؟..

وأنا أنقل هذا الموقف عن هؤلاء القوم الذين لم يمهلوا الإمام إلا مقدار استدعائه للأشتر .. يقول ابن أبي الحديد : قالوا — أصحاب الجباه السود — : فابعث إلى الأشتر ليأتك وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان .

وكان الأشتر قد أشرف على معسكر معاوية ليدخله ، فأرسل إليه الإمام عليه السلام يزيد بن هانىء وقال : آته ، فأتاه فأبلغه .

فقال الأشتر : ائتِه فقل له : ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني عن موقفي ، إني قد رجوت الفتح فلا تعجلني .

فرجع يزيد بن هانىء إلى علي عليه السلام فأخبره ، فما استكمل خبره وانتهى حتى ارتفع الرهج وعَلت الأصوات من قبل الأشتر وظهرت دلائل الفتح والنصر لأهل العراق ، ودلائل الخذلان والإدبار على أهل الشام ، فقال القوم — أصحاب الجباه السود — لعلي : والله ما نراك أمرته إلا بالقتال ! قال: أرأيتموني ساررت رسولي إليه ! أليس إنما كلّمته على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون ! قالوا : فابعث إليه فليأتِك وإلا فوالله اعتزلناك .

فقال عليه السلام : ويحك يا يزيد ! قل له : أقبِلْ إليّ فإن الفتنة قد وقعت .

فأتاه يزيد ، فقال له الأشتر : ويحك ! ألا ترى إلى الفتح .. ألا ترى إلى ما

يلقون .. ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنـا ؟.. أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه ؟!.

فقال يزيد : أتحب أنك ظفرت ها هنا ، وإن أمير المؤمنين بمكانه الذي هو فيه يُفرج عنه ويسلم إلى عدوه ؟!

قال : سبحان الله ! لا والله لا احب ذلك .

قال : فإنهم قـد قالوا له وحلفوا عليه : لترسلنّ إلى الأشتر فليأتينك أو لنقتلنك بأسيافنا كما قتلنا عثمان أو لنسلمنك إلى عدوك !.

ما أشدها محنـة وما أقساها على قلب أمير المؤمنين عليه السلام وقلوب المخلصين للإسلام !.. إنها شجّة أدمَتْ قلب الدين وفتحت للشر أوسع طرقه .

وإزاء هذا الموقف الذي اضطرّ إليه الإمام ، قام بكل صبر وجَلد ليعلمهم الحقيقة ويُشهد التاريخ أنه لا يرتضي هذه الدعوة ولا يقبل هـذه الخدعة ، إن علياً أمير المؤمنين عليه السلام ومَن كان بيده ازمة الامور قد اضطر قسراً عنه لقبول التحكيم ، فلذا قال لجنده معلناً الحقيقة :

أيها الناس ، إن أمري لم يزل معكم على ما احب إلى أن أخـذت منكم الحرب ، وقـد والله أخذت منكم وتركت وأخذت من عدوكم فلم تترك وإنها فيهم أنكى وأنهك، ألا وإني كنت أمس أمير المؤمنين فأصبحت اليوم مأموراً ، وكنت ناهياً فأصبحت منهياً ، وقد أحببتم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون .

إنه جرح في قلب علي وحسرة في نفسه وألم في فؤاده .. إنني – وعلى البعد الزمني بيني وبين هذه الكلمات – أشعر عند قراءتها أنها تجرح وتذيب النفس، إنني أرمق ذلك العظيم ابن أبي طالب فأرى كلماته مملوءة حسرة .. من أمير إلى مأمور .. من كونه ناهياً حتى أصبح منهياً .. إنه على الحق (الحق مع علي

وعلي مع الحق) ، ولكن أنّى له بأصحاب يطيعون إذا أمر ويقبلون قوله إذا أراد ؟!.

أمام هذا الأمر الواقع ، رضخ علي وَقبِلَ بالتحكيم .

اختيار الحَكَمَين :

لقد كُتِبَ على أمير المؤمنين عليه السلام أن لا يُطاع ، وهو إمام الحق .. وما تلك الزفرات التي نفثها وبثّها ، والشكاوى التي أطلقها ، إلا نذر قليل مما حواه قلبه وضمته روحه .. ما أصعب أن يرى الإنسان النور والهدى ولا يراه أصحابه ، ومع ذلك يجرُّونه قسراً عنه حيث أرادوا !.. إن علياً على الحق الصراح ، لم يلتبس عليه الأمر منذ ابتدائه إلى ختامه .. إنه على بيّنة واضحة لا يشوبها شك ، وقد ُفرض عليه التحكيم وهو يرفضه ، والآن جاء دور اختيار الحكَمَين .

أما أهل الشام فقد اختاروا عمرو بن العاص ، وأما أهل العراق فقد قال الأشعث والقراء الذين صاروا خوارج فيما بعد : قد رضينا نحن واخترنا أبا موسى الأشعري .

فقال لهم علي عليه السلام : فإني لا أرضى بأبي موسى ولا أرى أن أوليه .

فقال الأشعث وزيد بن حصين ومسعر بن فدكي في عصابة من القراء : إنا لا نرضى إلا به ، فإنه قد كان حذرنا مما وقعنا فيه .

فقال عليه السلام : فإنه ليس لي برضاً ، وقد فارقني وخذّل الناس عني وهرب مني حتى أمنته بعد أشهر ، ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك .

قالوا : والله ما نبالي ، أكنت أنت أو ابن عباس ، ولا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية ، سواء ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر .

قال عليه السلام : فإني أجعل الأشتر .

فقال الأشعث : وهل سعّر الأرض علينا إلا الأشتر ، وهـل نحن إلا في حكم الأشتر .

قال علي : وما حكمه ؟

قال : حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيف ، حتى تكون ما أردتَ ومـا أراد . صلوات الله وسلامه عليك يا أمير المؤمنين ، ألم ينفذ صبرك ؟ وأي إنسان يتحمل ما تحملت ؟ ربع قرن من الزمن مكفوف اليدين عن حقك وتراثك ، ثم لمـا أفضت إليك الخلافة ، وأردت أن تظلل الناس بظل الإسلام وتعيد لهم أيام النبوة الطاهرة وسيرتها المقدّسة ، قامت أُم المؤمنين هاتكة ستراً ضربه الله عليها معلنة عليـــك الحرب ، ثم من بعدها أبن آ كلة الاكباد ، فيا لله من صبر يوازي الجبال ، وهكذا تكون سيرة العظماء .

فنحن إذا نظرنا إلى هذه المحاورة التي كان أحد طرفيها الإمام ، نرى كيف جار القوم عليه في منطقهم وحكمهم ، وفرض الرجل الذي لم يكن ثقة للإمام ، بـل كان له موقف أسود وماض مشوه قبيح بينه الإمام للقوم ، ولكنهم أبوا قبوله وأصروا على ركوب رؤوسهم تعنتاً وعناداً ، حتى انهم رفضوا وجود أحد مع الأشعري ، حتى قـال الإمام للأحنف بن قيس الذي عرض ذلك عليه : ان القوم أتوني بعبدالله بن قيس – أبو موسى – مبرنساً ، فقالوا : ابعث هذا رضينا بـه والله بالغ أمره ، وكتبت الصحيفة التي تنبّىء عن رضا الطرفين بالتحكيم ، وأخذ على الحكمين (عهد الله وميثاقه وأعظم مـــا أخذ الله على أحد من خلقه ليتخذان الكتاب إماماً فيما بعثا إليه ، لا يعدوانه إلى غيره ما وجداه فيـــه مسطوراً ، وما لم يجدان مسمى في الكتاب رداه إلى سنة رسول الله الجامعة .. وعلى الحكمين عهد الله وميثاقه ألا يألوا اجتهاداً ، ولا يتعمدا جوراً ولا يدخلان في شبهة ولا يعدوا حكم الكتاب ، فـإن لم يقبلا برئت الامة من حكمهما ولا عهد لهما ولا ذمة ، هذه بعض بنود الصحيفة ، ثم دعي من يشهد عليها .

الأشتر والصحيفة :

عندما أقف أمام هـذا الإنسان – الأشتر – أقف منحياً إجلالاً واكباراً ، وترتفع نفسي ، ويأخذني الاعتزاز بشيعة علي أصحاب المبـدأ والعقيدة ، الذين يشهد لهم التاريخ بتلك الوقفات الشجاعة الكبيرة، انها وقفات المبادىء المقدسة أمام الأصنام الهامدة ، وقفات الناس الرساليين العقائديين أمـــام خور المائعين والمنحرفين، وإنني أحس من نفسي اكباراً لهذا العظيم رغم طول الزمن الفاصل بيني وبينه ، وهـــل تريد أن تعرف موقف الأشتر من الصحيفة ، انه موقف أصحاب الحق اتجاه حقوقهم ، لا تنازل عنها مهما ُقهروا وُغلبوا .

لقد ُعرضت الصحيفة بعد كتابتها على الأشتر كي يشهد مع الشهود فقال : لا صحبتني بيميني ولا نفعني بعدها شمالي إن ُكتِب لي في هذه الصحيفة اسم على صلح أو موادعة أو لست على بينة من أمري ، ويقين من ضلالة عدوي ، ولكني قـد رضيت بما يرضى به أمير المؤمنين ، ودخلت فيما دخل فيه ، وخرجت ممـا خرج منه ، فإنه لا يدخل إلا في الهدى والصواب .

واجتمع الأشعري وابن العاص في دومة الجندل ، وبعد المحاورة والمداولة بينهما.

قال عمرو : أخبرني ما رأيك يا أبا موسى ؟

قال : أرى أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعل الأمر شورى بـــين المسلمين يختارون من شاؤا .

فقال عمرو : الرأي والله مـا رأيت فاقبلا إلى الناس وهم مجتمعون ، فتكلم أبو موسى أنه قد اتفق وعمراً على أمر وصدّقه على ذلك ابن النابغة ، وقال له : تكلم يا أبا موسى ، فقام ليتكلم فدعاه ابن عباس فقال له : ويحك والله إني لأظنه خدعك ، إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدّمه قبلك ليتكلم به، ثم تكلم أنت بعده فإنه رجل غدّار ، فرفض الأشعري النصيحة – وتقدم فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الامة، فلم نر شيئاً هو أصلح لأمرها

ولا ألم لشعثها من ألا تتباين أمورها ، وقـد أجمع رأي ورأي صاحبي على خلع علي ومعاوية ،وأن يُستقبل هذا الأمر فيكون شورى بين المسلمين يوّلون أمورهم من أحبوا ، وإني قد خلعتُ علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أموركم وولّوا من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً ثم تنحى .

فقام عمرو بن العاص في مقامه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ان هذا قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية في الخلافة ، فإنه ولي عثمان والطالب بدمه ، واحق الناس بمقامه .

فقال له أبو موسى: مالك لا وفقك الله قد غدرت وفجرت، إنما مثلك كمثل الـكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، فقال له عمرو : إنمـا مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً .

وهكذا دارت معركة التحكيم وأسفرت عن وجهها القبيح المشوّه بين حمرنة الأشعري وكلبنة ابن العاص ، ما أقساه من حكم وما أشد جوره .

ووصلت الأنباء إلى الإمام – وكان في الكوفة منتظراً ما يحكم به الحكمان – ففمه ذلك وساءه ووجم له وخطب الناس، فكان من جملة خطبته « ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما قـــد نبذا حكم الكتاب وأحييا ما أمات ، واتبع كل واحد منهما هواه ، وحكم بغير حجة ولا بينة ولا سنة ماضية، واختلفا فيما حكما فكلاهما لم يُرشد الله فاستعدوا للجهاد وتأهبوا للمسير .

الخوارج بذرة الشيطان وعدم الوعي :

« لا حُكم إلا لله » ظاهرها إيمان انطوت على الضلال والكفر ، بهـذا الشعار نادت الخوارج – أصحاب الجبـــاه السود الذين أجبروا علياً بالأمس على قبول التحكيم ، ان سيوفهم التي شرعوها في وجه الإمام طلباً للتحكيم ، ها هي اليوم تشهر من جديد مريدة نقض التحكيم – وكان ذلك قبل أن يحكم الحكمان – انها نفس الجماعة بعينها انقلبت موازينها وانعكست أفكارها ، فها هي اليوم تنادي

بهـذا الشعار (لا حكم إلا لله) الحكم لله يا علي لا لك ، لا نرضى بأن يحكم الرجال في دين الله .

ما عدا مما بدا حتى ظهر هـذا الشعار : انهم أنفسهم يبينون الأسباب : ان الله قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا تحت حكمنا عليهم وقـد كنا زللنا وأخطأنا حين رضينا بالحكمين ، وقد بان لنا زللنا وخطؤنا ، فرجعنا إلى الله وتبنا ، فارجع أنت يا علي كما رجعنا ، وتب إلى الله كما تبنا ، وإلا برئنا منك .

فقال علي عليه السلام : ويحكم أبعـد الرضا والميثاق والعهد ، نرجع أليس الله يقول : (أوفوا بالعقود) ... فأبى عـلي أن يرجع وابت الخوارج إلا تضليل التحكيم والطعن فيه ، فبرئت من علي وبرىء علي عليه السلام منهم .

ثم أن هؤلاء الخوارج قد اتفقوا على الخروج إلى النهروان، واجتمعت كلمتهم على ذلك فكتبوا إلى أصحابهم بالبصرة، ان أهل دعوتنا حكّموا الرجال في أمر الله ورضوا بحكم القاسطين على عباده ، فخالفناهم ونابذناهم نريد بذلك الوسيلة إلى الله ، وقد قعدنا بجسر النهروان وأحببنا أعلامكم لتأخذوا بنصيبكم من الأجر ..

وأجابهم جماعتهم على المسير إليهم عاجلاً .

وتجهّز الإمام وعسكر لحرب معاوية من جديد – بعـد اعلان التحكيم – فأُخبر بالخوارج، فكتب إليهم ينصحهم ويعظهم، ولكنهم أصرّوا على موقفهم وجمدوا عليه، وخاف من كان مع الإمام أن يميل الخوارج على نسائهم وذراريهم ، فأشاروا على الإمام أن يخرج إليهم فينتهي من أمرهم، ويأمنوا بذلك على أموالهم وأعراضهم إذا توجهوا لقتال معاوية ، ولكن أجابهم الإمام : ان غير هـذه الخارجة أهم ، سيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا في الأرض جبّارين ملوكاً ويتخذهم المؤمنون أرباباً ، ويتخذون عباد الله خولاً ، ودعوا ذكر الخوارج .

تجاوزات الخوارج :

إن مسيرة الخوارج إلى النهروان واعتزالهم عن صف الإمام ، حز في نفس علي ، ولكنه لا يريد أن يحاربهم ما داموا لم يفسدوا في الأرض ويقطعوا على الناس سبيلهم . ولكن هؤلاء الشرذمة المضلّلة التي اشتبه عليها الأمر ، ووقفت ترفع شعاراً (لا حكم إلا الله) قد عاثت في الأرض فساداً ونابذت المسلمين جميعاً .

فقد لقيهم عبد الله بن خباب بن الارث على حمار ومعه إمرأته وهي حامل .

فقالوا له : من أنت ؟

قال : أنا رجل مؤمن .

ثم قالوا له : حدثنا عن أبيك ؟

فقال : إني سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ستكون بعدي فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه يمسي مؤمناً ويصبح كافراً .

قالوا : فماذا تقول في أبي بكر وعمر ؟ فاثني خيراً .

قالوا : فما تقول في عثمان في السنين الأخيرة ؟ فاثني خيراً .

قالوا : فما تقول في علي بعد التحكيم والحكومة ؟

قال : إن علياً أعلم بالله وأشد توقياً على دينه وانفذ بصيرة .

فقالوا : إنك لست تتبع الهدى ، إنما تتبع الرجال على أسمائهم ، والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً ، فأخذوه و كتفوه ، ثم أقبلوا به وبإمرأته وهي حبلى ، حتى نزلوا تحت نخلة فسقطت رطبة منها، فأخذها بعضهم فقذفها في فيه .

فقال له أحدهم : بغير حل أو بغير ثمن أكلتها ، فألقاها من فيه ، ثم اخترط بعضهم سيفه فضرب به خنزيراً لأهل الذمة فقتله .

فقال له بعض أصحابه : ان هذا من الفساد في الأرض فلقى الرجل صاحب الخنزير فارضاه من خنزيره .

فلما رأى منهم عبدالله بن خباب ذلك قال : لئن كنتم صادقين فيما أرى ما علي منكم بأس ، ووالله ما أحدثت حدثاً في الإسلام ، وإني لمؤمن، وقد أمنتموني وقلتم لا روع عليك فجاؤا بـه وبإمرأته فاضجعوه على شفير النهر على ذلك الخنزير فذبحوه فسال دمه في الماء ، ثم أقبلوا إلى إمرأته فقالت: إنما أنا إمرأة ، أما تتقون الله ؟ فبقروا بطنها وقتلوا ثلاثة نسوة ، فبلغ علياً خبرهم فبعث إليهم الحارث بن مرة لينظر فيما بلغه من قتل عبدالله بن خباب والنسوة، ويكتب إليه بالأمر ، فلما انتهى إليهم ليسألهم خرجوا إليه فقتلوه .

فقال الناس : يا أمير المؤمنين نـدع هؤلاء القوم وراءنا يخلفوننا في عيالنا وأموالنا ؟! سر بنا إليهم ، فإذا فرغنا منهم نهضنا إلى عدونا من أهل الشام .

إن هذه الشرذمة الضالة قد أفسدت في الأرض وقتلت بغير الحق، وهي بعدُ تهدد المسلمين المقيمين بينها ، فكيف يمكن لعلي أن يعطيها ظهره وهي تطمنه ؟! كيف يمكن أن يغادر جنود علي الكوفة وهم يخافون من شر هـذه الخارجة على أموالهم وأولادهم ، عندها سار الامام إليهم فاستنطقهم الامـام بقتل عبدالله بن خباب ، فأقروا ودارت بينهم وبينه محاورات طويلة ، رجع منهم خلق كثير عن ضلالهم ، ولكن بقي منهم قسم لا بأس بـه عدة آلاف مصرّين على رأيهم ، فلم يرجعوا إلى الهدى الذي أراده الاسلام، فنابذوا الامام وأعلنوا عليه الحرب.

وهنا قرر الامام القضاء عليهم ، فعبأ أصحابه ووضع للخوارج راية أمان مع أبي أيوب الأنصاري ، فناداهم أبو أيوب : من جاء منكم إلى هذه الراية، فهو آمن ومن دخل المصر فهو آمن ، ومن انصرف إلى العراق وخرج من هذه الجماعة فهو آمن ، فإنه لا حاجة لنا في سفك دمائكم .

ثم قال لأصحابه: كفوا عنهم حتى يبدؤكم، ولكن الخوارج أقبلوا نحو الناس حتى إذا دنوا منهم نادوا : لا حُكم إلا الله، ثم نادوا : الرواح الرواح إلى الجنة ثم شدوا على أصحاب الامام شدة رجل واحد، فاستقبلتهم خيل الامام بالرماح والنبل ، ثم عطفت عليهم من الميمنة والميسرة ، ونهض علي في القلب بالسيوف

والرماح ، فلا والله مـا لبثوا فواقاً (مقدار حلب الناقة) حتى صرعهم الله ، كإنما قيل لهم موتوا فماتوا ، وأخذ علي مـا كان في عسكرهم من كل شيء ، فأما السلاح والدواب فقسمه بين جنده ، وأما المتاع والعبيد والاماء ، فإنه حين قدم الكوفة رده على أهله .

هكذا كانت معركة النهروان ، كإنما قيل لهم موتوا فماتوا ، لم يسلم منهم إلا دون العشرة ، ولم يقتل من أصحاب الامام إلا دون العشرة، إنها معجزة حققها علي في النهروان كما حققها في جميع غزواته .

مواقف بطولية للامام :

إن شجاعة الامام أصبحت مضرب الأمثال ، فـله في جميع حروبه مواقف مشرفة ترفع الرأس ويعلو بهـــا الجبين إذ أعطي من القوة البدنية ، ما لم يعطى أحد ، فقد سمعنا وسمع العالم بالأبطال والفرسان ، فكان لكل بطل هفوة أو كبوة أو عثرة في بعض المواقف أو بعض الأحيان إلا الامام ، فإنه السيف الذي لا ينبو والجواد الذي لا يكبو ، لم نجـده في معركة تردد أو أحجم عن بطل ، ولا في غزوة فر أو نكص ، بل بالاستقراء التام في جميع حروبه سواء منها مـا كان في حياة النبي ﷺ أو بعـده ، أثبتت أن علياً هو أشجع الناس ، وليس أشجع العرب فقط ، حتى صارت شجاعته كمـــا يقول الطبري في ذخائره : (معلومة لكل أحد بالضرورة بحيث لا يمكنه دفع ذلك عن نفسه) .

وقـــد افتخر من وقف بالصف ازاء علي وشهد له بالشجاعة ألدّ أعدائه وأخصامه .

يقول ابن أبي الحديد في شرحه للنهج :

انتبه معاوية يوماً ، فرأى عبدالله بن الزبير جالساً تحت رجليه على سريره .

فقال له عبدالله يداعبه : يا أمير المؤمنين لو شئت أن أفتك بك لفعلت .

فقال له : لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر .

قال : وما الذي تنكر من شجاعتي ، وقد وقفت في الصف ازاء علي بن أبي طالب .

قال معاوية : لا جرم أن قتلك واباك بيسرى يديه ، وبقيت اليمنى فارغة يطلب من يقتله بها .

إنها شهادة الأعداء وكما قيل : والفضل ما شهدت به الأعداء ، وأن لمعاوية شهادات أخرى في حق الامام جرت قهراً عنه أنطقه الله بها لتكون حجة عليه يوم الخصام ، فقد قدم عبدالله بن أبي محجن الثقفي على معاوية .

فقال : يا أمير المؤمنين إني اتيتك من عند الغبي الجبان ابن ابي طالب .

فقال معاوية : لله انت تدري ما قلت ؟

أما قولك الغبي ، فوالله لو أن ألسن الناس جمعت ، فجعلت لساناً واحداً لكفاها لسان علي ، وأما قولك أنه الجبان فثكلتك أمك ، هل رأيت أحداً قط بارزه علي إلا قتله ، وأما قولك [1] أنه بخيل ، فوالله لو كان له بيتان أحدهما من تبر ، والآخر من تبن ، لا نفذ تبره قبل تبنه .

فقال الثقفي : فعلام تقاتله ؟

قال : على دم عثمان .

إننا لسنا بحاجة إلى شهادة هذا الطاغية ، إلا لندينه بها ونلزمه باعترافه ، فإن الشجاعة في علي امر تكويني ، لم يخالط قلبه الخوف ، ولم تعرف نفسه الجزع ، لقد كان يملك نفساً كبيرة ، لا توازيها نفوس العالمين ، لقد كانت الأبطال تحتمل الهزيمة كما تحتمل النصر إلا علي ، فقد كان يعلم ان النصر له وبسيفه يتم ،

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ص ٩٧ .

فلذا قيل له : يا أمير المؤمنين ، لمَ لا تشتري فرساً عتيقاً ؟

قال : لا حاجـــة لي فيه ، وأنا لا أفرُّ ممن [1] كرَّ عليّ ولا أكرُّ على من فرَّ مني .

إن الشجعان لاحتمالها الهزيمة تتخـذ فرساً تحتاجها للفرار إن اضطرت إليه وكان خصمها أقوى منها، أو تكرُّ بها على خصمها إن كان أضعف منها، ولكن النفس العلوية الكبيرة تترفع أن تحطّ من قدرها فتحتمل الهزيمة ، فإن هـــذا الاحتمال لا يحتل من نفس علي أية زاوية أو مكان .

وقد كانت الحرب مستعرة والفرسان لا يظهر منهم إلا الحدق خوف السيوف المشرعة والرماح المسلطة ، وعلي وحده يخرج حاسراً غير مبـالٍ ولا مكترث بأصحابها .

سأل رجل ابن عباس : أكان علي عليه السلام يباشر القتال يوم صفين ؟

فقال : والله ما رأيت رجلاً اطرح لنفسه في متلف من علي ، ولقـد كنت أراه يخرج حاسر الرأس بيده السيف إلى الرجل الدارع فيقتله .

بل كان يطوف بين الصفين في صفين في غلالة ، فقــال له الحسن عليه السلام : ما هذا زي الحرب ، فيجيبه الإمام : يا بني ، إن أباك لا يبــالي وقع على الموت أو وقع الموت عليه .

كم يبدو الفرق واضحاً بين علي وبين أخصامه الجبنــاء الذين لا يجرؤون على الوقوف أمامه ، وإن وقفوا على أقدامهم استعانوا بعوراتهم لنجاتهم .

مواقف مُذِلة :

فهذا عمرو بن العــاص تعرّض لعلي عليه السلام يوماً من أيام صفين ، وظنَّ أنه

---

(١) أمالي الصدوق ، ص ١٠٢ .

يطمع منه في غرة فيصيبه ، فحمل علي عليه ، فلما كاد أن يخالطه أذرى نفسه عن فرسه ورفع ثوبه وشغر برجله فبدت عورته ، فصرف عليه السلام وجهه عنه وقام عمرو معفراً بالتراب هارباً على رجليه معتصماً بصفوفه ، فقال أهل العراق : يا أمير المؤمنين ، افلت الرجل .

فقال : أتدرون مَن هو ؟

قالوا : لا .

قال : فإنه عمرو بن العاص تلقاني بسوءته فصرفت وجهي عنه .

ورجع عمرو إلى معاوية فقال : ما صنعت يا أبا عبدالله ؟

فقال : لقيني علي فصرعني .

قال : احمد الله وعورتك ، والله إني لأظنك لو عرفته لما أقحمت عليه .

وقال معاوية في ذلك :

ألا لله من هفوات عمرو ... يعاتبني على تركي برازي
فقد لاقى أبا حسن علياً ... فآب الوائلي مآب خازي
فلو لم يُبدِ عورته لطارت ... بمهجته قوادم أي بازي
فإن تكن المنية أخطأته ... فقد غنى بها أهل الحجاز

فغضب عمرو وقال : ما أشد تعظيمك علياً أبا تراب في أمري ، هل أنا إلا رجل لقيه ابن عمه فصرعه ؟ أفترى السماء قاطرة لذلك دماً ؟!

قال : لا ، ولكنها معقبة لك خزياً .

وهنـــاك موقف آخر من مواقف الخزي والعار يشبه هذا الموقف ، وقفه الجبان المجرم بسر بن ارطأة .

قال معاوية لبسر بن ارطأة : أتقوم لمبارزته ، أي لمبارزة علي ؟

فقال : ما أحد أحق بها منك ، أما إذا أبيتموه فأنا له .

قال معاوية : إنك ستلقاه غداً [1] في أول الخيل .

وكان عند بسر ابن عم له قدم من الحجاز يخطب ابنته، فأتى بسراً فقال له: إني سمعت انك وعدت من نفسك أن تبارز علياً ، أما تعلم ان الوالي من بعد معاوية عتبة ثم من بعده محمد أخوه وكل من [2] هؤلاء قرن علي ، فما يدعوك إلى ما أرى ؟

قال : خرج مني كلام فأنا أستحي أن أرجع عنه .

وقال : هل هو إلا الموت ؟ لا بد من لقاء الله .

وغدا علي عليه السلام منقطعاً من خيله ويده في يد الأشتر وهما يتسايران رويداً يطلبان التل ليقفا عليه ، إذ برز له بسر مقنّعاً بالحديد لا يُعرف فناداه : ابرز إليّ أبا الحسن. فانحدر إليه علي على تؤدة غير مكترث به، حتى إذا قاربه طعنه وهو دارع فألقاه الى الأرض ومنع الدرع السنان أن يصل إليه ، فاتّقاه بسر بعورته وقصد أن يكشفها يستدفع بأسه ، فانصرف عنه عليه السلام مستدبراً له ، فعرفه الأشتر حين سقط فقال : يا أمير المؤمنين هذا بسر بن ارطاة ، هذا عدو الله وعدوك ، فقال : دعه عليه لعنة الله أبعد أن فعلها ؟ وقام بسر من طعنة علي مولياً وفرّت خيله ، وناداه علي عليه السلام : يا بسر ، معاوية كان أحق بها منك . فرجع بسر الى معاوية فقال له : ارفع طرفك فقد أدال الله عمراً منك (وقد كان بسر يعيّر عمراً بكشف سوأته) .

فهذه مواقف الخزي لأخصام علي عليه السلام.. إنهم يستدفعون الموت بعوراتهم دون حياء أو خجل .. سنّة سيئة ذليلة ابتدأ بها عمرو وثنى عليها بسر ، وكان أحق بها معاوية ، ولكنه كيف يقف إزاء علي ، وهو الجبان الحقير ؟ ومن أين يأتي بأعصاب تؤهله أن يستقبل سيف ابن أبي طالب ؟

---

(١) و (٢) ابن أبي الحديد ، ج ٨ ص ٩٦ .

هل غششتني ؟

ففي أحد الأيام قال معـاوية لعمرو بن العاص : يا أبا عبدالله ، أفلا أسألك عن شيء تصدقني فيه ؟

قال : والله ان الكذب لقبيح ، فسَلْ عما بدا لك اصدقك .

فقال : هل غششتني منذ نصحتني ؟

قال : لا .

قال : بلى والله لقــد غششتني ، أما اني لا أقول في كل المواطن ولكن في موطن واحد .

قال : وأي موطن هذا ؟

قال : يوم دعاني علي بن أبي طالب للمبارزة فاستشرتك فقلتُ : ما ترى يا أبا عبدالله ؟ فقلتَ : كفو كريم ، فأشرت عليَّ بمبارزته وأنت تعــلم من هو ، فعلمت انك قد غششتني .

قال : يا أمير المؤمنين ، دعاك رجل الى مبارزته عظيم الشرف جليل الخطر فكنت من مبارزته على احدى الحسنيين : إما أن تقتله فتكون قد قتلت قتّال الأقران وتزداد به شرفاً الى شرفك وتخلو بملكك ، وإمــا أن تعجل الى مرافقة الشهداء والصالحين ، وحَسُنَ اولئك رفيقاً .

قال معاوية : هذا أشر من الاولى، والله اني لأعلم اني لو قتلته دخلت النار ولو قتلني دخلت النار .

قال له عمرو : فما حملك على قتاله ؟

قال : الملك عقيم ولن يسمعها مني أحد بعدك .

الفصل الثاني

علم الامام علي عليه السلام

شذرات من كلام النبي ﷺ والصحابة
في علم علي عليه السلام

إذا أردنا أن نستعرض كل ما قــــاله النبي ﷺ في حق الإمام عليه السلام وما أشاد به ونوّه لاحتجنا إلى كتاب بانفراد ، كما وقع لكثير من الأصحاب الذين تعرّضوا لذلك، ولكني أكتفي بذكر بعضها كشواهد من كلامه صلوات الله عليه وكلام أصحابه ، تاركاً استيعاب ذلك إلى المكان المعــــدّ له من كتب الحديث والمناقب والتاريخ ، وهذه شهادة رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ، يبيّن أن علياً أعلم الامة وأعظمها :

١ – قال ﷺ لابنته الزهراء : « زوّجتُكِ خير أمتي [١] ، أعلمهم علماً وأفضلهم حلماً وأولهم سلماً » .

٢ – قال صلوات الله عليه : « أعلم أمتي من بعدي علي بن أبي طالب » [٢] .

٣ – قال ﷺ : « أقضى أمتي علي » [٣] .

والقضاء مرتبة عالية في الإسلام ، إنه منصب الأنبياء والأولياء في حياتهم ،

---

(١) السيوطي في جمع الجوامع ، ج ٦ ص ٣٩٨ .

(٢) الخوارزمي في المناقب .

(٣) كفاية الكنجي .

ومنصب المجتهدين والفقهاء بعد غيابهم .. إنه يحتاج الى كثير من العلوم فيتوقف على الإحاطة الكاملة بمدارك الشريعة ومبانيها، يحتاج إلى النحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق والاصول والدراية، وإلى استيعاب كامل لعمق الشريعة وإحاطة في معرفة رد الاصول الى الفروع ، كي يقف على حكم الله ويتمكن من استنباطه بما في أيديه من الوثائق المقررة المشروعة .

إن رتبـــة القضاء ليست وظيفة اعتيادية يتسلقها الأقزام والمتطفلون ، كما نشاهده اليوم من قضاة السوء الذين باعوا حظهم بالثمن البخس فتربّعوا على كرسي القضاء دون أهل أو كفاءة ، وكأن النبي ينظر الى هؤلاء حين قال : « مَن عمل قاضياً ذبح نفسه بغير سكين » .

لقـد جاء بهم تجار السياسة ليشوّهوا سمعة القضاء وينزعوا من نفوس الناس تلك النظرة الكبيرة الى هـــذا المنصب ، وهذا ما نجح به التجار ، فصار لقب القاضي إذا أُطلق على إنسان يعني في عرف النـاس انه حليف الجور والرشوة والفساد والابتعاد عن الحق والعدل .

وإذا كان لبعض أصحاب النبي ﷺ من ينفرد في جهة من العلوم — لو ثبت ذلك — حيث اشتهر أحـــدهم بعلم الفرائض والآخر بالقراءة والثالث بصدق الحديث .. الى آخره .. فقد جمع صلوات الله عليه كل تلك المتفرقات وصاغهـا في عبارة واحدة وَصَفَ بها الإمام عليه السلام ، ألا وهي قوله : « أقضاكم علي » . وقد برهنت الأيام بعد ذلك أن علياً لم يرجع الى أحد قط ورجع إليه كل من تقدم عليه ، فكان هذا الإخبار من النبي من اعلام النبوة ومستندات صدقها ، وسوف نرى من عجائب قضائه ما يبهر العقول ويحير الألباب .

٤ — وقال ﷺ : « قسّمت الحكمة [١] عشرة أجزاء ، فأعطي علي تسعة أجزاء والناس جزءاً واحداً » .

---

(١) حلية الأولياء .

٥ – وقال ﷺ : « أنا مدينة العلم وعلي بابها ، ولا تؤتى البيوت إلا من أبوابها » .

هذا بعض ما ورد عن رسول الله ، وما أكثر ما ورد في حق علي في هذا الباب ، فهل هناك شهادة أعظم وأكبر من شهادة النبي الصادق الأمين ؟ وهذه الأحاديث قد قبلتها الامة دون غمز فيها أو رد لها ، نقلها أصحاب الصحاح والمسانيد وصححوها وأثبتوها وآمنوا بها ، وهي من أعظم الشواهد وأكبر المواثيق التي تدل على أن الإمام هو أعلم الناس بعد رسول الله .

وقد وردت هذه المضامين السابقة على لسان الإمام نفسه وأعلام الصحابة السابقين :

١ – قال علي عليه السلام :

فاسألوني قبل أن تفقدوني [١] ، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدي بآية وتضلّ بآية إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحطّ رحالها ومن يقتل من أهلها قتلاً ويموت منهم موتاً .

٢ – وقال عليه السلام :

أيها الناس [٢] سلوني قبل أن تفقدوني ، فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض .

٣ – وقال عليه السلام :

سلوني قبل أن تفقدوني ، هذا سفط العلم ، هذا لعاب رسول الله ﷺ وهذا ما زقني رسول الله ﷺ زقاً ، فاسألوني فإن عندي علم الأولين

---

(١) نهج البلاغة ، خطبة ٩٢ .
(٢) « « « ١٨٨ .

والآخرين، أما والله لو ثنيت لي الوسادة ثم اجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل الزبور بزبورهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم ، حتى ينادي كل كتاب بأن علياً حكم فيّ بحكم الله .. وفي رواية : حتى ينطق الله التوراة والإنجيل ويقول : يا رب إن علياً قضى بقضائك .

ثم قال عليه السلام : سلوني قبل أن تفقدوني، فوالذي فلق الحبة وبرء النسمة ، لو سألتموني عن آية ، في ليل انزلت أو في نهـــار ، مكيها ومدنيها وسفريها وحضريها ، ناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها وتأويلها وتنزيلها، لأخبرتكم.

٤ — وقال عليه السلام :

بل اندمجت [١] على مكنون عـــلم لو بحتُ به لاضطربتم اضطراب الارشية (الحبل) في الطوي (البئر) البعيدة .

٥ — وقال عليه السلام :

ولقد كنت أتبعه (للنبي) اتباع الفصيل اثر امه ،يرفع لي في كل يوم من أخلاقه[٢] علماً ويأمرني بالاقتداء .

هذه شذرات قليلة نطق بها الإمام عليه السلام متمنياً أن يكون في القوم مَن يملك قلباً واعياً وعقلاً متفتحاً ، حتى يفصح له عما يحويه من العلم .

إن علياً لم يكن ليقول (سلوني) لو لم يملك الجواب عن كل ما يحتمل أن يُسأل عنه ، (سلوني) بكل عمومها وإطلاقها تشمل جميع العـــلوم ومختلف الفنون ، لا يشذ عنها علم ولا يخرج عن إطارها فن .

وهذه جمـلة من شهادات الصحابة تبيّن إمامته على الجميع وتقدّمه على سائر المسلمين دون استثناء :

---

(١) نهج البلاغة ، خطبة ٥ .
(٢) ابن أبي الحديد ، ج ١٣ ص ١٩٧ .

فهذا ابن عباس، وهو حبر الامة وعالمها ومحدثها ومفسرها ، يُسأل عن علمه بالنسبة إلى علم علي عليه السلام ، فيقول : وما علمي وعلم أصحاب محمد في علم علي إلا كقطرة في سبعة أبحر .

ويقول ابن عباس أيضاً : والله لقد أعطي علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم ، وايم الله [1] لقد شاركهم في العشر العاشر .

وقال ابن مسعود : قسمت [2] الحكمة عشرة أجزاء ، فأعطي علي تسعة أجزاء والناس جزءاً ، وعلي أعلمهم بالواحد منها .

وقال أيضاً : أفرض أهل المدينة [3] وأقضاها علي .

وقالت عائشة : علي أعلم الناس [4] بالسنة .

وقال عمر بن الخطاب : علي[5] أقضانا .

وقال أيضاً كلمته المشهورة : (لولا علي[6] لهلك عمر) .

وقال أيضاً : لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن .

وقال معاوية عدو الإمام لما بلغته وفاته : لقد ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب .

وذكر صاحب الرياض النضرة قال : عن أبي حازم قال : جاء رجل الى معاوية فسأله عن مسألة ، فقال : سل عنها علي بن ابي طالب فهو أعلم ، قال : يا امير المؤمنين جوابك فيها أحب إليّ من جواب علي ، قال : بئسما قلت ! لقد كرهت رجلاً كان رسول الله صلى الله عليه وآله يغزره بالعلم غزراً ، ولقد قال له: انت مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي . وكان عمر إذا اشكل عليه شيء أخذه منه .

---

(١) الاستيعاب ، ج ٣ ص ٤٠ .
(٢) كنز العمال .
(٣) الصواعق وغيره .
(٤) الصواعق ص ٧٦ .
(٥) تاريخ الخلفاء ، ص ١١٥ .
(٦) الاستيعاب وغيره .

وعن شريح بن هانىء قال [١] : أتيت عائشة أسألها عن المسح على الخفين ، فقالت : ائتِ علياً فإنه أعلم بذلك مني .

هذه شهادات كتبتها يد الحقيقة التي تطلع على النفوس والقلوب معلنة للناس ان علياً أعلم البرية وأجدرها ، إنه أكفأها وأعظمها ، هـذا علي الذي ما عجز عن مسألة قط ولا سوّف في جواب مشكلة أبداً ، بل كان الفارس المجلى الذي لم يعثر في حياته مرة واحدة .. لقد توالت من رسول الله ﷺ السنن التي تشيد بعلم علي ، ووردت الأخبار التي أبانت علوّ كعبه ورفيع منزلته .

إن الأحاديث التي تقدمت في صدر الكلام تدلّ دلالة صريحة قاطعة ان علياً هو أعلم أصحاب النبي ، فإن رسول الله وأصحابه الذين عايشوا الإمام عرفوا ذلك ولمسوه ، فلذا صرّحوا بأعلمية علي وتقدُّمه على سائر المسلمين ، وقد كان برهان ذلك ساطعاً وآياته واضحة وعلاماته باهرة .. إن أعلمية علي لم تخفَ على أحد ، وقد برهنت الأيام انه ابن جلاها ، فقد صدر عنه من العلوم ما سبق عصره وفاق دهره ، لم تقتصر أعلمية علي على الفقه وتوابعه ، بل امتدت الى مجالات وحقول اخرى لم تخطر على قلوب معاصريه ولا مرّت ببالهم .

ونحن سنستعرض مقتطفات من تلك الباقات الخالدة التي نبيّن فيهـا رجوع الخلفاء الذين تقدّموا عليه إليه ، وهذا الرجوع إنما كان رجوعاً الى الأعلم والأعلم أحق بالتقديم ، والخلافة له دون غيره ، فإن مَن يهدي الى الحق أحق ان يُتبع . أما شُعَب العلم ومتفرقاته فلعلي فيها جولات وقدم راسخة لا تتزلزل .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه .

رجوع الخلفاء إلى الإمام

إن رجوع الخلفاء الى الإمام قد تعددت وتكثرت حتى اشتهرت بل تواترت بحيث لم تعد خافية على أحد من الناس ، وكل مَن راجع كتب السيَر والحديث بان له ذلك وظهر لكل عين بصيرة ،ونحن ننقل هنا بعضاً منها كشواهد لما قلناه.

رجوع أبي بكر إليه :

ذكر رجال من العامة والخاصة أن رجلاً رُفع الى أبي بكر وقد شرب الخمر فأراد ان يقيم عليه الحد فقال له: إني شربتها ولا علم لي بتحريمها لأني نشأت بين قوم يستحلونها ولم أعلم بتحريمها حتى الآن ، فأرتج على ابي بكر الأمر بالحكم عليه ولم يعلم وجه القضاء فيه ، فأشار عليه بعض مَن حضر أن يستخبر أمير المؤمنين علياً عليه السلام عن الحكم في ذلك، فأرسل إليه مَن سأله عنه ، فقال أمير المؤمنين :مُرْ رجلين ثقتين من المسلمين يطوفان به على مجالس المهاجرين والأنصار ويناشدانهم هل فيهم أحد تلا عليه آية التحريم أو أخبره بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، فإن شهد بذلك رجلان منهم[1] فأقم الحد عليه ، وإن لم يشهد أحد بذلك فاستتبه وخلِّ سبيله ، ففعل ذلك أبو بكر ، فلم يشهد أحد من المهاجرين

---

(١) الارشاد للشيخ المفيد ، ص ٩٥ .

والأنصار ، أنــه تلا عليه آية التحريم ، ولا أخبره عن رسول الله ﷺ بذلك فاستتابه أبو بكر وخلى سبيله وسلم لعلي في القضاء به .

رجوع عمر إلى الامام :

إن رجوع عمر إلى الإمام لا يكاد يخفى على أحد ، وإن أقواله في حق الإمام سمعها الخاص والعام والمؤالف والمخالف ، وتسامعت بها الدنيا من أقطارها ، بل إن الخليفة عمر رجع إلى غير الإمام ، فقد ردّت عليه قوله حتى النساء .

ذكر ابن أبي الحديد في شرحه : قــال عمر مرة : لا يبلغني أن إمرأة تجاوز صداقها صداق نساء النبي إلا ارتجعت ذلك منها ، فقالت له إمرأة : ما جعل الله لك ذلك ، أنــه تعالى قال : (وآتيتم إحداهن قنطاراً ...) فقال : كل الناس أفقه من عمر حتى ربات الحجال ألا تعجبون من إمــام أخطأ ، وإمرأة أصابت ، فاضلت امامكم ففضلته .

وهناك وقائع كثيرة مدونة في محلها ، واردة بالأسانيد الصحيحة ، أن عمر قد رجع في كثير من قضائه إلى غيره ، بعد أن تبين خطأ ما ذهب إليه ، بــــل كثيراً ما كان ينقض ما أفتى به أولاً ، وعلى حد تعبير ابن أبي الحديد (كان عمر[1] يفتي كثيراً بالحكم ثم ينقضه ، ويفتي بضده وخلافه قضى في الجد مع الاخوة قضايا كثيرة مختلفة ، ثم خاف من الحكم في هذه المسألة .

فقال : من أراد أن يتقحم جرائيم جهنم فليقل في الجد برأيه .

وقد كان رجوعه أكثر مــا يكون إلى الإمام ، فهناك العديد من القضايا التي أرشده إليها الإمام وهداه إلى حلها حتى أفصح بنفسه ، وأشاد بملء فـــه (علي أقضانا) (لولا علي لهلك عمر) (لا بقيت لمعضلة ليس لهـــا أبو الحسن) فمن تلك الموارد :

---

(١) شرح النهج ابن أبي الحديد ج ١ ص ١٨١ .

١ – أتي عمر بن الخطاب بإمرأة حامل قـــد اعترفت [١] بالفجور ، فأمر برجمها فتلقاها علي ، فقال : مـا بال هذه ؟ فقالوا : أمر عمر برجمها فردّها علي وقال : هذا سلطانك عليها ، فما سلطانك على ما في بطنها ؟ ولعلك انتهرتها أو أخفتها ؟ قال: قد كان ذلك . قال: أو ما سمعت رسول الله ﷺ قال: لا حدّ على معترف بعد بلاء ، أنـــه من قيد أو حبس أو تهدد فلا إقرار له ، فخلى سبيلها ثم قال : عجزت النساء أن تكون مثل علي بن أبي طالب ، لولا علي لهلك عمر .

٢ – أتي عمر بمجنونة قد زنت فاستشار فيها أناساً، فأمر بها أن ترجم، فمر بها علي رضي الله عنه فقال : ما شأن هذه فقالوا : مجنونة بني فلان زنت ، فأمر بها عمر أن ترجم ، فقال : ارجعوا بها ، ثم أتاه فقال : يا أمير المؤمنين ، أمـــا علمت ؟ أما تذكر أن رسول الله ﷺ قـال : رفع القلم عن ثلاث : عن الصبي حتى يبلغ وعن النائم حتى يستيقظ وعن المعتوه حتى يـــبرأ ، وأن هذه معتوهة بني فلان لعـل الذي أتاها ، أتاها وهي في بلائها فخلى سبيلها ، وجعل عمر يكبّر .

٣ – ومنها ما أخرجه ابن عساكر والحافظ الدارقطني: أن رجلين أتيا عمر ابن الخطاب وسألاه عن طلاق الامة، فقام معهما فمشى حتى أتى حلقة في المسجد فيها رجل أصلع .

فقال : أيها الأصلع ما ترى في طلاق الامة ؟ فرفع رأسه إليه ثم أومى إليه بالسبابة والوسطى ، فقال لهما عمر : تطليقتان . فقـــال أحدهما : سبحان الله جئناك وأنت أمير المؤمنين ، فمشيت معنا حتى وقفت على هذا الرجل فسألته فرضيت منه أن أومى إليك فقال لهما : تدريان من هذا ؟! قالا : لا، قال : هذا

---

(١) الرياض النضرة .

علي بن أبي طالب أشهد على رسول الله ﷺ لسمعته وهو يقول : إن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعا في كفة ، ثم وضع إيمان علي في كفة ، لرجح إيمان علي بن أبي طالب .

رجوع عثمان إلى الامام :

لم يكن عثمان أسعد حظاً ممن تقدمه كيف وهم بالإجماع أفضل منه وأعلم ، فإذا رجع من هو أفضل منه إلى الإمام ، فكيف يكون حال من هو دونهما في الفضل والعلم ، فإذا كان الخليفتان عالة على الإمام في هذا الباب ، وقد أذعنا واعترفا بسبقه وتقدمه عليهما ، فلا يبقى لعثمان مجال أن يرفع عقيرته أو يدلي بصوت يحتج به وعلي حاضر ، وقد صحّح الامام كثيراً من أخطاء عثمان وردّه في كثير من القضايا التي لا تتفق والدين ، أو تكون شاذة بعيدة عن شريعة سيد المرسلين .

١ – ذكر السيوطي في الدر المنثور في ذيل تفسير قوله تعالى : (ووصينا الانسان بوالديه إحساناً) قال : عن بعجة بن عبد الله الجهني قال : تزوج رجل منا إمرأة من جهينة فولدت له تماماً لستة أشهر ، فانطلق زوجها إلى عثمان بن عفان فأمر برجمها ، فبلغ ذلك علياً عليه السلام فأتاه فقال : ما تصنع ؟ قال : ولدت تماماً لستة أشهر ، وهل يكون ذلك ؟ قال علي عليه السلام : أما سمعت الله يقول : (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) وقال : (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) . فكم تجده بقي إلا ستة أشهر ، فقال عثمان : والله ما فطنت لهذا عليّ بالمرأة فوجدوها قد فرغ منها ، وكان من قولها لاختها : يا اختي لا تحزني فوالله ما كشف فرجي أحد قط غيره ، قال : فشب الغلام بعد ، فاعترف الرجل به وكان أشبه الناس به .

٢ إن رجلاً أتى عثمان بن عفان وهو أمير المؤمنين وبيده جمجمة إنسان ميت فقال : إنكم تزعمون النار يعرض على هذا ، وأنه يعذّب في القبر ، وأنا قد

وضعت عليها يديّ فلا أحس منها حرارة النار ، فسكت عنه عثمان وأرسل إلى علي بن أبي طالب المرتضى يستحضره ، فلما أتاه وهو في ملأ من أصحابه ، قــال للرجل : اعد المسألة فأعادها ، ثم قــال عثمان بن عفان : اجب الرجل عنها يا ابا الحسن ، فقال علي : ايتوني بزند وحجر والرجل السائل والناس ينظرون إليه فأتي بهما فأخذهما وقدح منهما النار ، ثم قال للرجل : ضع يــــدك على الحجر ، فوضعها عليه ثم قــال : ضع يدك على الزند فوضعها عليه فقال : هل احسست منها حرارة النار ، فبهت الرجل ، فقال عثمان : لولا علي لهلك عثمان .

الامام علي تلميذ الوحي والنبوة

هذا هو الزمن يصغي بكل مسامعه حيث احس بنغمة جديدة ليس من انغام الأرض والحانها ، انه يتنصت لهمس بعيد لم يعهده منذ زمان سحيق ، وتساءل عن سر تلك الهمسات التي سرت إلى روحه فانعشتها ، وإلى وجدانه فاعاد له الحياة تساءل وفتش فعثر على حفيف اجنحة بين السماء والأرض ، إنها الملائكة التي خفت لخدمة رسول الله وحفظه وصيانته ، انه نور النبوة في الأرض ، قد جذب سكان السماوات إليه واقتادها لتكون تحت امره ورهن إشارته .

انه بيت في احضان مكة ضم اعظم إنسان على وجه الأرض ، انه الانسان الذي اختاره الله لحمل رسالته فاغدق عليه من بركاته تربية وتهذيباً وتأدباً وتعليماً وهبطت رسالة السماء على قلب محمد ،فكانت مطالعها اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ، هكذا شاء الله ان يكون مفتتح هذه الرسالة علم ومعرفة .

لقد تنزل القرآن على قلب محمد والتقطه القلب الأمين آية آية ، وحرص على كل حرف من حروفه او حركة من حركاته ، انه رسول الله تتنزل عليه الملائكة بوحي السماء وكلمات الله ، فازدهر بيته وتلألأ ولمع لأهل السماء ، كما لمع لأهل الأرض ، انه محمد اليتيم الذي فقد اباه وامه ، وعاش مرارة اليُتم وآلامه قد بعثه الله رسولاً .

وفي ذلك الكنف الطاهر والعبقات النبوية العطرة، شاء الله لانسان ان يرافق مسيرة النبوة من خطوتها الاولى - بـل ما قبلها - ويتفتح قلبه للحن السماوي يردده جبرائيل للنبي ويلقيه رسول الله لهـذا الفتى المتوقد الذكي قطرة قطرة وجرعة جرعة ، انـه علي ... علي بن ابي طالب الذي افاض عليه النبي من بركاته ما جعله اولى الناس به واحقهم بمنصبه بعد رحيله عن عالم الفناء .

لقد فتح علي عينه على محمد ، ومن هو محمد؟ انه رسول الله الذي اختاره الله لحمل اعظم اطروحة سماوية لأهل الأرض ، انه رسول السماء يحمل رسالة الاسلام هذا الدين الشامل الكامل المستوعب لجميع شعب الحياة ومتفرعاتها، وما تنطوي عليه من المفاهيم والقيم ، ومـا تتمخض عنه من احداث ووقائع ، محمد خلاصة الانسانية وزبدة هذا العالم، انه الانسان الرسول الذي مثّل تعاليم الله بحذافيرها واقام بها خير قيام ، ولقد كان صلة الوصل بين الله والانسان، فأنزل الله على قلبه اشرف كتاب بأشرف بيان ، انه القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، إنه القرآن بما يحويه من عناصر البقاء والدوام قد سكب في قلب محمد ، وبما فيه من تشريعات واحكام وسنن وقوانين قد رسخت في نفس محمد حتى جاء محمد كما اراد الله لأحب رسله واصفاهم واعظمهم واقواهم ، لقـد استوعب النبي جميع احكام القرآن وبلغها إلى الناس ، وقد كان الامام هو الظل الوحيد للنبي الذي لا يفارقه ليلا او نهاراً، انه معه في خلوته ومعه في سفره معه حيث حل واين ارتحل .

لقـد تدرج الامام شيئاً فشيئاً ، وهبط القرآن على قلب النبي فأخذ يلقنه احكامه وآياته آية آية حتى استوعب مدلول آيات الله على يد النبي ، فلم تشذ آية إلا وعلي يعرف معناها ، يعرف اين نزلت وبمن نزلت وفي اي وقت نزلت ، انه علي الذي عايش القرآن طيلة السنوات التي كان يتنزل فيها، فيأخذه من مصدره الأصيل دون واسطة احد ، انها المباشرة المستمرة في اخذ آيات الله بحيث دعت الأيام علياً ان يفصح عن ذلك ويعلن قائلا: ما من آية إلا وقد علمت فيمن نزلت

وإن نزلت في سهل او في جبل ، وان بين جوانحي لعلماً جماً ، سلوني قبل ان تفقدوني ، فإنكم إن فقدتموني لم تجدوا من يحدثكم مثل حديثي .

إذن فقد تربى علي في ظلال القرآن ونشأ على بيانه ولسانه حتى اصبح هذا الكتاب هو القبلة التي اثرت في حياته ، فصاغته صياغة فريدة ، لم يعهد العالم شبيهاً له ، لقد كان للقرآن في حياة علي اثر كبير ، إذ جعلت منه النموذج الكامل الذي خلقه البيان الالهي والمدرسة الاسلامية ذات الطابع المميز والملامح الخاصة .

إن هذه السنين المتطاولة التي عاشها الامام في كنف النبي يغدق عليه رسول الله من بحر عطائه وهو يستزيد ويحرص اشد الحرص على العلم ، وان لا تفوته فرصة إلا ويستفيد منها حتى قيل له : مالك اكثر اصحاب رسول الله ﷺ حديثاً ؟ قال : إني كنت [1] إذا سألته انبأني ، وإذا سكت ابتدأني .

إن علياً عليه السلام قد صاغه النبي كما احب واراد حتى جاء صورة مثالية لأحلام النبوة الأمينة ، فمنذ نعومة اظفاره أدبه وصقل نفسه ودربه على الايثار والمحبة والعدل والاخاء مع كل ما مر فيه النبي خلال دعوته ، كان فيها الامام تصهره الأحداث وتجعل منه المؤهل الوحيد لخلافة محمد ، فيما إذا انتابه شيء او اصابه مكروه..

إن علياً عايش الوحي الالهي بصفائه وطهره ، وعايش النبوة بما فيها من اقوال وأفعال وتصرفات ، فانطبعت سمات ذلك وملامحه على كلامه وتصرفه ، حتى اضحى ظلاً حاكياً لوحي الله ولرسوله الأمين ، وطبيعي ان يكون من عاش في تلك الظلال القرآنية ، وتلك الأفياء المحمدية ان يكون في قمة الكمال والمرتقى الرفيع الذي لا يدانيه إنسان آخر في هذا العالم ، لا يدانيه علماً ولا عملاً ولا جهاداً ولا غير ذلك من فصول الحياة وملاحمها الرائعة .. وقد ثبت ان علياً عليه السلام اعلم اصحاب النبي وأفقههم ونحن سنستعرض بعض تلك التفوقات التي جعلت منه إمام الجميع ومطمح أنظار الصحابة في زمن النبي وبعد وفاته .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ج ١ ص ٦٦ .

علي وعلم التفسير

قلنا ان علياً فتح عينيه على كلام الله وحديث الرسول ، وقد كان للقرآن عنده شأن كبير وفضل عظيم ، فإذا كان الطفل أول ما ينفتح على العالم يرى وجه امه ويتأثر بهـا وتبقى تلك الصورة لا تفارقه طيلة حياته كلها ، فإنه عليه السلام قد ارتسمت صورة كتاب الله وكلماته في نفسه ، فلم يغادره هذا الكتاب الشريف طيلة حياته .

وإذا أردنا أن نعرف مقدار ما لهذا الكتاب من قيمة عظيمة عند علي ، وما له من احترام وتقدير ، فما علينا إلا أن نتصفح بعض تلك الكلمات التي أشار فيها عليه السلام الى كتاب الله وكم كان لهذا الكتاب من فضل، وليس أحد أحق وأعرف منه بهذا الكتاب الكريم .

يقول عليه السلام :

ثم انزل عليه الكتاب نوراً [1] لا تطفأ مصابيحه ، وسراجاً لا يخبو توقده ، وبحراً لا يُدرك قعره ، ومنهاجاً لا يضل نهجه، وشعاعاً لا يظلم ضوؤه، وفرقاناً لا يخمد برهانه ، وتبياناً لا تهدم أركانه ، وشفاء لا تخشى أسقامه، وعزاً لا تهزم أنصاره ، وحقاً لا تخذل أعوانه ، فهو معـدن الإيمان وبحبوحته ، وينابيع العلم

(١) نهج البلاغة ص ٣١٥ .

وبحوره ، ورياض العـــدل وغدرانه ، وأثافي الإسلام وبنيانه ، وأودية الحق وغيطانه ، وبحر لا ينزفه المستنزفون ، وعيون لا ينضبها الماتحون ، ومناهل لا يغيضها الواردون ، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون ... جعله الله رياً لعطش العلماء ، وربيعاً لقلوب الفقهاء ، ومحاج لطرق الصلحاء ، ودواء ليس بعده داء ، ونوراً ليس معه ظلمه ، وحبـــلا وثيقاً عروته ومعقلاً منيعاً ذروته ، وعزاً لمن تولاه ، وسلماً لمن دخـله ، وهدى لمن ائتمّ به ، وعذراً لمن انتحله ، وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلجاً لمن حاج به ، وحاملاً لمن حمله ، ومطية لمن اعمله ، وآية لمن توسم ، وجُنة لمن استلأم ، وعلماً لمن دعى وحديثاً لمن روى وحكماً لمن قضى .

وقال عليه السلام :

إن الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل[1] هذا القرآن، فإنه حبل الله المتين وسببه الأمين ، وفيه ربيع القلب وينابيع العلم وما للقلب جلاء غيره .

وقال عليه السلام :

واعلموا ان هذا القرآن هو الناصح[2] الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل والمحدث الذي لا يكذب ، وما جالس هـذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان ، زيادة في هدى أو نقصان من عمى ، واعلموا انه ليس على أحد بعـــد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به على أعدائكم ، فإن فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والنفـــاق والغيّ والضلال ...

وقال عليه السلام :

وتعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث ، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القـــلوب ،

---

(١) نهج البلاغة ص ٢٥٤ .

(٢) » » » ٢٥٠ .

واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور ، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص .

وقال عليه السلام :

إن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق ، لا تفنى عجـائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تكشف الظلمات إلا به .

هذه بعض النماذج التي نطق بها الإمام وأعرب فيها عن مدى أهميـــة هذا القرآن وكم كان له عند علي من احترام وتقدير، فاسمعه في كلماته كيف تخرج كل كلمة من صميم القلب العلوي لتعطي للقرآن حقه وتصفه بما هو أهله ، انظر لترى مدى تغلغل هذا القرآن وآياته في نفس علي وروحه ، إنهـــا الكلمات التي لا تستوعب إلا مقدار طاقتها يبديها الإمام في وصف القرآن، فاسمعه حيث يقول: جعـله الله رياً لعطش العلماء وربيعاً لقلوب الفقهاء ومحاج لطرق الصلحاء ودواء ليس بعده داء ونوراً ليس معه ظلمة .

سبحانك اللهم قـــد أعطيت علياً بياناً يقصر عنه الفصحـــاء ولا يبلغه البلغاء ، إنه علي خرّيج مدرسة القرآن ، فكيف لا يعيش واقع القرآن وكيف لا يدرك أعماق القرآن وأهميته؟ لقد نما عوده وشبّ قوامه على آيات الله وكلماته فقد ملك هذا الكتاب كل شخصية الإمام حتى جاء ترجمة حرفية لمضمونه والمراد منه ، وقد بلغ من اهتمامه به انه كان وصيته لبنيه وأهله عنـــدما ضربه اللعين ابن ملجم ، فقال لهم : الله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم ...

هذا هو اهتمام علي بالكتاب الكريم ، وهذا الاهتمام متفرع عن الفهم العميق لمدلول سوَره وآياته والمراد منه ، وقد كان الإمام أعلم الامة في تفسير القرآن والكشف عن آياته ، إذ انه واكب رحلة نزوله من بدئها الى ختامها ، وقد نوّه عليه السلام بذلك حيث قال : فوالذي فلق الحبة وبرء النسمة ، لو سألتموني عن آية آية في ليل نزلت أو في نهـــار ، مكيها ومدنيها وسفريها وحضريها ، ناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها وتأويلها وتنزيلها ، لأخبرتكم .

ويقول عليه السلام معلناً : مـا من آية إلا وقد علمت فيمن نزلت وأين نزلت في سهل أو في جبل ، وإن بين جوانحي لعلماً جماً .

إنه علي الذي توحّد في خصاله وأفعاله ، هو وحده الذي وصل الى مداليل آيات الله وكلماته ، إنه وقف على كل آية آية ، فعرف متى نزلت وبمن نزلت والمكان الذي نزلت فيه .

إنه علي الذي عبّر عنه النبي صلى الله عليه وآله بقوله : علي مع القرآن والقرآن مع علي .. وكيف لا يكون كذلك وهو القرآن الناطق وكتاب الله هو القرآن الصامت ؟.. إن علياً هو المفسر لآيات الله ، لقد زقّه النبي العلم زقّاً وأغدق عليه من علوم النبوة ما جعله باب مدينة علم الرسول .

إنه علي الذي بنى مدرسة فكرية ترجمت الإسلام عملياً وسلوكياً ، وقد فتح روحه وقلبه للنـــاس ودعاهم إليه كي يعيشوا في ظلال القرآن الذي تربّى عليه علي نفسه ، فكان نموذجاً قرآنياً ومدرسة بيانية تلقى كلماتها من قرآن الله وحديث النبي .

لقد عبّر علي عن شدة التحام القرآن في نفسه واهتمامه بهذا الكتاب الكريم ، عبّر بكلمة هي أبلغ ما تكون ، حيث قال : أنا النقطة تحت الباء ، إنه النقطة التي بها ترسم بسم الله الرحمن الرحيم على حقيقتها ، وبدونها لا تستكمل الجملة معناها ولا تؤدّي مدلولها .

إنه علي الذي سكب النبي في قلبه آيات الله ، فجاء علي قرآناً ناطقاً يفسر ويشرح ويبين مدلول الكلمات الإلهية في القرآن الصامت .

يقول ابن عباس ، وهو حبر الامة والمرجع في التفسير ، ان علياً شرح له في ليلة واحدة من حين أقبل ظلامها إلى حين أسفر صبحها وأطفىء مصباحها ، في شرح الباء من بسم الله الرحمن الرحيم ولم يتعدّ إلى السين ، وقال عليه السلام : لو شئت لأوقرت أربعين وقراً (أو بعيراً) .

معجزة البيان عند علي

لقد أعطى البيان مقاليده لأمير المؤمنين عليه السلام وأسلس له القياد حتى أصبح عادة له وسجية ، فهو ابن القرآن وربيب أفصح العرب ، فهـل يعوقه تعبير أو يصعب عليه بيان ؟

إنه علي قـد تأثر ببيان القرآن ، فجاء حديثه وبيانه في خطبه ورسائله آية في الجمال والبلاغة سبقت أبناء عصره وتخطـّت زمان وجوده . إنك إذا تأملت قطعة من ذلك البيان العلوي لرأيت عليها نفحات القرآن ظاهرة وملامح الكتاب العزيز بادية ، إنها كلمات مَن تربّى على البيان المعجز – القرآن الكريم – فجاء كلامه معجزاً كوجوده ، حتى قيل : ان كلامه دون كلام الخـالق وفوق كلام المخلوق . إن بلاغة نهجه تكشف بوضوح مدى تفاعل علي مع القرآن ، وكم كان للبيان الإلهي سيطرة على لسانه ، حتى تراه في فصول نهج البلاغة لا يختلف أوله عن آخره ،وإنك تجد نفس المسحة والأنفاس في كلامه كله وتستطيع أن تكتشف بذوقك بعد ممارسة لكلامه ان هذا من كلامه وهذا ليس من كلامه .

لقد أعطي علي من سعة البيان ما جعله يرسل دون تكلف أو مشقة ، حتى جاء نهجه معجزاً في معناه وفي قوالبه ، وقد اختار الشريف الرضي بعض تلك الخطب وسماها نهج البلاغة ، وإلا فخطب علي أكثر من ذلك بكثير .

ومن طواعية هذا البيان له عليه السلام انه كان يخطب الخطبة بطولها على البديهة

وقد يعجز أئمة البلاغة عن تركيبها في خلواتهم وأوقات انفرادهم ، فمن ذلك ما رواه الكنجي الشافعي في مناقبه :

جلس جماعة من أصحاب النبي ﷺ يتذاكرون ، فتذاكروا الحروف وأجمعوا ان الألف أكثر دخولاً في الكلام من سائر الحروف، فقام الإمام عليه السلام فخطب هذه الخطبة على البديهة ، فقال صلوات الله عليه :

حمدت وعظمت من عظمت منّته ، وسبغت نعمته ، وسبقت رحمته غضبه، وتمّت كلمته ، ونفذت مشيّته ، وبلغت قضيته ، حمدته حمد مُقرٍّ لربوبيته ، متخضع لعبوديته ، متنصّل من خطيئته ، معترف بتوحيده ، مؤمل من ربه مغفرة تنجيه يوم يشغل عن فصيلته وبنيه ، ونستعينه ونسترشده ونستهديه ونؤمن به ونتوكل عليه .

وشهدت له تشهّد مخلص موقن ، وفرّدته تفريد مؤمن متيقن ، ووحّدته توحيد عبد مذعن ليس له شريك في ملكه ولم يكن له وليّ في صنعه ، جلّ عن مشير ووزير وعون ومعين ونظير ، علم فستر ونظر فخبر وملك فقهر وعصى فغفر وحكم فعدل ، لم يزل ولن يزول ، ليس كمثله شيء وهو قبل كل شيء وبعد كل شيء، رب منفرد بعزّته، متمكن بقوّته، متقدّس بعلوّه، متكبر بسموّه، ليس يدركه بصر ، وليس يحيط به نظر ، قوي منيع ، بصير سميع ، حليم حكيم ، رؤوف رحيم ، عجز عن وصفه من يصفه ، وضلَّ عن نعته من يعرفه، قرُبَ فبَعُد وبَعُدَ فقرُب، يجيب دعوة من يدعوه ويرزقه ويحبوه ، ذو لطف خفي وبطش قوي، ورحمة موسعة وعقوبة موجعة ، رحمته جنة عريضة مونقة، وعقوبته جحيم ممدودة موبقة .

وشهدت ببعثة محمد عبده ورسوله وصفيّه ونبيّه وخليله وحبيبه، صلى عليه ربه صلاة تحظيه وتزلفه وتعليه وتقربه وتدنيه ، بعثه في خير عصر وحين فترة وكفر ، رحمة لعبيده .. ختم به نبوّته ووضح به حجته ، فوعظ ونصح وبلغ وكدح ، رؤوف رحيم بكل مؤمن رضي ولي زكي ، عليه رحمة وتسليم وبركة

وتكريم من رب غفور رحيم قريب مجيب .

وصيتكم جميع من حضر بوصية ربكم وذكرتكم سنة نبيكم فعليكم برهبة تسكن قلوبكم ،وخشية تذري دموعكم وتقية تنجيكم قبل يوم يذهلكم ويبليكم ، يوم يفوز فيه من ثقلت وزن حسنته وخف وزن سيئته ، ولتكن مسألتكم وملقكم مسألة ذل وخضوع وشكر وخشوع وتوبة ونزوع ونـــدم ورجوع ، وليغتنم كل مغتنم منكم صحته قبل سقمه وشبيبته قبل هرمه وكبره وفرصته وسعته وفرغته قبل شغله وغنيته قبــل فقره وحضره قبل سفره ، من قبل يهرم ويكبر ويمرض ويسقم ويمـله طبيبه ويعرض عنه حبيبه وينقطع عمره ويتغير لونه ويقل عقله قبل قولهم هو موعوك وجسمه منهوك قبل جـده في نزع شديد وحضور كل قريب وبعيد قبل شخوص بصره وطموح نظره ورشح جبينه وخطف عرنينه وسكون حنينه وحديث نفسه وبـكي عرسه ، ويتم منه ولده وتفرق عنه عدوه وصديقه وقسم جمعه وذهب بصره وسمعه وكفن ومدد ووجه وجرد وعرى وغسل ونشف وسجى وبسط له وهيي ونشر عليه كفنه وشد منه ذقنه وقمص وعمم وودع عليه وسلم ، وحمل فوق سريره وصلي عليه ، ونقل من دور مزخرفــة وقصور مشيّدة وحجر منجدة ، فجعل في ضريح ملحود ضيف مرصود بلبن منضود مسقف بجلمود وهيل عليــه عفره وحثى عليه مدره وتحقق حذره ونسي خبره ورجع عنه وليه وصفيه ونديمه ونسيبه ، وتبدل بــه قريبه وحبيبه ، فهو حشو قــبر ورهين قفر يسعى في جسمه دود قبره ويسيل صديده على صدره ونحره يسحق برمته لحمه وينشف دمــه ويرم عظمه حتى يوم حشره ونشره ، فينشر من قــبره وينفخ في صوره ويدعى بحشره ونشوره ، فثم بعثرت قبور وحصلت سريرة صدور ، وجيء بكل نبي وصديق وشهيد ونطيق، وقعد للفصل رب قدير بعبده بصير خبير .

فلكم من زفرة تعنيه وحسرة تقصيه ، في موقف مهيل ومشهد جليل بــين يدي ملك عظيم بكل صغيره وكبيره عليم ، حينئذٍ يلجم عرقه ، ويحصره قلقه

عبرته غير مرحومة وصرخته غير مسموعة وحجته غير مقبولة ، تنشر صحيفته وتبين جريرته ، حيث نظر في سوء عمله وشهدت عينه بنظره ، ويــده ببطشه ورجله بخطوه وفرجه بلمسه وجلده بمسه ، وتهدده منكر ونكير ، وكشف عن حيث بصير ، فسلسل جيده وغلغل ملكه يده ، وسيق يسحب وحــده فورد جهنم بكرب وشدة ، وظل يعذب في جحيم ، ويسقى شربة من حميم تشوي وجهه وتسلخ جلده وتضربه زبنيته بقمع من حديد يعود جلده بعد نضجه كجلد جديد يستغيث فتعرض عنه خزنة جحيم ، ويستصرخ فلم يجب ندم حيث لم ينفعه ندمه.

نعوذ برب قدير من شر كل بصير ، ونسأله عفو من رضي عنه ومغفرة من قبل منه فهو ولي مسألتي ومنجح طلبتي .

فمن زحزح عن تعذيب ربه ، جعل في جنته بقربه ، وخلد في قصور مشيّدة وملك حور عين وحفدة وطيف عليه بكؤس ، وسكن حظيرة قدس في فردوس وتقلب في نعيم ، ويسقى من تسنيم وشرب من سلسبيل قد مزج بزنجبيل ختم بمسك مستديم للملك مستشعر الرسول ويشرب من خمور في روض مغــدق ليس ينزف عقله .

هذه منزلة من خشي ربــه وحذر نفسه ، وتلك عقوبة من عصى منشأه وسولت له نفسه ، فهو قول فصل وحكم عــدل قصص ، قص ووعظ ونص تنزيل من حكيم حميد نزل به روح قدس منير مبين من عند رب كريم على قلب نبي مهتد رشيد وسيد ، صلت عليه رسل سفرة مكرمون بررة عذت برب عليم حكيم قدير رحيم ، من شر عدو لعين رجيم يتضرع متضرعكم ، ويبتهل مبتهلكم ونستغفر رب كل مربوب لي ولكم ، ثم قرأ أمير المؤمنين عليه السلام : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » .

هذه خطبة رائعة تعطي صورة واضحة عن مدى القدرة البيانية المعجزة عند علي ، ويقول أنه قد خطب خطبة أخرى بدون نقط ارتجالاً أولها :

الحمد لله الملك المحمود، المالك الودود، مصور كل مولود، وموئل كل مطرود، ساطع المهاد ، وموطد الأطواد ، ومرسل الأمطار ومسهل الأوطار عالم الأسرار ومدركها ، ومـدمر الأملاك ومهلكها ، ومكور الدهور ومكررها ، ومورد الامور ومصدرها ، عم سماحة وكمل ركامه وهمـل ، وطاوع السؤال والأمل وأوسع الرمل وأرمل .

أحمده حمـداً ممدوداً مداه وأوحده كما وحده الأواه ، وهو الله لا إله للامم سواه ، ولا صادع لمـا عدله وسواه ، أرسل محمداً علماً للإسلام وإماماً للحكام مسدداً للرعاع ، ومعطل أحكام ود وسواع علم وعـلم وحكم وأحكم أصل الاصول ومهد وأكد الوعود وأوعد أوصل الله له الاكرام، وأودع روحه السلام ورحم آله وأهله الكرام ما لمع رئال وملع رال وطلع هلال وسمع اهلال .

اعملوا رحمكم الله أصلح الأعمال واسلكوا مصالح الحلال واطرحوا الحرام ودعوه واسمعوا أمر الله دعوه ، وصلوا الارحـام وراعوها وعاصوا الأهواء واردعوها ، وصاهروا أهـل الصلاح والورع ، وصارموا رهط اللهو والطمع ومصاهركم أطهر الاحرار مولداً ، وأسراهم سؤددا وأحلاهم مورداً ، وهـا هو امكم وحل حرمكم مملكاً عروسكم المكرمة وماهر لكم كما مهر رسول الله ام سلمة وهو أكرم من أودع الأولاد، وملك ما أراد وما سها مملكه ولا وهم ولا وكس ملاحمه ولا وصم . اسأل الله لكم احمـاد وصاله ودوام اسعاده ، والهم كلاصلاح حاله والاعداد لمآله ومعاده ، وله الحمد السرمد والمدح لرسوله أحمد .

فهذه معجزة البيان تتمخض على لسان علي بالبديهة التي هي أقوى من الاعداد الطويل من غيره ، لقد سمعنا بصحابة النبي وعرفنا عنهم الشيء الكثير ، ولكن أي واحد منهم لم يملك ما ملكه ، ولم يعط ما أعطى ابن ابي طالب ، ان ذلـك الجيل الذي صنعه القرآن أشرف الأجيال على مسرح التاريخ ، وخلاصة ذلـك الجيل وسره يكمن في علي إذا جمع غرر الصفات المتفرقـة في غيره ، يضاف إلى ذلك ما انفرد به خاصة مما جعله أمام الجميـع .

ويكفي لعلي عظمة أن يكون نهج بلاغته خالداً بخلود الدهر ، إذ لو أدرت النظر فيه ، وجلت في ربوعه بضع جولات لوجدت البلاغة والفصاحة ، ووجدت الكناية والتشبيه ، ووجدت الحقيقة والمجـــاز ، ووجدت البيان والمعاني بكل تشعباتها ، والبديع بجميع أنواعه وأصنافه ، ان من له خــــبرة ببلاغة القرآن وبلاغة العرب يدرك بوضوح وجلاء بلاغة نهج البلاغة وقوة البيان العلوي وعمقه وأدرك إن علياً قد سبق أبناء عصره مما جعل بعض من في قلوبهم غلاً وحسداً ، ولم يقفوا على حقيقة علي من أبناء هذا العصر أن يشككوا في نسبة النهج وانتمائه لعلي إذ كان فيه ما لم يكن في زمان علي ، فقد عجز هؤلاء وصعب الأمر عليهم أن يتخطى علي على من سبقه في الخلافة ، فأنكروا مناقبه ، ولم يعلموا أن هذا النهج كله نمط واحد واسلوب واحد وطريقة واحدة تناسق وسطه مع طرفيه ، وابتداؤه مع منتهاه مع الجزم ، والقطع ان خطب النهج قـد رويت في الكتب المعتبرة قبل وجود والد الرضي جامع النهج بمائتي سنة .

يضاف إلى ذلك ان من تربى على مائدة القرآن ورافق أفصح العرب طيلة وجوده منذ صغره إلى أن قضى حياته مثل ذلك الإنسان لا ينكر عليه مثل ذلك النهج ، وخصوصاً من كان مثل علي الذي جعله النبي باب مدينة علمـــه وأغدق عليه من بيانه وفضله .

علي وعلم النجوم

لقد أسهم الإمام علي عليه السلام في جميع العلوم الإنسانية ، واعتقادنا بإمامته يقودنا إلى القول بأنه أعلم الامة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، ليس في الكتاب والسنة فحسب ، بل في سائر العلوم الاخرى .

وهذا الاعتقاد بتفوّقه على جميع الناس وفي سائر الميادين المختلفة قد يبدو عند بعضهم انه أمر يعوزه الدليل والبرهان ، ولكن الأدلة متضافرة والبراهين متعددة ومختلفة ، وقد أثبت الشيعة ذلك في كتبهم الكلامية والعقائدية ، وقد أقرّ بأعلميته الصحابة جميعاً ، وأفصح النبي صلى الله عليه وآله عن ذلك حيث جعله أقضى أمته وباب مدينة علمه ، وقد مرّت بعض الكلمات من الصحابة والتابعين التي اعتُرِف فيها انه أعلم الامة بعد النبي ، ثم ان الأحداث التي جرت والسنين التي مرّت في حياة الإمام كشفت عن ذلك بشكل واضح لا غموض فيه ، حتى قال الخليل بن أحمد الفراهيدي مؤسس علم العروض، وقد سئل عن الدليل على إمامة علي ، فأجاب : « احتياج الكل إليه واستغناؤه عن الكل دليل إمامته » .

ونحن عندما نتعرض إلى بعض هذه المتفرقات من العلوم المختلفة ، فإنما نقصد بذلك بيان سعة علم الإمام وإلمامه ببراعة وتفوّق بجميع العلوم على اختلافها وتعدُّدها ، وليس مقصودنا هو استيعاب جميع المفردات التي وقعت للإمام

وخاض في عبابهـــا وبيّن معضلاتها ، فإن ذلك لا يتأتى في كتاب بل لا بد له من مجلدات .

وليست هـذه الشواهد التي نطرحها على هذه الصفحات وليدة اليوم أو من مستحدثاته ، بل نقلتها كتب السيَر والتاريخ التي دوّنت في الصدر الأول والتي مضى على تأليفها مئات السنين ، ولم تنقلها كتب الإمامية فحسب ، بل نقلهـــا المخالف والمؤالف والشيعي والمعاند،وهذا بنفسه يثبت صحتها ووقوعها إذ كانت مورد الاتفاق وملتقى الكلمات .

لم نطرح سعة علم الإمام بحيث يشمل هـذه المتنوعات من العلوم ، إلا لنبيّن ان علياً في العلم كان أحد رجلين : إما مبدعاً ومنشئاً له أو سابقاً ومتفوقاً على كل من ادّعى المهارة والتفوق فيه .

وقد كان علم النجوم علماً ذا أهمية انفرد به قليل من الناس ، وكان المنجم قبل ظهور الإسلام عنـد بعض المجتمعات تتخذه الملوك ، فكان هو الذي يوقت للحرب فيدفعهم لخوضها أو الكف عنها ، ولكن بعد أن جاء الإسلام ألغى كل تلك الامور ، فحرّم التنجيم المعطل لفاعلية الله وقدرته وهيمنته على الامور ، فلذا روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : مَن صدّق منجّماً أو كاهناً فقـــد كفر بما أنزل الله على محمد . وما ورد عن الصادق عليه السلام حيث قال : إن المنجّم ملعون والساحر ملعون . وما ورد في نهج البـــلاغة من كلام للإمام عليه السلام قاله لبعض أصحابه لما عزم على المسير الى الخوارج ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إن سرتَ في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم ، فقال عليه السلام : أتزعم انك تهدي الى الساعة التي من سار فيها صرف السوء ، وتخوّف من الساعة التي من سار فيها حاق به النصر ؟ فمن صدّق بهذا فقد كذّب القرآن واستغنى عن الإعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه ، وتبتغي في قولك للعامل بأمرك أن يوليك الحمـد دون ربك ، لأنك بزعمك أنت هديته الى الساعة التي نال فيها النفع وأمنَ الضرّ .

ثم أقبل عليه السلام على الناس [1] فقال : أيها الناس ، إياكم وتعلّم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر ، فإنها تدعو إلى الكهانة ، المنجم كالكاهن، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر في النار .. سيروا على اسم الله .

فلا يجوز للمسلم أن يتعلم من التنجيم إلا ما يفيد أو يرد به غائلة المنجمين الذين يدّعون سبقهم وأعلميتهم أو يقصدون تضليل الناس عن الطريق الحق. وقد ردّ الإمام على بعض المنجمين – غير المسلمين – الذين لم يدخل نور الإيمان إلى قلوبهم فاضطرّ إلى مباراتهم وردّهم كي يوقفهم على أخطائهم ، وإنهم – إن عرفوا بعض ذلك – فإن الفائدة منه لا تدرك إلا بالإحاطة به إحاطة تامة ، وهـذا متعذر على الناس ، والمعرفة الناقصة تسبب التعطيل والتوقف عن النشاط والحركة .

قال سعيد بن جبير : استقبل دهقان أمير المؤمنين عليه السلام من المدائن فقال : تناحست النجوم الطالعات وتناحست السعود بالنحوس ، فإذا كان مثل هـذا اليوم وجب على الحكيم الاختفاء، ويومك هذا يوم صعب قد اقترن فيه كوكبان وانكفأ فيه الميزان وانقدح من برجك النيران وليس الحرب لك بمكان .

فقال عليه السلام : أيها الدهقان المنبىء بالآثار المخوف من الأقدار ، ما كان البارحة صاحب الميزان ؟ وفي أي برج كان صاحب السرطان ؟ وكم الطالع من الأسد والساعات في الحركات ؟ وكم بين السراري والزراري ؟

فقال الدهقان : سأنظر في الاسطرلاب .

فتبسّم عليه السلام وقال له : ويلك يا دهقان ! أنت مسيّر الثابتات أم كيف تقضى على الجاريات ؟ وأين ساعات الأسد من المطالع وما الزهرة من التوابع والجوامع ؟ وما دون السراري المحركات وكم قدر شعاع النيرات وكم التحصيل بالغدوات ؟

---

(١) نهج البلاغة ، ج ١ ص ٧٦ .

فقال الدهقان : لا علم لي بذلك .

فقال عليه السلام : هل نتج علمك أن انتقل بيت ملك الصين واحترقت دور الزنج وخمد بيت فارس وانهدمت منارة الهند وغرقت سرانديب وانخفض حصن الأندلس ؟..

إلى أن قال : قال عليه السلام : البارحة سعد سبعون ألف عالم وولد في كل عالم سبعون ألفاً والليلة يموت مثلهم ، وهذا - وأومى بيده إلى سعد بن مسعدة الحارثي وكان جاسوساً للخوارج في عسكره فظنّ انه يقول خذوه فأخذ بنفسه فمات - منهم ، فخرّ الدهقان ساجداً .

إلى أن قال : ثم قال عليه السلام : نحن ناشئة القطب وأعلام الفلك ، أما قولك انقدح في برجك النيران ، فكان الواجب أن تحكم به لي لا عليّ ، أما نوره وضياؤه فعندي ، وأما حريقه ولهبه فيذهب عني ، وهذه مسألة عميقة احسبها إن كنت حاسباً .

فقال الدهقان : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنك وليّ الله.

فهذه واقعة ولها نظائر وأشباه كثيرة ، فمن هو الذي لقّن الإمام هذا العلم ولم يذكر في التاريخ ان تتلمذ على يد أحد غير استاذه رسول الله؟ ومن أية مدرسة تخرّج وبأية ملكة استطاع الإحاطة والتفوق؟ إنها أسئلة لا تجد جواباً إلا القول بأن علياً كان مدينة علم النبي ، فعلمه مشتق من ذلك المصدر الإلهي والعلم اللدني الذي أفاضه الله على رسوله وتلقّاه علي منه .

---

(١) قضاء أمير المؤمنين للتستري ، ص ١٣٤ .

علي والطاقة الكهربائية

روي أن الإمام عليه السلام عندما مرّ بالفرات وقد رأى تدفق مائه قال : لو شئت لاستخرجت من هذا ناراً .

هذا فتح علمي لم يقف الناس عليه إلا في القرن العشرين ، لقد أدركه العقل البشري بعد تطواف كثير وأتعاب وجهود مضنية قدم خلالها العرق والدماء والدموع ، إن هذا الفتح العلمي لم يكن وليد الصدف العشوائية التي يرجع إليها العاجزون ، وإنما كلف حصوله الكثير من المشقات ولم يحصل إلا بعد مرور أزمان كثيرة ، وهو بعد ذلك يعتبر من أهم الاكتشافات وأحسنها خدمة للبشرية .

هذا الاكتشاف العلمي قد سبق إليه الإمام علي وبشّر به قبل أربعة عشر قرناً من الزمن ، ولكن اولئك الذين عاشوا مع علي وفي زمنه لم يكن عندهم القابلية التي تستوعب هذا الاكتشاف ، ولا شك أن كثيرين منهم ممن لم يقف على إمامة علي قد استهزأ من هذا الكلام ، وكثيرون منهم قد توجّسوا ريبة من هذه الدعوة التي يدّعيها بإخراج النار من الماء .

إن علياً قد وُلد لكل الأزمنة ، فهو الخالد الذي عطّر وجوده هذا الكون ، إنه كان يقف بين الجموع ويقول لهم : سلوني قبل أن تفقدوني ، فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض ، ولكن مع هذا الإلحاح منه والتأكيد على أن يسألوه ، فإنهم يحجمون ولا يقدمون ، إنهم أناس لم يعيشوا العقلية التي تسمح لهم بهذا

التفكير ، وكم كان يحزّ في نفس علي أن يقول سلوني فلا يجد سائلاً ، وإن وجد فإنما يجد اللؤم والخبث ممن انحرفت نفوسهم وضلّت قلوبهم ، إنه يقول سلوني قبل أن تفقدوني، فيقوم رجل من تحت منبره ليقول له : أخبرني بما في رأسي[1] ولحيتي من طاقة شعر ؟ مـــا أسخفه من سؤال ! إنه يتضمن أشد الاستفزاز والاستهزاء ، إنه سؤال وليد النفاق والانحراف .. ويجيبه الإمام : والله لقـد حدثني خليلي ان على كل طاقة شعر من رأسك ملكاً يلعنك، وان على كل طاقة من لحيتك شيطاناً يغويك ، وان في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله ﷺ ، وكان ابنه قاتل الحسين عليه السلام يومئذٍ يحبو ، وهو سنان بن أنس النخعي .

ومرة اخرى يقف عليه السلام على أعواد منبره ويقول : لو كسرت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم ، وما من آية من كتاب الله أنزلت في سهل أو جبل إلا وأنا عالم متى نزلت وفيمن نزلت .

وبدلاً من أن يعرض الناس مشاكلهم على الإمـــام ويقفوا منه على الحلول الناجعة المفيدة ، يقف أحدهم من تحت منبره قائلاً : يا لله والدعوى الكاذبة ! ويقف الآخر [2] في الطرف المقابل ليقول له : أشهد أنك أنت الله رب العالمين !

إنها الكلمات الشاذة التي ضلّت عن الحقيقـــة ، فتاهت بين الإفراط تارة والتفريط اخرى ، ولم يقفوا على حقيقة علي وجوهره .

---

(١) ابن أبي الحديد ، ج ٢ ص ٢٨٦ .
(٢) » » » ج ٥ ص ٤٣٦ .

حكم البغــاة عند علي

لم تجرِ قبل خلافة الإمام علي عليه السلام حروب بين أهل القبلة ، إذ لم يحدث ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا في عهـــد الخلفاء الثلاثة ، إذ كانت جميع الحروب التي خاضها النبي والخلفاء كانت بين المسلمين والكافرين ،وقد أوضح النبي حكمها وبيّن معالمها بشكل واضح لا غموض فيه ولا شبهة .

وأما في زمن علي فقد كانت الحرب بين المسلمين أنفسهم ، بين اولئك الذين لزموا الخلافة الشرعية الراشدة بقيادة الإمام علي ، وبين اولئك الخارجين على سلطان هذه الخلافة من الناكثين والقاسطين والمارقين ، وقد اتضحت معالم الحق وهي أكبر من أن تخفى ، فقد كان علي رمز الحق وقطب رحاه ، وقــد أخبر النبي عن هذا بقوله : « علي مع الحق والحق مع علي » .

وهذه الحرب قد أخبر النبي بها – كما في مناقب البغوي وغيره – حيث قال لأصحابه : إن منكم مَن يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلتُ على تنزيله .

فقال أبو بكر : أنا هو .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : لا .

فقال عمر : أنا هو .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : لا ، ولكن خاصف النعل – وكان علي عليه السلام قد أخـذ نعل

النبي يخصفها – . وها هي الحرب تدقّ أبواقها بين المسلمين،ويقوم الإمام ليقاتل على تأويل القرآن طبقاً لما أخبر به النبي، فكانت حروبه الثلاثة التي استغرقت أيام خلافته من يومها الأول إلى آخر يوم من حياته ، وقـــد انتصر فيها جميعاً وبيّن بسيرته وحكمه فيهم حكم المخالفين إلى يوم الدين .

قال الصادق عليه السلام : كان في قتال علي عليه السلام أهل القبلة بركة ،ولو لم يقاتلهم علي لم يدرِ أحد بعده كيف يسير فيهم .

وقد ورد في مناقب ابن طلحة الشافعي : أخذ المسلمون [1] السيرة في قتال المشركين من النبي صلى الله عليه وآله ، وأخذوا السيرة في قتال البغـــاة من علي عليه السلام ، وكان حكم الإمام فيهم هو التفصيل بين من كان له فئة يرجع إليها وبين من لم يكن له فئة ، فقد قال لأصحابه يوم الجمل: لا تتبعوا مولياً ولا تجهزوا على جريح ومن أغلق بابه فهو آمن .. بينما في يوم صفين ُقتل المقبل والمدبر وأجهز على الجريح . فهاتان سيرتان مختلفتان للنكتة التي ذكرناها ، وهي ان أهل الجمل ليس لهم فئة يرجعون إليها وإنما هم بأعيانهم مستهدفون ، بينما كان لأهل صفين فئـة يعودون إليها إذا تركوا .

---

(١) قضاء أمير المؤمنين للتستري ، ص ٢٤٠ .

الإمام والرياضيات

جلس رجلان يتغذيان مع أحدهما خمسة أرغفة[1]، ومع الآخر ثلاثة أرغفة، فلما وضعا الغذاء بين أيديهما مر بهما رجل فسلم فقالا: اجلس للغذاء، فجلس وأكل معهما واستوفوا في أكلهم الأرغفة الثمانية، فقام الرجل وطرح إليهما ثمانية دراهم وقال: خذا هذا عوض مما أكلت لكما ونلته من طعامكما، فتنازعا وقال صاحب الخمسة الأرغفة: لي خمسة دراهم ولك ثلاثة، فقال صاحب الثلاثة الأرغفة: لا أرضى إلا أن تكون الدراهم بيننا نصفين، وارتفعا إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقصا عليه قصتهما، فقال لصاحب الثلاثة الأرغفة: قد عرض عليك صاحبك ما عرض، وخبزه أكثر من خبزك فارضى بثلاثة.

فقال: لا والله لا رضيت منه إلا بمر الحق، فقال علي رضي الله عنه: ليس لك في مر الحق إلا درهم واحد وله سبعة، فقال الرجل: سبحان الله يا أمير المؤمنين هو يعرض علي ثلاثة فلم أرضى، وأشرت علي بأخذها فلم أرض، وتقول لي الآن: أنه لا يجب في مر الحق إلا درهم واحد، فقال له علي: عرض عليك صاحبك الثلاثة صلحاً، فقلت: لم أرض إلا بمر الحق، ولا يجب لك بمر الحق إلا واحد.

---

(١) الاستيعاب ج ٢ ص ٤٦٢.

فقال الرجل : فعرفني بالوجه في مر الحق حتى أقبله .

فقال علي رضي الله عنه: أليس للثمانية أرغفة أربعة وعشرون ثلثاً أكلتموها وأنتم ثلاثة أنفس ، ولا يعلم الأكثر منكم اكلا ، ولا الأقـل فتحملون في أكلكم على السواء .

قال : بلى .

قال : فأكلت أنت ثمانية ، وإنمـــا لك تسعة أثلاث ، وأكل صاحبك ثمانية أثلاث وله خمسة عشر ثلثاً ، أكل منها ثمانية ويبقى له سبعة ، وأكل لك واحدة من تسعة ، فلك واحد بواحدك وله سبعة بسبعة .

فقال له الرجل : رضيت الآن .

ذكر الشيخ التستري في كتابه (قضاء أمير المؤمنين عليه السلام) قال :

دخل يهودي على علي عليه السلام وقال: أخبرني عن عدد يكون له نصف وثلث وربع وخمس وسدس وسبع وثمن وتسع وعشر ، ولم يكن فيه كسر فقال علي عليه السلام : إن أخبرتك تسلم ؟

فقال : نعم .

فقال عليه السلام : أضرب ايام اسبوعك في سنتك ، فكان كما قال ، فلما تحققت المسألة وصحتها ، ولم يكن فيها كسر أسلم .

إن ضرب ايام الاسبوع السبعة في ثلاثمـاية وستين ايام السنة ، يصير الحاصل الفين وخمسمائة وعشرين وله الكسور التسعة النصف، وهو الف ومائتان وستون والثلث وهو ثمانمائة وأربعون، والربـع ستمائة وثلاثون ، والخمس خمسمائة وأربع، والسدس أربعمائة وعشرون ، والسبـع ثلاثمائة وستون ، والثمن ثلاثمـائة وخمسة عشر ، والتسع مائتان وثمانون ، والعشر مائتان واثنان وخمسون .

الإمام علي وعلم النحو

وأما علم النحو فهو الذي فتق كنزه وأبان معدنه ، وأسدى للغة العربية أنصع الأيادي وأعظمها ، وقدم لها أوفر خدمة وأحسن معروف ، فهو المؤسس لهذا العلم والمبين ركائزه وقواعده ، فقد ذكر الزجاج في أماليه عن أبي الأسود الدؤلي قال : دخلت على علي بن أبي طالب فرأيته مطرقاً مفكراً ، فقلت : فيما تفكر يا أمير المؤمنين ، قال : إني سمعت ببلدكم هذا لحناً ، فأردت أن أصنع كتاباً في أصول العربية ، فقلت : إن فعلت هذا أحييتنا وبقيت لنا هذه اللغة ، ثم أتيته بعد ثلاث ، فألقى إليّ صحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل ، ثم قال لي : تتبعه وزد فيه ما وقع لك ، واعلم يا أبا الأسود إن الأشياء ثلاثة : ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر ،وإنما تتفاضل العلماء فيمعرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر.

قال أبو الأسود: فجمعت منه أشياء وعرضتها عليه، فكان من ذلك حروف النصب ، فذكرت فيها إن وأن وليت ولعل وكأن ولم أذكر لكن ، فقال لي : لم تركتها ، فقلت : لم أحسبها فيها ، فقال : بل هي منها فزدها فيها .

علـــي والقضاء

لقــد امتاز علي عليه السلام بقدرة فائقة النظير في الكشف عن الامور الغامضة التي لا يستطيـع أن يلتفت إليها إلا من أوتي من أطراف الإمامة حظاً ونصيباً ، فإنــه عليه السلام أبان أموراً يقف الإنسان أمامها متحيراً مطرقاً ، لا يهتدي وجهها ولا يعرف كيف المخرج منها ، ولقد توصل للكشف عن ذلك باسلوب يدع الجاني يعترف ويقر بما اقترف وارتكب ، وهـــذه صفة قد فقدت في الخلفاء المتقدمين عليه إذ رب حكم أبسط من ذلك ، قد عجز القوم عن كشفه، فكيف بك إذا كانت الامور مشتبهة ومختلطة ، كيف يكون حكمهم وبيانهم ، فـإن القوم إذا كانوا لا يهتدون إلى ما هو المراد من كتاب ربهم ، وقد نزل والنبي بين أظهرهم فوقفوا حائرين مضطربين .

فمثلاً سُئِل أبو بكر عن قوله تعالى [1] : (وفاكهة وأبا) فقال : أي سماء تظلني أو أي أرض تقلني ؟ إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم .

فإذا كان خليفة المسلمين لا يعرف كلمة (الأب) من قرآن ربه و كتاب نبيه وقد عاصر رسول الله وعاش ايام تنزيل هذا الكتاب العظيم ، فكيف يستطيع أن يحل سائر مـــا يعترض سبيله من المشاكل والامور التي تحدث في مجتمع يمتد

---

(١) الكشاف وابن كثير في تفسيريهما .

طولاً وعرضاً ، ويقع فيه من الأحداث والشؤون ما لا يحصى .

ويُسأل مرة أخرى عن قوله تعالى [1] : (يستفتونك ، قل الله يفتيكم في الكلالة ان امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف ما ترك) ، فقال : إني سأقول فيها برأي ، فإن يك صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه ، أراه ما خلا الولد والوالد ، فلما استخلف عمر قال : إني لاستحي الله أن أرد شيئاً قاله ابو بكر .

فهذه نماذج أقدمها بين يدي القارىء الكريم ، وهي نماذج بسيطة جداً يعرفها كل عربي له أدنى المام بهذه اللغة العظيمة ، وهذا البيان المبين .

وأما عمر فدعنا عن هفواته ، فله مقامات لا يحسد عليها ، فقد تكون قضية واحدة يتكرر منه الحكم فيها بأشكال مختلفة وصور متنوعة .

يقول ابن أبي الحديد : كان عمر يفتي كثيراً بالحكم ، ثم ينقضه ويفتي بضده وخلافه ، قضى في الجد مع الاخوة قضايا كثرة مختلفة ، ثم خاف من الحكم في هذه المسألة فقال : من أراد أن يتقحّم جراثيم جهنم فليقل في الجد برأيه .

هذه هي براعة الخليفة حكم بشيء ثم نقضه وأفتى بضده ، ثم وقف وكأن ليس للإسلام رأي في هذه المسألة ، ولا للشريعة مجال فيها ، ما أعظم الامور وأشدّ الخطب ، أن يستولي على رقاب الناس ويتقدم للسياسة ، غير ابن أبي طالب الذي كان يقول : (سلوني قبل أن تفقدوني) .

صلوات الله عليك يا أمير المؤمنين ، لو كان لغيرك بعض مالك من الصفات والمؤهلات لوضعوه في درجة الأنبياء والمرسلين .

لقد أوتي الإمام عليه السلام قدرة فذة جعلته إماماً للناس ومثلاً أعلى ، تطمح البشرية نحو ذروته ، تترسم خطاه وتهتدي بنهجه ، وتسير وفق سلوكه للوصول

---

(١) الغدير .

إلى شاطىء الأمان دون كبوة أو عثرات ، وقــد أوضح ما أشكل على الناس وبـيّن لهم ما اختلط عليهم ، فأذعن الجميع له دون استثناء حتى أضحى الحلال لكل المشاكل التي تعترض سبيل البشرية ، ولا يمكننا أن نستوعب كل تلك الأقضية التي قضى بها أمير المؤمنين،وكل المشاكل التي فصلها وحلها وبـيّن أحكامها فإن ذلك يتطلب كتاباً مستقلاً ، وقــد وضع علماؤنا الأبرار رضوان الله عليهم كتباً خاصة تناولت هذا الموضوع جملة وتفصيلاً ، ولكن كما يقول الفقهاء : (ما لا يدرك كله لا يترك كله) . فلذا نقتصر على المامة سريعة كنموذج يقدم وعنوان نستلهم منه المقدرة الفائقة لهذا الإمام العظيم .

اضرب رقبة العبد منهما :

إن رجلاً أقبل على عهد علي عليه السلام من الجبل حاجاً ومعه غــلام له فأذنب فضربه مولاه فقال : مــا أنت مولاي بل أنا مولاك ، فما زال ذا يتوعد ذا وذا يتوعد ذا ويقول : كما أنت حتى نأتي الكوفة يا عدو الله ، فاذهب بك إلى أمير المؤمنين ، فلما أتيا الكوفــة أتيا أمير المؤمنين عليه السلام فقال الذي ضرب الغلام : أصلحك الله هذا غلام لي ، وأنه أذنب فضربته فوثب عليّ ، وقال الآخر : هو والله غلام لي ، إن أبي أرسلني معه ليعينني ، وأنه وثب عليّ يدعيني ليذهب بمالي فأخذ هذا يحلف وهذا يكذب هذا ، وهذا يكذب هذا ، فقال الإمام : انطلقا فتصادقا في ليلتكما هذه ، ولا تجيئاني إلا بحق ، فلما أصبح أمير المؤمنين عليه السلام قال لقنبر : أثقب في الحائط ثقبين ، واجتمع الناس فقالوا : لقــد وردت عليه قضية ما ورد عليه مثلها ، لا يخرج منها ، فقال لهما : ما تقولان فحلف هــذا ، إن هذا عبده ، وحلف هذا إن هــذا عبده ، فقال لهما : قوما فإني است أراكما تصدقان ثم قال لأحدهما :

أدخل رأسك في هذا الثقب ثم قال للآخر : أدخل رأسك في هذا الثقب ثم قال: يا قنبر علي بسيف رسول الله عجّل اضرب رقبة العبد منهما، عندها أخرج

الغـــلام رأسه مبادراً ، ومكث الآخر في الثقب ، فقال عليه السلام للغلام : ألست تزعم أنك لست بعبد ؟ فقال : بلى ، ولكن ضربني وتعدى عـــليّ ، فتوثق له أمير المؤمنين عليه السلام ودفعه إليه .

إنها قضية استطاع الإمام فيها كشف الحقيقة ، إنها مسألة نفسية استطاع بها علي أن يدخل إلى صميم النفس الإنسانية التي تظهر فيها الحقيقة في لحظة من لحظات غفلتها . أين هو الإنسان الذي أعطى هذه العبقرية المتفتحة كي يعرف وجه الحق فيها ، فهل اعطي أحد من الناس مثل هذه النظرة الكبيرة التي بها يستطيع أن يحـــق الحق ويبطل الباطل . إن علياً وريث النبي الوحيد الذي بقضائه يكون فصل الحق وعلى يديه تسترجع الحقوق وتحفظ الأموال والأنفس والفروج .

لقد أوتي الإمام المعية وذكاء ، بل إلهاماً لا يقف دونه قضية ، فقد كان إذا توجه إلى مشكلة حلها بسرعة البرق ، وجاءت كفلق الصبح ، وقد كشف النبي عن ذلك بقوله : (أقضاكم علي) .

الله أكبر :

دخل أمير المؤمنين عليه السلام المسجد فاستقبله شاب يبكي وحوله قوم يسكنونه .

– فقال علي ما أبكاك ؟

– فقال : يا أمير المومنين إن شريحاً قضى عليّ بقضية ما أدري ما هي إن هؤلاء النفر خرجوا بـــأبي معهم في سفر ، فرجعوا ولم يرجع أبي فسألتهم عنه ، فقالوا : مات ، فسألتهم عن ماله ، فقالوا : مـــا ترك مالاً ، فقدّمتهم إلى شريح فاستحلفهم ، وقد علمتُ يا أمير المؤمنين إن أبي خرج ومعه مال كثير .

– فقال لهم أمير المؤمنين : ارجعوا ، فرجعوا والفتى معهم إلى شريح .

فقال له أمير المؤمنين : يا شريح كيف قضيت بين هؤلاء ؟

فقال : يا أمير المؤمنين إدعى هذا الفتى على هؤلاء النفر إنهم خرجوا في سفر

وأبوه معهم ، فرجعوا ولم يرجع أبوه ، فسألتهم عنه فقالوا : مات ، فسألتهم عن ماله فقالوا : ما خلف مالاً ، فقلت للفتى : هل لك بينة على ما تدعي ؟

فقال : لا ، فاستحلفتهم ، فقال أمير المؤمنين : والله لأحكمن فيهم بحكم ما حكم به قبلي إلا داود النبي .

– يا قنبر أدع لي بشرطة الخميس ، فدعاهم فوكل لكل رجل منهم رجـلاً من الشرطة ، ثم نظر إلى وجوههم فقال : ماذا تقولون ، أتقولون إني لا أعلم مـــا صنعتم بأبي هذا الفتى ؟ إني إذاً لجاهل .

ثم قال فرّقوهم وغطّوا رؤسهم ، َففُـرّق بينهم وأقيم كل رجل منهم إلى اسطوانة – عمود – من أساطين المسجد ورؤوسهم مغطاة بثيابهم .

ثم دعـا عبيد الله بن أبي رافع كاتبه فقال : هات صحيفة ودواة ، وجلس أمير المؤمنين في مجلس القضاة ، وجلس الناس إليـه فقال لهم : إذا أنا كـبّرت فكـبّروا ، ثم قال للناس : اخرجوا ، ثم دعا بواحد منهم فأجلسه بـــين يديه وكشف عن وجهه ، ثم قال لعبيدالله بن أبي رافع : أكتب إقراره وما يقول ، ثم أقبل عليه بالسؤال .

فقال له أمير المؤمنين: في أي يوم خرجتم من منازلكم وأبو هذا الفتى معكم.

فقال الرجل : في يوم كذا وكذا .

قال : وفي أي شهر ؟

قال : في شهر كذا وكذا .

قال : وفي أي سنة ؟

قال : سنة كذا وكذا .

قال : وإلى أين بلغتم في سفركم حتى مات أبو هذا الفتى ؟

قال : إلى موضع كذا وكذا .

قال : وفي منزل من مات ؟

قال : في منزل فلان بن فلان .

قال : وما كان مرضه ؟

قال : كذا و كذا .

قال : وكم يوماً مرض ؟

قال : كذا و كذا .

قال : ففي أي يوم مات ومن غسله ومن كفنه؟ وبم كفنتموه ومن صلى عليه؟ ومن نزل في قبره . فلما سأله عن جميع ما يريد كبّر أمير المؤمنين عليه‌السلام و كبّر الناس جميعاً ، فارتاب اولئك الباقون ولم يشكّوا أن صاحبهم أقر عليهم وعلى نفسه ، فأمر أن يغطى رأسه وينطلق به إلى السجن ، ثم دعا بآخر فأجلسه بين يديه و كشف عن وجهه .

وقال أمير المؤمنين : كلا زعمتم إني لا أعلم ما صنعتم ؟

فقال الثاني : يا أمير المؤمنين ما أنا إلا واحد من القوم ، وقد كنت كارهاً لقتله فأقر ، ثم دعا بواحد بعد واحد كلهم يقر بالقتل ، وأخذ المال ثم ردّ الذي أمر به إلى السجن ، فأقر ايضاً فألزمهم المال والدم .

إن هذه القضية إحدى قضايا علي التي كشف وجه الحق فيها ، وقد استعمل فيها كتابة الإقرار واخذه من المتهم ، وهذا باب قد فتحه علي ، فكان اول الرواد الذين ارادوا تحقيق العدالة وبسط نفوذ الحق بأي الطرق والسبل كان .. إنه اسلوب من اروع اساليب احقاق الحق والكشف عن وجه القضية الكامل.. فإن كان القوم صادقين فيما يدعون فستتوافق شهاداتهم وأقوالهم ، وإلا فستختلف وتتباين ، وعندها تكشف الجريمة ويتضح الصبح لذي عينين .

واكتفي بذكر هذا من قضاء علي ، ومن أراد المزيد من ذلك ، فما عليه إلا أن يعود إلى كتاب (قضاء أمير المؤمنين) لشيخنا التستري ، فإن فيه الكثير من الامور المشكلة والقضايا المعقدة التي حلها الإمام ، وأبان حقيقتها كما هي .

عــــلي وعلم الغيب

إن لأمير المؤمنين عليه السلام مميزات لم يُكتـَب لأحـد مثلها ، فقد صدرت منه امور هي أكبر من أن تفسر بشكل اعتيادي ، إنها خوارق للعـادة أظهرها الله على يديه كي يظهر فضله وسموّه للملأ ويتضح تقدمه وأسبقيته على الناس جميعاً ، فأخبر بامور هي في طيّات الغيب مما خبّأه المستقبل ، فأتت وكأنها فلق الصبح اصدقت ما أخبر به الإمام وكأنها حوادث مشاهدة له طابقت إخباره دون زيادة أو نقصان .

وهـذا الإخبار منه بهذه المغيبات بأي شكل فسّر فإنه يعطيه رقماً جديداً وامتيازاً وتقدماً على سائر المسلمين ، إذا ضممناه إلى بقية متفرداته تؤهله بأجمعها إلى القيـادة الإسلامية وتقدمه على جميع المسلمين الذين لم تشفع لهم كبر أعمارهم ومشيختهم أن يشاركوه في جزء منها .

ونحن نسرد بعض تلك الحوادث دون أن نلمّ بها جميعاً ، إذ نحتاج إلى كتاب مستقل لو أردنا استقصاء ذلك وجمعه .

١ ــ لقد أخبر الإمام عليه السلام بما يجري على بعض أصحابه من القتل،فقد أخبر بقتل (ميثم التمار) والصورة التي يتم بها استشهاده .

ففي رواية أن ميثم التمار كان عبداً لامرأة من بني أسد، فاشتراه أمير المؤمنين

عليه‌السلام منها وأعتقه وقال له ذات يوم : إنك تؤخــذ بعدي فتُصلب وتُطعَن بحربة ، فإذا كان اليوم الثالث ابتدر منخراك وفمك دماً فتخضب لحيتك فانتظر ذلك الخضاب وتصلب على باب دار عمرو بن حريث عاشر عشرة أنت أقصرهم خشبة وأقربهم من المطهرة وامضِ حتى أُريك النخـلة التي تُصلب على جذعها ، فأراه إياهـــا ، وكان ميثم يأتيها فيصلي عندها ويقول : بوركتِ من نخلة لكِ خلقتُ [1] ولي غذّيتِ .

ولما كان زمن عبيدالله بن زياد أُدخل عليه فقال له ابن زياد : أين ربك ؟

قال ميثم : بالمرصاد لكل ظالم وأنت أحد الظلمَة .

قال ابن زياد : إنك على عجمتك لتبلغ الذي تريـــد . ثم قال : أخبرني ما أخبرك صاحبك اني فاعل بك .

قال ميثم : أخبرني أنك تصلبني عــاشر عشرة أقصرهم خشبة وأقربهم إلى المطهرة ، وأنا أول خلق الله أُلجم في الإسلام .

قال ابن زياد : لنخالفنه .

ولكن مشيئة الله أبَتْ أن يخالف الدّعيّ ما أخبر به الإمام ، فقـــد امر بصلب ميثم في نفس المكان الذي أشار إليه أمير المؤمنين على نفس الجذع ، وبعد أن رفعوه على الخشبة أخذ يحدّث بفضائل بني هاشم .

فقيل لابن زياد : قد فضحكم هذا العبد .

فقال : الجموه ، وكان أول خلق الله أُلجم في الإسلام .

ورُويت قصة استشهاد هـــذا الثائر بشكل آخر ، أرويها لتكون شاهداً وعزماً لصمود الثائرين والمدافعين عن الحق على مدار التاريخ ، وملخّصها :

---

(١) البحار ج ٤٢ ، وابن أبي الحديد ج ٢ ص ٢٩٣ .

ان ابن زياد قـال لميثم : لتبرأنّ من علي ولتذكرنّ مساوئه .. أو لأقطعنّ يديك ورجليك ولأصلبنك .

فبكى ميثم ، فقال ابن زياد : بكيت من القول دون الفعل ؟

فقال ميثم : والله ما بكيت من القول ولا من الفعل، ولكني بكيت من شك كان دخلني يوم أخبرني سيدي ومولاي .

فقال ابن زياد : وما قال لك ؟

قال ميثم : قال لي أمير المؤمنين : والله لتقطعن يداك ورجـــلاك ولسانك ولتصلبنّ .

قال ابن زياد : والله لأقطعن يديك ورجليك ولأدعنّ لسانك حتى اكذبك واكذب مولاك .. فأمر به فقطعت يداه ورجلاه ثم اخرج وامر به أن يصلب، فنادى بأعلى صوته : أيها الناس، مَن أراد أن يسمع الحديث المكنون عن علي بن أبي طالب ؟ فاجتمع الناس وأخذ يحدّثهم ، وبينما هو كذلك إذ خرج عمرو بن حريث وهو يريد منزله فقال : ما هذه الجماعة ؟ قيل : ميثم التمار يحدّث الناس عن علي بن أبي طالب ، فانصرف مسرعاً فقـال لابن زياد : أصلح الله الأمير ، بادر فابعث إلى هذا مَن يقطع لسانه،فإني لست آمن أن تتغير قلوب أهل الكوفة فيخرجوا عليك .

فالتفت ابن زياد عندها إلى حرسي فوق رأسه قائلاً له:اذهب فاقطع لسانه .

قال : فأتاه الحرسي وقال له : يا ميثم، قال : ما تشاء ؟ قال : اخرج لسانك فقد أمرني الأمير بقطعه .

قال ميثم : ألا زعم ابن الامة الفـــاجرة انه يكذبني ويكذب مولاي ؟! فقطع لسانه ...

٢ – وأخبر الإمام كذلك باستشهاد رشيد [١] الهجري ، حيث روى زياد ابن النصر الحارثي قال : كنت عند زياد إذ أُتي برشيد الهجري فقال له زياد : ما قال لك صاحبك – يعني علياً عليه السلام – أنا فاعلون بك ؟ قال : تقطعون يدي ورجلي وتصلبونني ، فقال زياد : أما والله لاكذبن حديثه ، خلوا سبيله ، فلما أراد أن يخرج قال زياد : والله ما نجد شيئاً شراً مما قاله له صاحبه ، اقطعوا يديه ورجليه واصلبوه .

فقال رشيد: هيهات! قد بقي لي عندكم شيء أخبرني به أمير المؤمنين عليه السلام.

فقال زياد : اقطعوا لسانه .

فقال رشيد : الآن والله جاء التصديق لأمير المؤمنين .

٣ – ومنها : أن الحجاج بن يوسف الثقفي قال ذات يوم : احب أن اصيب رجلاً من أصحاب أبي تراب فأتقرّب إلى الله بدمه ، فقيل له : ما نعلم أحداً كان أطول صحبة لأبي تراب من قنبر مولاه ، فبعث في طلبه فأتي به فقال له :

أنت قنبر ؟

قال : نعم .

قال : أبو همدان ؟

قال : نعم .

قال : مولى علي بن أبي طالب ؟

قال : الله مولاي وأمير المؤمنين علي وليّ نعمتي .

قال : ابرأ من دينه .

قال : فإذا برئت من دينه تدلني على دين غيره أفضل منه ؟

---

(١) البحار ج ٤٢ ص ١٢٥ ، وابن أبي الحديد ج ٢ ص ٢٩٤ .

قال : إني قاتلك فاختر أية قتلة أحب إليك .

قال : قد صيَّرت ذلك إليك .

قال : ولِمَ ؟

قال : لأنك لا تقتلني قتلة إلا قتلتك مثلها، وقد أخبرني أمير المؤمنين عليه السلام أن ميتتي تكون ذبحاً ظلماً بغير حق .

قال : فأمر به فذبح .

٤ – ومنها ما حدّث به هرثمة بن سليم قال : غزونا مع علي بن أبي طالب غزوة صفين ، فلما نزلنا بكربلاء صلى بنا صلاة ، فلما سلم رفع إليه من تربتها فشمّها ثم قال : واهاً لكِ أيتها التربة ، ليحشرنَّ منكِ قوم يدخلون الجنة بغير حساب .

وبُهر هرثمة وظلَّ حديث الإمام يراوده في كل فترة ، وكان منكراً له ، فلما رجع إلى زوجته جرداء بنت سمير ، وكانت من شيعة علي ، حدّثها بما سمعه من الإمام ، فقالت له : دعنا منك أيها الرجل ، فإن أمير المؤمنين لم يقل إلا حقاً .

ولم تمضِ الأيام حتى بعث ابن زياد بجيوشه لحرب ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان فيهم هرثمة ، فلما انتهى إلى كربلاء ورأى الحسين عليه السلام وأصحابه تذكّر قول الإمام أمير المؤمنين ، فكره حربه وأقبل على الإمام الحسين وأخبره بما سمعه من أبيه ، فقال له الإمام : معنا أم علينا ؟

فقال : لا معك ولا عليك ، تركت أهلي [1] وولدي وأخاف عليهم من ابن زياد .

فنصحه الإمام وقال له : وَلِّ هارباً حتى لا ترى منا مقتلاً ، فوالذي نفس

---

(١) وقعة صفين ، ص ١٥٧ .

محمد بيده ، لا يرى مقتلنا اليوم رجل ولا يغيثنا إلا أدخله الله النار .

وانهزم هرثمة من كربلاء ولم يشهد مقتل الإمام الحسين .

٥ — ومنها قوله عليه السلام لأهل الكوفة : أما انه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم مندحق البطن يأكل ما يجد ويطلب مـــا لا يجد ، فاقتلوه ولن تقتلوه .. ألا وإنه سيأمركم بسَبّي والبراءة مني ، فأما السب فسبّوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة ، وأما البراءة فلا تتبرّؤا مني فإني ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة .

وقد جــاء ما أخبر به أمير المؤمنين طابق النعل بالنعل والقذة بالقذة ، فقد تقلد معاوية كرسي الخلافة الإسلامية بالقهر والغلبــة ، وأذاق المسلمين المرارات وجرّعهم الآلام ، وقد حلّ بشيعة علي ما يجلّ عن الوصف ولا يقـــدر القلم على تدوينه .

نعم ، لقد استولى الطاغية الاموي على رقاب العباد والبلاد وفعل مــا أخبر به الإمام ، فقد سبّ علياً ولعنه على منـــابر المسلمين التي شيدت بسيف علي وجهاده ، وكتب إلى الآفاق بذلك حتى أصبح سبّ الإمام ولعنه سنّة يتداولها الناس ويقفون في وجه مَن يهملها .

فهذا هشام بن عبد الملك لما حجّ بالموسم [١] وترك سبّ علي قام إليه إنسان فقال : يا أمير المؤمنين ، إن هذا يوم كانت الخلفاء تستحب فيه لعن أبي تراب ، فقال له هشام : اكفف فما لهذا جئنا .

بل كان شتم علي ولعنه يعدّ من المناقب للقبــائل ، فهذا أحدهم يذكر وهو في مقام تعداد مناقب قومه ، يقول : وما منــا رجل عُرض عليه شتم أبي تراب ولعنه إلا فعل [٢] وزاد ابنيه حسناً وحسيناً وأمهما فاطمة ، فيصدقه الوالي على

---

(١) و (٢) شرح ابن أبي الحديد ج ٤ ص ٥٧ .

ذلك ويقول له إنها منقبة .

بـــل ازداد الأمر وتفاقم حتى وصل إلى أن يتحاشى أحد تسمية وليده باسم علي ، وإن سمي بذلك ُعدّ عقوقاً عقه به والده .

يذكر ابن أبي الحديد [١] ان الحجاج لعنه الله ، كان يلعن علياً ويأمر بلعنه ، فقال له متعرض به يوماً وهو راكب : أيها الأمير ان اهلي عقوني فسموني علياً فغيّر اسمي وصلني بما اتبلغ به فإني فقير .

وازداد الأمر ووصلت الحال إلى درجة انـه إذا اراد الرجل ان يحدث عن علي لا يجرأ ان يذكره باسمه ، بل يكني فيقول عن ابي زينب :

واما البراءة منه فقد قدمت من دونها النفوس والمهج ، وأُرخِصَ في سبيلها الغالي والنفيس ، فكان الفرد الترابي يأبى ان ينطق بذلك – مهما كلفه الأمر – وسيكلفه نفسه ، إذ فوق رأسه يقف الجلاد وبيده السيف ينتظر امر الوالي لتنفيذ إرادته ، إذا لم يبادر إلى اعلان البراءة من علي ، وقـــد تحصّلت قائمة واسعة بتعداد الشهداء الذين سقطوا وهم على اشد ما يكون من الإصرار على ولاية علي والحب له .

نعم قـد اشتدت نقمة الظالمين على شيعة علي ، وكلما اشتدت وتفاقمت كان المسلم الشيعي يقابلها بجرأة اشد وإصرار آكد وإيمان اقوى ، إذ كان يحمل النفس العلوية التي نشأه عليها امير المؤمنين وبذرها الإسلام في نفسه ، فهي شامخة تأبى الذل والهوان ، وتترفع ان تلوي جيدها امام الولاة الطواغيت مهما كان تجبرهم وتكبرهم وظلمهم وعلوهم ، وبهذا الصمود الرائع كانت كل قطرة دم من الشهداء تحرك انفساً حرة للثأر لها والاقتصاص ممن اهدرها – وإذا اردنا ان نقف على نماذج من ذلـــك الشموخ والإباء ، فما علينا إلا ان نطلّ بنظرنا نحو تلك الفترة

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ج ٤ ص ٥٧ .

الكالحة المظلمة التي تعقبت استشهاد علي لترى الإفذاذ من الأبطال، وقد ُتوجتْ حياتهم بالشهادة بعــد جهاد مرير وكفاح، مستميت في سبيل الحق والعدالة والإيمان والحرية .

١ – فهذا كميل بن زياد يطلبه [١] الحجاج فيهرب من وجهه حقناً لدمـه، ولكن هــذا الطاغية يقوم بعمل إجرامي لم يشهد التاريخ مثله، إذ منع قومه عطاءهم وضيق عليهم وتناسى قوله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) . إن كان لكميل البطل من ذنب، فلما رأى كميل ذلك قال : أنا شيخ كبير قـد نفذ عمري لا ينبغي أن أحرم قومي عطاءهم، فخرج إلى الحجاج، فلما رآه قال له : لقد أحببت أن أجد عليك جميلاً، فقال له كميل: انه ما بقي من عمري إلا القليل فاقضِ ما أنت قاض، فإن الموعد الله، ولقـد أخبرني امير المؤمنين علي عليه السلام انك قاتلي، قال : بلى، قد كنت فيمن قتل عمر، أضربوا عنقه فضربوا عنقه .

٦ – وهذا هو حجر بن عدي الكندي الذي مثّل النموذج الأكمل للإنسان الواعي حيث وقف أمام طغيان معاوية وجبروته وقفة شجاعة، تحدث بها الزمن ورددتها الأيام بكل اكبار واعزار، وافتخرت الإنسانية إذ علمت أن فيها أمثال حجر ممن يمتهن الطغاة ويقدم نفسه وابنه في سبيل قضية آمن بها فملكت عليه كل ما يملك، هذا العبد الصالح سيّر من بلده – العراق – إلى مرج عذراء في الشام فصدر أمر معاوية الجائر إلى جلاوزته بالقضاء عليه، ووقف الجــلاد فوق رأسه قائلاً :

«إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علي واللعن له، فإن فعلتم تركناكم وإن أبيتم قتلناكم، وان امير المؤمنين يزعم ان دماءكم قد حلت له بشهادة أهـل مصركم عليكم، غير انه قد عفا عن ذلك، فابرؤا من هذا الرجل (علي) نخلّ سبيلكم» .

---

(١) الإصابة لابن حجر ج ٥ .

انه الظلم الصارخ والإنحراف الواضح أن يكون حجر ، ومن معه من المؤمنين بيد سفاك الامويين الذي لاحق شيعة علي تحت كل حجر ومدر، وهنا أمام هذا المشهد ، وفي هذا الموقف قد يتخيل ان الأمر سهل فليبرأ حجر ويخلص نفسه من الموت الذي أحدق به ، ولكن نقول : ان هذا منطق التجار لا الأديان ، منطق النفعيين والانتهازيين ، وليس موقف المسلمين الرساليين المخلصين لمبادئهم وقيمهم، ان الإنسان يحب مبدأه وعقيدته،فإذا حيل بينه وبينها استرخص الحياة وأحب طعم المماة مضافاً إلى ان معاوية قـد تذرع بذلك وهو بخبثه ومكره ، يستطيع أن تتفتف ثعلبيته عن شراك أخرى يبتدعها ليتهم بها حجراً ويقضي عليه، وهنا ابتدر حجر راداً على الجلاد .

« اللهم إنا لسنا فاعلي ذلك » .

وبهذا الرد من حجر تعينت النهاية ، انه الموت ، ولكن الوقت متأخر ، انه وقت المساء ، فلتتأخر رحلة الموت إلى الغد، فما هو إلا سواد هذا الليل، فليتزود حجر ومن معه، وقام حجر وأصحابه ذلك الليل رهباناً يتبتلون إلى الله يدعونه رغباً ورهباً،سيرة الإنسان المسلم الذي تعمق الإيمان في قلبه فترجمه حركة وسلوكاً.

ورأى القائمون على حراستهم ذلك فقالوا لهم : يا هؤلاء لقد رأيناكم البارحة قد اطلتم الصلاة وأحسنتم الدعاء ، فاخبرونا قولكم في عثمان ؟

قالوا : هو أول من جار في الحكم وعمل بغير الحق .

فقال أصحاب معاوية : أمير المؤمنين كان أعلم بكم .

ثم قاموا إليهم فقالوا : تتبرؤن من هذا الرجل ؟

قالوا : بل نتولاه ونتبرأ ممن تبرأ منه ، عندئذٍ توجهوا لقتلهم فالتفت حجر إلى أصحابه فرأى منهم جزعاً فقال لهم :

« قال لي حبيبي رسول الله ﷺ : يا حجر تُقتل في محبة علي صبراً ، فإذا وصل رأسك إلى الأرض مادت وانبعث عين ماء فغسلت الرأس، فجعل أصحابه يتهافتون إلى القتل كما يتهافت الذباب على اللبن ، فقال لهم اصحاب معاوية :

« يا اصحاب علي ما اسرعكم إلى القتل » .

فقالوا : من عرف مستقره سارع إليه .

وكان مع حجر ولده همام، وحين اريد قتل الأب طلب من الجلاد قائلاً : ان كنت امرت بقتل ولدي فقدّمه ، فقدم وضرب عنقه .

فقيل لحجر : تعجلت الثكل .

فقال : خفت ان يرى هول السيف على عنقي فيرجع عن ولاية علي ، فلا نجتمع في دار المقامة التي وعدها الله الصابرين ، ثم قدم حجر للقتل فقيل له : مد عنقك فقال : ان ذلك لدم ما كنت لا عين عليه ، ولكن سيف الجلاد لم يمهله ، بل كانت ضربة اهوت برأس البطل على الثرى وتقاطرت الدماء لترسم صورة للنضال الإسلامي في مواجهة الباطل ، وتتحدى جبروت معاوية وسلطانه ، وتتحول على مر الزمن إلى مواجهة صارخة تزرع في قلوب الطواغيت الرعب والهلع ، فسلام على حجر واصحاب حجر ، وعلى كل قطرة دم سقطت لتزرع بطلاً وتخلق صموداً يتحدى الإنحراف والضلال ، وسيبقى قتل حجر إحدى موبقات معاوية التي ترددها الشفاه وتتحدث فيها الأجيال ، فهذا الحسن البصري يقول : اربع خصال كنّ في معاوية، لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة[1] انتزاؤه على هذه الامة بالسيف حتى اخذ الأمر من غير مشورة ، وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلافه بعده ابنه سكيراً خميراً ، يلبس الحرير ويضرب بالطنابير وادعاؤه زياداً ، وقد قال رسول الله ﷺ : الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وقتله حجراً وأصحاب حجر ، فيا ويلاً له من حجر واصحاب حجر ، بل ان مقتل حجر اقلق مضجع معاوية نفسه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فقد روى ابن الأثير انه لما حضرت معاوية الوفاة ، جعل يقول : يومي منك يا حجر طويل » ، انه ليس يوماً واحداً ، بل أياماً وسنين متطاولة .

---

(١) تاريخ ابن الأثير ج ٣ ص ٣٨٧ .

الفصل الثالث

عدل الامام علي عليه السلام

مقتطفات من العدل في صوت علي

ملأ الظلم أركان العـالم ، وأنين المظلومين يعلو وأبصارهم شاخصة إلى الافق لعلها تبصر شعاعاً يفتح إليها الطريق نحو عدل اجتماعي يرفع عنها سياط الظالمين وكابوسهم المرهق الثقيل، وقد ظهر في إحدى الفترات رمز يمثل العدل والهدى، إنهـا ومضة برق أو شعاع تألـّق ثم اختفى ، اختفى وأُقفلت أبواب العدالة من بعده ، ولكن آثاره التي تركها وأقواله التي زرعهـا لا تزال تدرُّ من الخيرات والبركات ما لا يقدّر ، لا تزال الأجيال ترنو بأعينها لعلها تلتقط من بعيد بعض تلك الصور المدهشة في عالم العدل والمثل الكامل ، وقـد أفصح علي عليه السلام في منثور كلامه ما أنبـأ عن ذلك ، وهذه مقتطفات من عدله برزت في أقواله ، فكانت شعاعاً دائم العطاء متصلاً طيلة الأوقات .

١ – من خطبة له عليه السلام :

« ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود ، فإن الحق لا يبطله شيء ، ولو وجدته قد تزوّج به النساء وفُرّق في البلدان لرددته إلى حاله، فإن في العدل سعة ومَن ضاق عنه الحق فالجور عليه أضيق ».

(ابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٦٩)

٢ – من كلام له عليه السلام لما عوتب على التسوية في العطاء :

« أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ؟ والله لا اطور به ما

سمر سمير وما أمّ نجم في السماء نجماً ، ولو كان المال لي لسوّيت بينهم ، فكيف وإنما المال مال الله ؟ » .

٣ — ومن كلام له عليه السلام :

« والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً ، أو أجرّ في الأغلال مصفداً، أحبّ إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيء من الحطام » . (ابن أبي الحديد ج ١١ ص ٢٤٥)

٤ — قال عبدالله بن العباس: دخلت على[١] أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله ، فقال لي : ما قيمة هذا النعل ؟

فقلت : لا قيمة لها .

فقال عليه السلام : والله لهي أحب إليّ من إمرتكم ، إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً .

(١) الخطبة ٣٣ ص ١٨٥ من شرح ابن أبي الحديد ، الجزء ٣ .

قضية العدالة عند الإمام

لقد عاش الإمام علي عليه السلام أزهى أيام حياته تلك التي كانت في أحضان النبوة ، ترعاه فيها عين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتسدّد خطاه على الطريق اللاحب الذي أراده الله وأحب ، وقد عاش العدل النبوي والرحمة الرسالية إذ كان رسول الله يمثل عدل السماء على الأرض ، ولذا كان الإمام يضعه نصب عينيه لا ينحرف عنه ولا يميل إلى غيره ، إنه العدل المطلق الذي يعطي كل ذي حق حقه دون أن يجور على خلق الله وعباده في قليل أو كثير ، مهما كانت نتائج هذا العدل ومضاعفاته عليه .

ثم انحرف مسار القيادة عنه حتى رأى الجور في أبرز مظاهره يتمثل في زمن خلافة عثمان بن عفان، إنه الظلم من القيادة إلى القاعدة، من الرأس إلى الأطراف. لقد عمّ الظلم أقطار البلاد الإسلامية من جرّاء الامويين الذين تسلّطوا على رقاب الناس بالقهر والقوة ، لقد تسلّطوا على رقاب الناس باسم الإسلام ، وهم أبعد خلق الله عن الدين والإيمان ، لقد مارس عثمان وولاته أبشع أنواع الظلم وأقذره .

عاش عثمان حياة النبي ومارس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمام عينيه العدل والمساواة فآخى بين الناس ووحّد صفوفهم، فكانوا اخوة متساوين في الحقوق والواجبات ليس للعاطفة مجال ولا للهوى دور .. لقد مثّل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قمة العدل

وبيّن للمسلمين السبيل القويم التي يجب أن يهتدوا بها وعلى طريقها تكون مسيرتهم، ولكن عثمان انحرف عن الخط النبوي الكريم فضعف حتى أطمع الامويين فيه وأخذت العاطفة منه على قرابته مأخذاً كبيراً حتى رأى شرار قومه خيراً من خيار الآخرين .

وإذا أردنا أن نقف على التجاوزات التي ارتكبها الخليفة عثمان والأخطاء التي صدرت منه وهو في قمة الحكم وعلى رأس الدولة ، فما علينا إلا أن نرجع إلى أمهات المصادر التي تعرّضت لذلك وألمّت به ، وهي مصادر تثبت بالأرقام والشواهد المدى الجائر الذي أصاب المسلمين من جرّاء تهاون الخليفة عثمان وحبه لبني أمية .

وهذه هي بعض الانحرافات وليست كلها :

١ - أوطأ بني أُمية رقاب الناس وولاهم الولايات دون كفاءة فيهم أو حق لهم وأقطعهم القطائع ، فقد افتتحت افريقيا في أيامه فأخذ الخمس كله فوهبه لمروان ، ومَن هو مروان ؟ إنه الوزغ ابن الوزغ لعين رسول الله وطريده .

٢ - الاعطيات التي كان يدفعها لأتباعه وكأنها مال أبيه ، فقد طلب منه عبدالله بن خالد بن اسيد صلة ، فأعطاه أربعمائة ألف درهم .

٣ - أعاد الحكم بن أبي العاص مخالفة لرسول الله ، فقد كان النبي سيّره طيلة حياته ثم لم يرده أبو بكر ولا عمر، وبعد أن أعاده أعطاه مائة ألف درهم.

٤ - تصدّق رسول الله بموضع سوق بالمدينة يُعرف بمهزور على المسلمين ، فأقطعه عثمان إلى الحارث بن الحكم أخ مروان بن الحكم .

٥ - أقطع لمروان (فدك) ، وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها صلوات الله عليه ، تارة بالميراث وأخرى بالنحلة ، فدفعت عنها .

٦ - حمى عثمان المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم، إلا عن بني أمية .

٧ – أعطى عبدالله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح افريقيا بالمغرب من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين .

٨ – أعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال ، في اليوم الذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال ، وقد كان زوّجه ابنته ام ابان فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان وبكى ، فقال عثمان : أتبكي ان وصلت رحمي ؟! قال : لا ، ولكن أبكي... إلى أن قال : والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً ، فقال : الق المفاتيح يابن أرقم فإنا سنجد غيرك .

٩ – أتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة ، فقسّمها كلها في بني أمية ، وأنكح الحارث بن الحكم ابنته عائشة فأعطاه مائة ألف من بيت المال بعد صرفه زيد بن أرقم عن خزنته .

١٠ – تسييره الصحابي الجليل ذي اللهجة الصادقة والإيمان العميق أبي ذر الغفاري الذي ورد في حقه من النبي ﷺ ما يجعله إمام الناس والقدوة الصالحة لكل الأجيال ، حتى مات فريداً غريباً بالربذة دون جناية ارتكبها أو حق أضاعه .

١١ – ضربه لعبدالله بن مسعود حتى كسر أضلاعه ، وهو في المرتبة العالية من الفضل والصحبة ، حتى مات من جرّاء ذلك .

هذه بعض كبائر عثمان بن عفان ، وقد ظهر منه من تعطيل الحدود والمظالم وغيرها من أعمال السوء التي لو انفرد ببعضها أحد الناس لاستحق القتل ، فكيف إذا اجتمعت وبالأخص إذا كانت في الخليفة الذي يمثل رسول الله في الحكم والقضاء والنزاهة والعدالة ؟.

إن عثمان قد أساء استخدام السلطة الصالحة وصالح عشيرته حتى كان أحسن وصف وأليَق به ما ذكره الإمام في نهجه في خطبة الشقشقية ، حيث قال :

« إلى أن قام [1] ثالث القوم (عثمان) نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه ، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع ، إلى أن انتكث عليه فتله وأجهز عليه عمله وكبت به بطنته » .

إنها صورة واضحة المعــالم بارزة الملامح للظلم الاموي الذي عمّ المجتمع الإسلامي ، فبعــد أن تولى عثمان الخلافة أطلق أيدي قومه في أموال المسلمين ، فولـّى أقرباءه الولايات دون كفاءة فيهم أو سابقة في دين ، إذ جُلّ مَن ولاّه لم يدخل في دين الله طوعاً بل خوف السيف حفظاً لحياته ومن أجل البقيا لها ، ابتداءً بأبي سفيان شيخ النفاق إلى آخر الطينة الاموية النجسة .. إنها قــائمة سوداء يخجل القــلم عن وصفهم ويترفــّع اللسان عن ذكرهم ، إنهم ما بين طريد لرسول الله أو لعين ، وما بين فاسق أو طليق .

إنهم دخلوا في الإسلام خوفاً دون أن يدخل الإسلام في قلوبهم ، فلذا حملوا الشعار الذي باين المضمون واستغلوا الإسلام لمحق الإسلام ومحْوِه ، إنهم يحملون الأفكار الجاهلية وعاداتها ، لم يغيّر الإسلام منهم خَلقاً ولا خُلـُقاً ، وقد أدرك عثمان ذلك وجاءته الشكايات من كل حدب وصوب يستغيثون بالخليفة أن يرفع عنهم ظلم أقربائه وجورهم وعلوّهم وتجبُّرهم ، إنه الظلم الفــادح والجور الذي أجهز على عثمان ، فلقد تمّ الإجماع من قِبَل المسلمين على التخلص منه بأية وسيلة وأي سبيل ، ونحن لم نرَ ثورة على خليفة كما رأيناها على عثمان ، فإن كان الإجماع حجة فباتفاق وجوه المهاجرين والأنصار الذين يمثلون الواجهة التي تعكس رأي الإسلام في أمر من الامور ، قد تمّ وأجمعوا على الخلاص من الخليفة الاموي ... وهذه شهادات تاريخية نذكرها لبيان الحقيقة :

١ - قال عمر بن الخطاب بعد أن ضُرب وهو يشير إلى عثمان بولاية الأمر :

---

(١) نهج البلاغة ، خطبة ٣ .

هيباً إليك ، كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر [1] لحبّها إياك ، فحملت بني امية وبني أبي معيط على رقـاب الناس وآثرتهم بالفيء ، فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ، والله لئن فعلوا لتفعلن ولئن فعلت ليفعلن .

٢ – رأي ام المؤمنين عائشة ، فقد أجمع المؤرخون عليه حتى قال ابن أبي الحديد : كل من صنـّف في السيَر والأخبار علمَ أن عائشة كانت من أشدّ الناس على عثمان ، حتي انها أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله ﷺ فنصبته في منزلها وكانت تقول للداخلين إليها : هذا ثوب رسول الله لم يبلَ وعثمان قد أبلى سنته ، قالوا : أول مَن سمـّى عثمان نعثلاً عائشة ، وكانت تقول : اقتلوا نعثلاً ، قتل الله نعثلاً .

وقد تكررت أقوال ام المؤمنين وتعددت ، حتى لم يبقَ مرية لأحد انها من أشدّ الناس نكيراً عليه والطاعنين فيه ، حتى ألقى محمـد بن طلحة ثلث مقتل عثمان عليها .

٣ – وأما عبد الرحمن بن عوف فقد قال لما توفي ابو ذر بالربذة وتذاكر مع الإمام فعل عثمان ، قال له الإمام : هـذا عملك ، فقال عبد الرحمن : إذا شئت فخُذ سيفك وآخذ سيفي ، انه قد خالف ما أعطاني .

٤ – وأما طلحة فقد روى البلاذري من طريق ابن سيرين انه قال: لم يكن من اصحاب النبي أشد على عثمان من طلحة.

٥ – وأما الزبير فقد نقل ابن ابي الحديد في شرح النهج :

كان طلحة من أشد الناس تحريضاً عليه – على عثمان – وكان الزبير دونه في ذلك ، رووا ان الزبير كان يقول : اقتلوه فقد بدّل دينكم ، فقالوا له : إن

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ، ج ١ ص ١٨٦ .

ابنك يحامي عنه بالباب ، فقال : ما أكره ان يُقتل عثمان ولو بُدىء بابني ، إن عثمان لجيفة على الصراط غداً .

٦ – أما عمرو بن العاص فقد ذكر الطبري انه لما بلغ عمرواً قتل عثمان قال: أنا ابو عبدالله قتلته وأنا بوادي السباع .

وقال عمرو عندما وصله نبأ قتل عثمان : أنا ابو عبدالله إذا حككت قرحة نكأتها إن كنت لأحرّض عليه ، حتى اني لأحرض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل ...

هذه بعض الشهادات التي تدين عثمان ، وهم من الصحابة وأيضاً بنظر القوم شهود عدول عاشوا أيام الخليفة وعاصروه ومرّت أمامهم كل اعماله وتصرفاته ، أقول هذه بعض الشهادات ، ومَن أراد المزيد فعليه بمراجعة موسوعة الغدير العظيمة التي لم يكتب مثلها ، فقد عدّد فيها شيخنا العظيم أكثر من ثمانين صحابياً قالوا في عثمان ما يمكن به القول.. إنهم كرهوا وجوده وأحبوا الخلاص منه بأية وسيلة كانت ، وإن أقوالهم إنما كانت من منطلقات الإيمان والحفاظ على الإسلام الذي أشرفت تعاليمه على الخطر .

نعم ، قد قال الصحابة في الخليفة عثمان فأكثروا فيه القول ، ولا من مدافع عنه إلا العصابة الاموية التي أحاطت به وأوردته موارده .

في هذه الظروف القاسية والأجواء المحمومة وصلت الخلافة إلى الإمام ، وصلت إليه مثقلة بالهموم والآلام ، ممزوجة بجور الامويين وظلمهم وانحراف الولاة وطغيانهم ،فما كان على الإمام بعد أن عادت إليه الخلافة إلا ان يعيد الحق إلى نصابه ويرفع الظلم والحيف والجور عن المسلمين ، ويعيد للإسلام وجهه الصحيح المشرق في العدالة والتوزيع وللشريعة يدها المباركة التي نعمَ بها الناس أيام النبوة الكريمة .

لقد اشتاق المسلمون إلى لحظات من عدل السماء ، اشتاقوا إلى تلك الساعات

التي مرّت عليهم زمن النبوة ، حيث أحسوا بدفء الإسلام وعدله وخلصوا من ظلم الجاهلية وجورها ، ولا يوجد في الميدان إلا علي ، وهل يمكن لإنسان ان يجسّد آمال الإسلام ويحقق لهذا الدين ما ينشده غير ربيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ووصيّه الإمام علي عليه السلام ؟..

وفعلاً قد وصل الإمام إلى كرسي الخلافة ، ولئن كانت يداه غير مبسوطتين من ذي قبل ، فقد أطلقتا الآن وأصبح رئيس الدولة ، فليرفع ظلم الامويين وجورهم عن رقاب الناس وليُعِد الحق إلى نصابه ، فمن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق .

فلذا كان أول عمل قام به انه خطب فقال :

ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال ، فإن الحق القديم لا يبطله شيء ، ولو وجدته قد تزُوّج به النساء وُفرّق في البلدان لرددته إلى حاله ، فإن في العدل سعة ومَن ضاق عنه الحق فالجور عليه أضيق ...

ثم خطب في اليوم الثاني لبيعته وأعلن تمسّكه بالعدالة المطلقة التي شرعها الإسلام دون أن يكون لأحد من المسلمين فضل على أحد ، قائلاً من جملة كلامه : ألا لا يقولنّ رجال منكم غداً غمرتهم الدنيا ، فاتخذوا العقار وفجّروا الأنهار وركبوا الخيول الفارهة واتخذوا الوصائف الرّوقة ، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً إذا منعتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون ، فسينقمون ذلك ويستنكرون ويقولون : حرَمنا ابن ابي طالب حقوقنا .. ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى ان الفضل له على مَن سواه لصحبته ، فإن الفضل النيّر غداً عند الله وثوابه وأجره على الله .. وأيما رجل استجاب لله وللرسول فصدّق ملّتنا ودخل في ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده ، فأنتم عباد الله والمال مال الله يقسم بينكم بالسويّة لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء

وأفضل الثواب ، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً وما عند الله خير للأبرار ، وإذا كان غداً إن شاء الله فاغدوا علينا فإن عندنا مالاً نقسمه فيكم ...

ولما كان من الغد وغدا الناس لقبض المال ، قال لعبدالله بن ابي رافع كاتبه : ابدأ بالمهاجرين واعطِ كل رجل ممن حضر ثلاثة دنانير ، ثم ثنّ بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك، ومَن يحضر من الناس كلهم الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك.

فقال سهل بن حنيف : يا أمير المؤمنين ، هذا غلامي بالأمس وقد أعتقته اليوم ، فقال عليه‌السلام : نعطيه كما نعطيك ، فأعطى كل واحد منهما ثلاثة دنانير ولم يفضل أحداً على أحد .

وتخلّف عن هذا القسم يومئذٍ طلحة والزبير وعبدالله بن عمر وسعيد بن العاص ... ورجال من قريش وغيرها .

هذه هي المبادىء الأساسية للعدالة الإسلامية قد خطّها علي عملياً بسلوكه ، وهذه هي راية الحق يحملها ابن ابي طالب معلناً تمسّكه بها من يومه الأول حتى آخر نفَس من حياته .

نعم قد تخلّفت عن العطاء هذه الزمرة التي أجهزت على الخليفة عثمان من ذي قبل ، وهي اليوم تتمنى ان يطلق لها العنان في الولايات ، فيصبح كل من طلحة والزبير شريكاً للإمام في الخلافة فتتدفق عليهم الأموال، فيشترون عندها الناس ويجمعونهم إلى صفهم..فما قيمة المال في نظر الكبار إذا تساووا فيه مع الصغار؟ أطلحة والزبير يأخذان كما يأخذ غيرهم من المسلمين ؟ إن هذا الأمر لا يليق بهما ولا بشأنهما، إنهما أرفع مستوى، إنهما من عنصر له مميزاته الخاصة،فلذا يستحقان التفضيل في نظرهما .

ولكن علياً يراهما – كما مرّ في خطابه – انهما على مستوى واحد مع جميع المسلمين لا ميزة لهما ولا رجحان .

أبَتْ عليهما صحبتهما أن يكونا كسائر الناس في العطاء ، إنهما ومَن تخلّف

معهما يتوقعون عطاءً أزيد ونصيباً أوفر ، ولكنه الإمام ، الذي لا يشتري رضا الرجال بسخط الله ، إنه علي الذي يحكم بحكم الله ولا تأخذه في حكم الله لومة لائم ، إنه رجل المبدأ والعقيدة الذي يؤثرهما على نفسه ويضحي من أجلهما بدمه إنه علي لا يعترف بشرعية الطبقية ولا العنصرية ...

إن هذا العطاء المتساوي بين جميع المسلمين كان إيذاناً لمخالفة طلحة والزبير فيما بعد ، إذ دبّ اليأس الى قلبيهما . . وإن ابن ابي طالب ليس عاجزاً عن إدارة الحكم ولا واهناً في تسيير عجلته ، وإنما يستند الخليفة على غيره إذا عجز عن حمل هذه التركة ، أما وإن علياً قادر على تحمّل المسؤولية فلا حاجة لهما ولا لغيرهما ، فلذا ذرّ قرنه الشيطان ونفخ في رأسيهما فأبديا العصيان ، فكانت معركة الجمل التي مثلت أول حرب بين أهل القبلة .

علي وعقيل

من المواقف الكبيرة التي تُعدّ في صلب العدالة العلوية، أن يجري الإسلام على القريب والبعيد في مستوى واحد ، دون أن يكون للقرابة أي ميزة إلا بمقدار أعمالها ، وما تعطيه للامة وتقدّمه لها من خير وإحسان ، وقد سار علي من أقربائه سيرته مع غيرهم ،فلم يفسح لهم المجال كي يتنعموا علىحساب دينه وحساب المسلمين ، دون أن يكونوا أكفاء لذلك ، وقد شملت هذه العدالة أقرب المقربين وأحبهم إليه ، لقد شملت شقيق روحه عقيل بن أبي طالب .

قدم عقيل الكوفة على أخيه الإمام في أحسن أيامه ، أيام خلافته ، إن علياً على رأس السلطة وبيده خزائن المسلمين يستطيع أن يدفع لمن شاء ، ما شاء من الأموال والأرزاق ، قَدِمَ إليه وهو في أمسّ الحاجة إلى درهم يقيم به صلبه وينعش به أطفاله الذين أصابتهم المتربة ، فدفعت بوالدهم للخروج من المدينة إلى الكوفة طلباً لمواجهة الإمام، فلعله يغدق عليهم من الأموال ما يعيشون به كباقي الناس في المستوى المعتدل ، وقدم عقيل الكوفة وفي نفسه أمل كبير ان ابن والده لن يخيّب له أملا ، ولا يرجعه بأذيال الخيبة مهما كانت الظروف، نعم قدم عقيل الكوفة .

فقال له الإمام : مرحباً بك وأهلا ، ما أقدمك يا أخي ؟

قال : تأخر العطاء عنا وغلا السعر لتصلني .

فقال علي عليه السلام : والله ما لي مما ترى شيئاً إلا عطائي ، فإذا خرج فهو لك.

فقال عقيل : أترى شخوصي من أجل عطائك ؟ ومـاذا يبلغ مني عطاؤك ؟ وما يدفع من حاجتي ؟

فقال علي عليه السلام : هل تعلم لي مالاً غيره ؟ أم تريد أن يحرقني الله بنار جهنم في صلتك بأموال المسلمين ، وألحّ عقيل وكرّر الطلب ، فحينما رأى الإمام ذلك منه عمد إلى حديدة فأحماها ، ثم قال لعقيل : أبسط يدك ، وكان قد كفّ بصره فبسط يده فأدناها منه الإمام فلسعته فولول عقيل صارخاً .

وقد أشار إلى هذه الحادثة علي نفسه حيث قال في بعض خطبه: « والله لقد رأيت عقيلاً املق –افتقر– حتى استماحني من بركم صاعاً ، ورأيت صبيانه شُعث الشعور غبر الألوان من فقرهم ، كأنما سُوّدت وجوههم بالعظلم ، وعاودني مؤكداً وكرّر علي القول مردداً ... فاصغيت إليه سمعي ، فظن أني أبيعه ديني واتبع قياده مفارقاً طريقتي فاحميتُ له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بهـــا فضج ضجيج ذي دنف من ألمها ، وكاد أن يحترق من ميسمها فقلت له : ثكلتك الثواكل يا عقيل اتئن من حديدة أحماهـــا إنساناً للعبه ، وتجرني إلى نار سجرها جبارها لغضبه ، أتئن من الأذى ولا أئن من لظى ؟

إذن لا مساومة على دينه وعلى حقوق المسلمين ، زرع الإسلام شجرة العدل بيد النبي ، فأعطت ثمارها حيـــة متحركة في اسلوب علي ومواقفه التي جسّد فيها روح الإسلام في العدالة والمساواة .

وأننا نرى من عدم الانصاف أن نقرن علياً بغيره من الخلفاء والملوك ، فكيف نقرنه بمعاوية الطليق ، ولكن جرّت علينا الدواهي مقارنته بغيره لنعرف فضله وسموه وعدله ، فالنهار لا تعرف قيمته إلا بعد ليـــل بهيم ، والجهل لا تعرف قساوته إلا إذا قيس بالعلم والمعرفـة ، فمن هنا نضطر إلى ذكر سواه ومقارنته به لنرى الفرق الكبير بين عدل الإسلام المتجسد في علي ، وبـين جور الجاهلية وظلمها المتمثل في معاوية وانحراف عثمان .

عقيل ومعاوية :

تذكر بعض الكتب أن عقيل بن أبي طالب بعد أن يئس من عطاء أخيه ، وأنه لن ينال منه إلا ما يناله أي فرد من المسلمين امتطى عندها دابته وضرب وجهها نحو معاوية قاصداً بلاد الشام ، إنه يرى في افق معاوية وفي يديه عطاء كبيراً ، عطاء من ينفق ويكرم من غير ماله ، فليتوجه إليه ، فإن هذا المال ينفق في غير وجهه ، ويحرم منه أصحابه من الفقراء والمعوذين ، وأن عقيلاً أحق من يأخذه ، فقد ضاقت به البلاد وانسدت في وجهه السبل .

توجه عقيل إلى معاوية ، فلما قدم عليه قال له : مرحباً وأهلاً بك يا ابن أبي طالب ما أقدمك عليّ ؟!

فقال : قدمت عليك لدين عظيم ركبني ، فخرجت إلى أخي ليصلني فزعم أنه ليس له مما يلي إلا عطاءه ، فلم يقع مني ذلك موقعاً ، ولم يسدّ مني مسداً فأخبرته إني سأخرج إلى رجل هو أوصل منه لي فجئتك . فازداد معاوية فيه رغبة وقال : يا أهل الشام هذا سيد قريش وابن سيدها ... وزعم له -أخوه- أنه ليس له مما يلي إلا عطاؤه ، ولكني أزعم أن جميع ما تحت يدي لي فما أعطيت فقربة إلى الله ، وما أمسكت فلا جناح عليّ فيه !! فأغضب كلامه عقيلاً حين سمعه ينتقص أخاه فقال : صدقت خرجت من عند أخي على هذا القول ، وقد عرفت من في عسكره ، لم أفقد والله رجلاً من المهاجرين والأنصار ولا والله ما رأيت في عسكر معاوية رجلاً من أصحاب محمد ﷺ .

ومع هذا فقد وصله معاوية ثلاثمائة الف وقال له : هذه [1] مائة الف تقضي بها دينك ، ومائة الف تصل بها رحمك ، ومائة الف توسع بها على نفسك .

هكذا يتخذ معاوية طريق الجور ، ويتمادى في الغي ، إنه فرع من تلك الشجرة الملعونة

---

(١) الإمامة والسياسة ج ١ ص ٨٤ .

التي ذكرت في القرآن ، فكأنما الإسلام ملك أبيه أبي سفيان ، وكأنما خزينة المسلمين وبيت مالهم ميراث منه ، فلذا كان يتصرف فيه تصرف الملاك دون مراعاة للحق أو صرف له في وجهه المرسوم له .

إن من يعطي مصر طعمة لابن العاص لقاء مساندته له في قتاله إمام الأحرار امير المؤمنين علي يهون عليه أن يعطي عقيلاً هذا المبلغ .

إن معاوية كان يشتري ضمائر الرجال بالمال ، لم يراقب الله في شيء من اعماله إلا بمقدار ما يخدم مصلحته ويثبت ملكه ، فلذا تراه يبذل لسمرة بن جندب [1] مائة الف درهم حتى يحدث بأن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب ، وهي قوله تعالى : (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، فلم يرض فبذل له مائتي الف ، فلم يقبل فبذل له اربعمائة الف فقبل .

هذه واقعة واحدة من كثير أمثالها ، مما استخدم فيه مال الله في حرب أولياء الله ، لقد سعى بكل جهده لإطفاء نور الله ، واستخدم جميع الوسائل غير المشروعة للوصول إلى غايته ألا وهي إماتة الحق وإشاعة الباطل .

اربعمائة الف درهم تجعل لكذّاب من ألدّ أعداء الله ورسوله ، وتحرم منها الأكباد الغرثى والأفواه الجائعة ، انه الظلم الأموي في أبشع صوره .. ويحدثنا التاريخ مع ذلك ، ان معاوية سأل عقيلاً عن قصة الحديدة المحماة ، وأن يقصّ عليه قصتها ، فقال عقيل :

أقويت واصابتني مخمصة شديدة فسألته – الإمام - فلم تند صفاته ، فجمعت صبياني وجئت بهم والبؤس والضر ظاهران عليهم فقال : أئتني عشية لأدفع

---

(١) نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ٣٥٨ .

إليك شيئاً فجئته يقودني أحد ولدي ، فأمره بالتنحي ثم قـــال : ألا فدونك فاهويت — حريصاً قد غلبني الجشع ، أظنها صرّة — فوضعت يدي على حديدة تلتهب ناراً ، فلم قبضتها نبذتها وُخرت كما يخور الثور تحت يد جازره .

فقال لي : ثكلتك امك ! هذا من حديدة أوقدت لهـا نار الدنيا ، فكيف بك وبي غـداً ان ُسلكنا في سلاسل جهنم ، ثم قرأ : (إذ الاغلال في اعناقهم والسلاسل يسحبون) .

ثم قال : ليس لك عندي فوق حقك [١] الذي فرض الله لك إلا مــــا ترى فانصرف إلى اهلك فجعل معاوية يتعجب ويقول : هيهات هيهات عقمت النساء أن يلدن مثله .

ولعقيل مع الإمام مواقف متعددة يذكر ابن أبي الحديد فيشرحه علىالنهج.

قدم عقيل بن ابي طالب على الإمام بالكوفة يسترفده ، فعرض عليه عطاؤه فقال : إنمــــا أريد من بيت المال ، فقال : تقيم إلى يوم الجمعة ، فلما صلى عليه السلام الجمعة قال له : ما تقول فيمن خان هؤلاء جميعاً قال : بئس الرجل، قال امرتني ان اخونهم وأعطيك ، فلمـــا خرج من عنده شخص إلى معاوية ، فأمر له يوم قدومه بمائة الف درهم وقال له : يا أبا يزيد - كنية عقيل — أنا خـير لك أم علي قال : وجدت علياً أنظر لنفسه منه لي ، ووجدتك أنظر لي منك لنفسك .

وسواء صحت الرواية ام لم تصح ، فـإن علياً لا يساوم ولا يحابي مهما كانت الظروف واختلفت الأشخاص ، إنـــه سلوك واحد أراده الله منه ، فهو لا يسلك غيره .

---

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ١١ ص ٢٥٣ .

الخلافة في نظر علي

عادت الخلافة إلى أهلها بعد مدة كبيرة مضت على اغتصابها ، وها هي اليوم تستقبل بوجهها صاحبها الشرعي الذي عهد له بها محمد رسول الله ، إنها تفتح إليه ذراعيها وقلبها ، وترمق السماء لتطوي تلـــك الأيام الحزينة التي مرت عليها ، وتجرعت غصصها وآلامها ، ان صاحبها اليوم هو صاحبها بالأمس ، إنــه يريدها لإقامة الحق والعدل بــين الناس ، إنه يريدها من أجل رفع الظلم والطغيان الذي حاق بالمسلمين على أيدي الأمويين وعمالهم الأشرار .

إن علياً كان يراقب الإسلام وشريعة الله فيذوب قلبه حسرة وألماً ، أن يرى الشذوذ ، فلا يستطيع تغيره ويبصر المنكر فيعجز عن منعه .

ليست الخلافة في نظر علي – وإن كانت حقاً له – إلا جسراً يعبر عليه لإقامة صرح العـــدل وأسس الحق الذي أراده الإسلام وطلبه ، وإلا فالخلافة أحوج إليه من حاجته إليها ، أنه خلاف سائر الناس هم تزينهم الخلافة وهو يزينها.

وقد آثر الركون والدعة بعـد سقيفة بني ساعدة حفظاً للاسلام وحيطة له خوف أن تمزقه الأيدي الآثمـة والعصبيات البغيضة التي لا تزال تعتلج في نفوس القوم وتحمل على الإسلام وعلى الإمام الذي فتك سيفه في ابائها وأجدادها يوم بدر واحد والأحزاب وغيرها .

إن العرب لا تزال بالمرصاد لهذا الدين الذي وترها في احسابها ، فجعل الناس أمة واحدة في مستوى واحد يتساوون أمام الله وأمام الشريعة ،فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى ، إنه الدين الذي استسلمت له بعد ان عرفت أنه لن يهادنها في عقيدتها الفاسدة واسفافها الفكري الدنيء وعاداتها الجاهلية القبيحة ، لقد استسلمت وما أسلمت واستأمنت وما آمنت فهي تتحين الفرص للانقضاض على هذا الدين ومحقه ، والرجوع إلى جاهليتها الاولى .

فلذا ما إن تمت صفقة الخلافة لأبي بكر بغياب بني هاشم وعميدهم الإمام علي صاحب الخلافة الشرعي الذين كانوا في مصيبة وفاة رسول الله يقومون بتجهيزه تغسيلاً وتكفيناً، ما إن تمت الخلافة لأبي بكر حتى قام علي مطالباً بها محتجاً بنفس ما احتجت بـه قريش للاستيلاء على الخلافة وأخذها من الأنصار بأنها شجرة الرسول ، فأجابهم الإمام : « احتجوا بالشجرة واضاعوا الثمرة » وأدلى الإمام بحججه كلها لدى المسلمين عامة المهاجرين منهم والأنصار وسائر الناس ، ولكنها كلها ردت ، فإن خلافة أبي بكر قد تمت وسبقت حقه الذي أوجبه الله عليهم ، وعندما خاف أن ترجع راجعة الناس عن الإسلام ، وخاف الردة الجماعية والانحراف الذي يؤدي إلى محق دين الله والاتيان على كل رسالات السماء المتمثلة في خاتمة الأديان ، ألا وهو الاسلام عندما خاف ذلك ركن منتظراً للفرج ناظراً إلى الاسلام يدرأ عنه ما أمكنه من الخطر .

فلذا قال عليه السلام : اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ، ولا التماس [1] شيء من فضول الحطام ، ولكن لنرد المعالم من دينك ، ونظهر الاصلاح في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك.

فقد وضع الامام أسس الامامة وبيّن من هو الفرد الصالح لتولي هذا المنصب، إنهم الأئمة الهداة من أهل بيت النبوة الذين أذهب الله الرجس عنهم وطهّرهم

---

(١) نهج البلاغة ص ٩٨ .

تطهيراً، إنهم سدنة الاسلام وأركان الشريعة مَنْ هبط الوحي في بيوتهم، وكانوا عترة المصطفى وأهل بيته الطاهرين .

لقـــد بيّن الامام ان الخلافة [1] إنما هي لاقامة الحق والعدل ونشر الدين والايمان ، وإلا فلو خلت من ذلك ، فلا قيمة لها عند علي وابنائه ، ولذا نراه قد رفضها عندما اقترنت بشرط يخالف الحق ، إنــه رفضها حفظاً للحق وقبلها فيما بعد حفظاً للحق ، وهكذا كانت سيرة علي وسنته يؤثر الحق ويتبعه أين كان ومهما كانت نتائجه .

---

(١) نهج البلاغة خطبة ١٣١ .

علي عليه السلام وعمـــاله

حينما نقف أمام علي نقف أمـام طود من أطواد العدالة الذين مثّلوا أعظم القيَم على مدار التاريخ ، إنه مصباح العـدل إن جارَ الناس ، وإمام الحق إن عدَلَ الناس عن الحق ، إنه أمير المؤمنين علي قـــد مثّل عدل الإسلام كما هو بواقعه وأعاد للمجتمع الإسلامي تلك الذكريات الماضية في عهد النبوة التي شملت المسلمين في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

إن مَن تصفّح كتبه إلى عماله الذين انتقاهم لحكم البلاد ، يجـــد الروح الإسلامية ونفحات الإمامة وعطر العدل يفوح منها وينتشر .

إن علياً يُعدُّ مسؤولاً عن البلاد والعبـاد ، حتى ان رعايته تشمل البهائم ، فيجب عليه أن يؤمّن للمجتمع العدالة الإسلامية التي ينشدها الإسلام للنـاس ، فلا يجور الوالي في حكمه ولا يتخـــذ المنصب والمقام ذريعة للنّيل من الضعفاء وأصحاب المسكنة الذين يمثلون الغالبية العظمى من الناس ، إن الوالي عنـــدما تطلق يده ولا يكون عليه رقيب قد تجمح نفسه لظلم العباد وتطمعه في التجاوز على حقوقهم دون حق له أو امتياز ، ولذا كان الإمام يتقصّى أخبـــار ولاته ويستمع لشكاوى النـاس ومتطلبات الرعيّة ، وكم كانت تجرح نفسه شكوى تقدَّم إليه من أحد الناس في حق والٍ من ولاته ، ويا لهـا ساعة سوء تمرُّ على ذلك الوالي المشكو !..

إن علياً لا يتسامح في شكوى أحد ضد الولاة ، لا بدّ له من استقصاء الخبر ولا بدّ له من الوقوف على الحقيقـــة الكاملة ، وإذا نظرنا إلى بعض كتبه التي خطّها علي بيده ، نجد الحملة الشديدة التي لا تدع للوالي ظهراً يقيمه ولا رأساً يرفعه بين الناس ، وهذه نماذج من كتبه نعرضها تصديقاً لما نقول :

كتابه الى مصقلة بن هبيرة الشيباني :

فهذا مصقلة بن هبيرة الشيباني عامل علي على اردشير ُخرّة يبلغه عنه انه قد اجتمع عنـــده أموال من فيء المسلمين ، فاغتنم هذا الوالي مركزه كوالٍ فقسّم هذا المال بين عشيرته وأهله ليكون له عليهم يد وفضل .. ويسمع الإمام بذلك النبأ من أفواه الناس فيكتب إليه كتاباً يثقل ظهره ويدعه عبرة لسواه .

كتب عليه السلام :

بلغني عنك أمر إن كنتَ فعلته فقـــد أسخطتَ إلهك وعصيت إمامك ، انك تقسم فيء المسلمين الذي حازته رماحهم وخيولهم وأُريقت عليه دماؤهم فيمن اعتامك من أعراب قومك .. فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، لئن كان ذلك حقاً لتجدنّ لك عليّ هواناً ولتخفـّنّ عنـدي ميزاناً ، فلا تستهـِنْ بحق ربك ولا تصلح دنياك بمحق دينك فتكون من الأخسرين أعمالا .

ألا وإن حق َمن قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هـذا الفيء سواء يردون عندي عليه ويصدرون عنه .

هذا كتاب علي يمثل بعض اللمحات من عدله عليه السلام ...

إنه علي يقسم بالله ، وعلي يبرّ بدون قسَم فكيف وقد أقسم ؟! اقرأه مرة اخرى وحلـّلْ مغزاه وقِفْ عند كل كلمة وقفة المتأمل المتبصر ، إنذار وتهديد لا يدع للمرء مجـالا ... وانظر إلى قوله – فيمن اعتامك من أعراب قومك – إنك تستشفُّ منها الاحتقار له ، حيث عمـــد الى قومه ممن ليسوا بأهل للعطاء

فأغدق عليهم من أموال المسلمين وفيئهم ، ثم تمعّنْ في قوله : (لتجدنّ لك عليّ هواناً ولتخفـّنّ عنـــدي ميزاناً) ، إنه الجزاء العادل لخيانته ولي امر المسلمين وخليفتهم ، إنه ميزان عادل ، خان الرجل او انحرف ، انخفض في الميزان ولم يعد له وزن او قيمة ، يهون امره وتقلُّ هيبته .

كتابه الى زياد بن أبيه :

وإني اقسم بالله صادقاً لئن بلغني انك خنتَ من فيء المسلمين شيئاً صغيراً او كبيراً لأشدّن عليك شدّة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر ضئيل الأمر ... انظر أيضاً إلى هذا الكتاب الذي ينمُّ عن محاسبة عماله محاسبة ليس فيها رفق او لين، فإن المال للمسلمين فكيف يتصرف به والٍ من ولاة علي بغـــير الحق ؟ وكيف يتجرّأ هـــذا الوالي في الاقدام على خلاف المرسوم له من قانون الدين والشرع والعدل والأخلاق ؟ إن علياً لا يطيق أن يسمع الجور بأذنيه فكيف ينظر إلى بعض عماله يمارسه ويقترفه ثم يسكت عنه ؟ إن هــذا أبعد ما يكون عن نفسية علي وسلوكه العام والخاص .

وهذا كتاب ثالث الى بعض عماله أيضاً ، يقول فيه :

أما بعد ، فقد بلغني عنك أمر إن كنتَ فعلتَه فقد أسخطت ربك وعصيتَ إمامك وأخزيت أمانتك ، بلغني أنك جرّدت الأرض فأخذت ما تحت قدميك وأكلتَ ما تحت يديك ، فارفع إليّ حسابك واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس ... والسلام .

إنهــا روح علي التي ترفض الظلم والخيانة بجميــع أشكالها ، إنه التعبير الذي يصوّر الفاجعة بشكلها المرعب المخيف،جرّدت الأرض فأخذت ما تحت قدميك وأكلت ما تحت يديك .

إنها صورة للانسان الشرهِ النهم الذي لا يراعي حقوق الناس ولا يهتم بهم ، بل صورة الانسان الذي انتزعت إنسانيته فغـــدا ذئباً مفترساً لا يمرُّ في طريقه

شيء فيعف عنه ،هكذا يصوّر الإمام هـــذا الوالي ويأمره برفع حسابه إليه ، ليقف بنفسه على ما كان منه .

وهذا كتابه عليه السلام الى المنذر بن الجارود العبدي ، وقد خان في بعض مـا ولاّه من أعماله :

أما بعـــد ، فإن صلاح أبيك غرّني منك وظننتُ انك تتبع هديه وتسلك سبيله ، فإذا أنت فيما رقي إليّ عنك لا تدَع لهواك انقيـــاداً ولا تبقي لآخرتك عتاداً ، تعمُرُ دنياك بخراب آخرتك ، وتصِل عشيرتك بقطيعة دينك ، ولئن كان مـا بلغني عنك حقاً لجمل أهلك وشسع نعلك خير منك ، ومَن كان بصفتك فليس بأهل أن يُسَدّ به ثغر أو ينفذ به أمر أو يُعلى له قدر أو يُشرك في أمانة أو يُؤمن على جباية ، فأقبِلْ إليّ حين يصل إليك كتابي هذا إن شاء الله .

هـذه نماذج من كتب الإمام عليه السلام إلى عماله تبيّن بكل وضوح وجلاء خط علي المستقيم ، علي الذي لا يساوم على دينه ولا يهادن أحداً مهما كانت شخصيته ومنزلته ، فإن الأعمال هي التي ترفع الرجال وعلى أساسها يكون الحساب ، ولو كان غير علي وفي تلك الظروف التي يمرّ بهـا لأطبق جفنيه وسكت طلباً لرضا الوالي وشراءً لضميره ،حتى لا ينحرف عنه ويتخذ الى معاوية طريقاً يوصله إليه .

أقول : لو كان غير علي في تلك الظروف لمَا حرّك ساكناً ، بل بارك له في عمله وسدّد له تصرّفه ، كي يبقى الى جانبه يُعينه في حربه مع ألدّ أعداء الدين معاوية ، ولكنه (علي) الذي لم يعرف قلبه إلا الحق والعدل والإنصاف ، ولو كان لأقرب المقرّبين إليه وأعزّهم لديه .

هـذا هو موقف علي .. وهيّا بنا لننظر الى خليفة قد تقدّم عليه ، لنرى هل استطاع أن يسيطر على هواه ويتخذ الحق والعدل إماماً ، أم كان مثل ذلك الوالي الجشع الذي خاطبه الإمام بقوله: (لجمل أهلك وشسع نعلك خير منك).

نقل البلاذري : لما قدِمَ الوليـــد الكوفة – والياً من قِبَل عثمان – ألفى

ابن مسعود على بيت المال فاستقرضه مالاً – وقد كانت الولاة تفعل ذلك ثم ترد ما تأخذه – فأقرضه عبدالله ما سأله ، ثم انه اقتضاه إياه فكتب الوليد في ذلك الى عثمان، فكتب عثمان الى عبدالله بن مسعود : « إنما انت خازن لنا فلا تعرض للوليد فيما أخذ من المال » . فطرح ابن مسعود المفاتيح وقال : كنت أظن أني خازن للمسلمين ، فأما إذا كنتُ خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك ، ثم قال : مَن غيّر غيّر الله ما به ، ومَن بَدّل أسخط الله عليه ، وما أرى صاحبكم إلا وقد غيّر وبَدّل ...

فهذا الفصل بهذه الصورة يقدّم لنا الخيانة بشكل غريب ورهيب ، حيث يوافق خليفة المسلمين في عملية السلب والغصب، فبدلاً من إيقاف الوليد وحسابه إذا به يعكس الأمر فيحاسب خازن المال ويكتب إليه ان لا يتعرّض للوليد ، ولو جئنا لنسأل الخليفة عن هذا التصرف فجواب ذلك جاهز ولسانه زلق فصيح فهو ببداهة فذة يجيب : (أنا أحتسب [1] في إعطاء قرابتي) . وكأن هذا هو الجواب المنطقي الذي يقنع سائر الناس وينسجم مع روح العدل والإيمان،ولكن الأمر ليس كذلك يا خليفة المسلمين ، أفلم يكن للنبي قرابة ؟! أفلم يكن للذين تقدّما عليك – أبي بكر وعمر – قرابة ؟ فلماذا لم يحتسب النبي ؟ ولمَ لم يحتسبا ؟ ولماذا لم يعطيا لقرابتهما ؟.

وهل يمكن لمسلم أن يتفوّه بأن أموال المسلمين وجنى سيوفهم ترد إلى غير أفواههم ، ترد الى الامويين خاصة ؟ فكأن الله أنزل فيهم قرآناً خصّهم دون غيرهم ، أو كأن السنة جاءت بتشريع خاص بهم يبيح لهم أموال المسلمين وأرزاقهم ، لعل سرّ ذلك عند الخليفة عثمان محفوظ !..

إن مَن يقف أمام كتب الإمام عليه السلام الى عماله يجد الحنوّ والرفق في الرعيّة والعمال إن كانوا مخلصين ، ويجد الشدة والقسوة على عماله الذين يخالفون الحق

---

(١) عن الغدير ، ج ٨ ص ٢٦٩ .

ويرهقون الناس بأعمالهم وأفعالهم .. نجد الشدة والقسوة على العمال المنحرفين ، ونجد الإكبار والإشادة لمن أطاع الله وحفظ حقوق المسلمين وراعى واجباته اتجاه رعيته .

فهذا كتاب الإمام الى عبدالله بن عباس بعد مقتل محمد بن أبي بكر ، يذكر فيه مآثر محمد ويعدّد محاسنه الرفيعة التي أوجبت له محبة الإمام وتقديره :

أما بعد ، فإن مصر قد افتتحت ومحمد بن ابي بكر (رحمه الله) قد استشهد فعند الله نحتسبه ولداً ناصحاً وعاملاً كادحاً وسيفاً قاطعاً وركناً دافعاً .

وهناك نظير هذا الكتاب ما تقدّم في الثناء والمدح على رجل استحق الإطراء والمدح ، ألا وهو مالك بن الحارث الأشتر ، يقول في أحد كتبه الى أهل مصر :

أما بعد ، فقد بعثت إليكم عبداً من عباد الله لا ينام أيام الخوف ولا ينكل عن الأعداء ساعات الروع أشد على الفجّار من حريق النار – وهو مالك بن الحارث أخو مذحج – فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طابق الحق ، فإنه سيف من سيوف الله لا كليل الظبة ولا نابي الضريبة ، فإن أمركم أن تنفروا فانفروا وإن أمركم أن تقيموا فأقيموا ، فإنه لا يُقدِم ولا يحجم ولا يؤخر ولا يقدّم إلا عن أمري ، وقد آثرتكم به على[1] نفسي لنصيحته لكم وشدة شكيمته على عدوكم . . .

فانظر الى هذا الإطراء الرفيع الذي وَصَفَ به الأشتر ومحمد بن ابي بكر آية في قمة الثقة بهما والإشادة بمحامدهما ، فإن قوله (وقد آثرتكم به على نفسي) يعطي لهذا الرجل قيمة فوق قيَم الناس جميعاً ، إذ لا بد وأن يكون هذا الإنسان قد تمتع بصفات ومواهب فذّة لفتت أنظار الإمام إليه ، حتى أعطاه هذه الشهادة العظيمة التي تمتد إليها الأعناق ويتمناها الرجال .

---

(١) نهج البلاغة ، باب الكتب ص ٤١١ .

وقفات على أعتاب العدل العلوي

هـذه بعض المفردات التي أذكرها كشواهد على عدل الإمام ، إنها جزئيات ذلك العدل الكلي الذي عاش في نفس الإمام وفي حياته ، هي شواهد تعيد لنا تلك الأيام الماضية والحوادث الخالية التي نستشف عَبيرها ونأخذ عِبَرها دروساً عالية في هذا المضمار .

١ – ان سودة بنت عمارة الهمدانية دخلت على معاوية بعـد موت علي ، فجعل يؤنبها على تحريضها عليه أيام صفين، وآل أمره إلى أن قال: ما حاجتك؟

قالت : ان الله سائلك عن أمرنا ، ومـا افترض عليك من حقنا ، ولا يزال يتقدم علينا من قبلك ، من يسمو بمكانك ويبطش بقوة سلطانك، فيحصدنا حصد السنبل ، ويدوسنا دوس الحرمل ، يسومنا الخسف ويذيقنا الحتف هذا بسر بن ارطأة قدم علينا فقتل رجالنا وأخذ أموالنا، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة فإن عزلته عنا شكرناك وإلا كفرناك .

فقال معاوية : إياي تهددين بقومك يا سودة ؟ لقد هممت أن أحملك على قتب فأردك إليه فينفذ فيك حكمه .

فأطرقت سودة ساعة ثم قالت :

صـلى الإله على روح تضمنها قـبر فأصبح فيه العدل مدفونا

قد حالف الحق لا يبغي به بدلاً فصار بالحق والإيمان مقروناً

فقال معاوية : من هذا يا سودة .

قالت : هو والله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، والله لقد جئته في رجل كان قد ولاه صدقاتنا ، فجار علينا فصادفته قائماً يصلي ، فلما رآني انفتل من صلاته ، ثم أقبل عليّ برحمة ورفق ورأفة وتعطف وقال : ألكِ حاجة ؟

قلت : نعم فأخبرته الخبر ، فبكى ثم قال : اللهم أنت الشاهد عليّ وعليهم ، وإني لم آمرهم بظلم خلقك ، ثم أخرج قطعة جلد فكتب فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم قد جاءتكم بينة من ربكم ، فاوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، فإذا قرأت كتابي هذا ، فاحتفظ بما في يدك من عملنا حتى يقدم عليك من يقبضه منك والسلام .

هذه الحادثة كنت لا أريد أن أعلق عليها بشيء ، كنت أُريد أن أتركها للانسان الواعي كي يفكر وينظر إلى هذين الموقفين ، موقف إمام الحق والهدى الإمام علي وموقف إمام الضلالة والردى معاوية الباغي ، ولكن ألحّت عليّ نفسي وأبت ، إلا أن تدخل في الحديث بما يتصل بهذه الواقعة .

إن هذين البيتين من الشعر قد كتبا على صحيفة ذهبية ، ووضعت فوق الضريح المقدسة للامام علي في النجف الأشرف ، يراهما من زار تلك البقعة المقدسة وتشرّف بلثم ثراها ، أنهما يعبران عن لسان الواقع الذي عاشه علي في عدله ، فلما فقد صلوات الله عليه فقد العدل وساد الجور .

ثم ان ورود اسم بسر بن ارطأة ، لا يمكن أن يمر دون أن يحمل جراثيم الفساد ، ويذكرنا بمواقفه المخزية التي ذاقت الامة المسلمة على يديه ويدي استاذه معاوية أسوأ وأقسى ما قاسته امة على وجه الأرض .

الله أكبر ! كم لاقت هذه الامة من بني أمية وعمالهم الطغام ، وكم ذاقت على

يدي هـــذا المسخ اللئيم ، لقد سنّ له معاوية الاسلوب الذي يتبعه ويسير عليه عندما أرسله إلى الحجاز واليمن – وهما تابعان لسلطان الإمام وحكمه ، قال له موصياً :

سر حتى تمر بالمدينة فاطرد الناس ، واخف من مررت بـه ، وانهب أموال كل من أصبت له مالاً ، ممن لم يدخل في طاعتنا.. ثم سر حتى تدخل مكة، ولا تعرض فيها لأحد ، وارهب الناس عنك فيما بين المدينة ومكة واجعلها شرداً .

وقد سار بسر المجرم يحصد الأخضر واليابس ، ويأتي على الحرث والنسل ، لم يعف عن الشيوخ العُجّز ، ولا عن الأطفال الرضع ، لقد عرض خلقاً كثيراً على حدّ السيف ، حتى أنه عندما عاد من رحلته تلك ، عاد يحمل إلى معلمه معاوية قائمة بثلاثين الف نسمة ، قد حصد قسماً منهم بالسيف، وأحرق بالنار قسماً آخر لم يعف بسر حتى عن الأطفال، فقد شملهم ظلمه وإجرامه، إذ ذبح بمديته طفلين لعبيد الله بن العباس ، لم تأخذه رأفة عليهما ، ولا عطف قلبه على نعومتهما ، ممـا جعل إمرأة من بني كنانة تقول : هذه الرجال يقتلها ، فما بال الولدان ، والله ما كانوا يقتلون في جاهلية ولا إسلام ، والله ان سلطاناً لا يشتد إلا بقتل الضرع الضعيف والشيخ الكبير ورفع الرحمة وقطع الأرحام لسلطان سوء ...

إن معلمه قـــد وجهه وجهته وهو المطيع له ، وإن كان في إطاعته معصية الخالق والكفر بالله العظيم ، إنهم اناس لا يعبدون الله ولا يتوجهون إليه ، إنمـا يعبدون معاوية ويزيد وخلفاء بني أمية الطغاة، هؤلاء هم آلهتهم وإليهم يتوجهون في العبادة وإنك لو ضربت بطرفك نحو جرائم الأمويين وجرائم ولاتهم ، لجئت بكتاب يضم عدة مجلدات .

وهنا قد يقول البعض ان هذا تطرف في الحكم على الأشخاص ، وهـل يعبد المسلم غير الله ، وأنا لا أجيب على ذلك ، ولكن أعود معكم إلى مـا نقله صاحب كتاب الامامة والسياسة وغيره من المؤرخين، عندما تعرض لقصة سعيدبن جبير ووقوعه في أيدي خالد بن عبدالله القسري ، فقد تقدم له بعض الناس قائلين : لو

جملته فيما بينك وبين الله ، لكان أزكى من كل عمل يتقرب به إلى الله ، فقال خالد : وقد كان ظهره إلى الكعبة ، قد استند إليها : والله لو علمت [1] ان عبد الملك لا يرضى عني إلا بنقض هذا البيت حجراً حجراً لنقضته في مرضاته .

وإذا أردت أن تنظر إلى اللائحة السوداء الملطخة بالدماء ، فما عليك إلا أن ترجع إلى تاريخ الأمويين لترى تلك السلسلة المشوهة التي لاحقت المسلمين تحت كل حجر ومدر ، فأبصر ولاة الأمويين أمثال مسلم بن عقبة الذي غزا المدينة في وقعة الحرة ، وقتل ثمانين رجلاً من أصحاب رسول الله ، ولم يبق بدرياً بعدها ، ومن قريش والأنصار قد قتل سبعمائة ، ومن سائر الناس من الموالي والعرب والتابعين عشرة آلاف ، واستباحها لجنده ثلاثة أيام يعيثون الفساد ويمعنون هتكاً في الأعراض حتى أن الرجل إذا أراد أن يزوج ابنته لم يضمن بكارتها خوفاً من تلك الواقعة .

وأبصر زيادبن ابيه وما فعله في شيعة علي حيث لاحقهم ،فقطع الأيدي وسمل الأعين وشردهم في البراري والقفار .

وهلمّ إلى الحجاج وما فعله ، فاقرأ تلك الأيام المظلمة التي شيدت عروش الأمويين على جماجم المسلمين ، وأين هذا من عدل الامام ، ومن وصاياه إلى عماله فقد تقدم جملة من كتبه التي أبانت معالم الحق والعدل عنده ، وكيف كان يقف من اولئك العمال موقف المحاسب الرقيب الذي يحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة.

وإذا أردنا أن نعرف قيمة العدالة عند الامام بصورة أوسع ، وندرك عمق النظرة العلوية إلى هذا المفهوم الاسلامي ، فما علينا إلا أن نقرأ بعض كتبه التي تعد من مصادر الأحكام والتي كتبها ، فأسس فيها عماد الحق ، وأبان بها وجه العدالة المطلقة التي يحن إليها الناس ، وتتشوق البشرية نحوها ، متطلعة إلى اليوم

---

(١) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٤٢ .

الذي تتحقق فيه متمنية أن تعيش تحت ظلالها . فاسمعه حيث يكتب إلى من كان يستعمله على الصدقات :

« انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تروّعن مسلماً ، ولا تجتازن عليه كارهاً ، ولا تأخذ منه أكثر من حق الله في ماله ، فإذا قدمت على الحي فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم ، ثم أمض إليهم بالسكينة والوقار، حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخرج بالتحية لهم .

ثم تقول : يا عباد الله أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم ، فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه ، فإن قال قائل : لا ، فلا تراجعه ، وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعده أو تعسفه أو ترهقه ، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا باذنه ، فإن أكثرها له ، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به . ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها ولا تسوءن صاحبها فيها واصدع المال صدعين ثم خيره ، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره ،ثم اصدع الباقي صدعين ثم خيّره ، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره. فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله ، فاقبض حق الله منه .

ويكتب كتاباً آخر إلى جباة الزكاة يقول لهم فيه : فانصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم ، فإنكم خزان الرعية ووكلاء الامة وسفراء الأئمة.

وقال لابن عباس وقد استعمله على البصرة بعد فراغه من أصحاب الجمل : أوصيك بتقوى الله عز وجل والعدل على من ولاك الله أمره اتسع للناس بوجهك وعلمك وحكمك وإياك والإحن ، فإنها تميت القلب والحق ،واعلم ان ما قربك[1] من الله بعدك من النار ، وما قربك من النار بعدك من الله ، أذكر الله كثيراً ، ولا تكن من الغافلين .

---

(١) الإمامة والسياسة ج ١ ص ٧٩ .

هذه هي فقرات الحق والعدل يأمر بها الامام وكلاءه كي ينهجوا على الطريق النيّر والدرب المستقيم ، فلا يكونوا على الناس كالسباع الضارية تأكل ما تجد وتطلب ما لا تجد ، ان العمال وجباة الأموال والامراء هم خدام هـذا المجتمع يحافظون على الحق ويدافعون عنـه ، يهتمون بالفقراء ويعملون على إعانتهم وإسعافهم ومدّهم بما يقدرون عليه ، إنهم ليسوا جبابرة أو طغاة ولا فراعنة أو آلهة ، إنهم نُصّبوا في هذه المراكز من أجـل تسيّر الامور بالحق ، ومن أجل رعاية هذه الامة ، فيجب عليهم أن يوفروا الأمن لكل أفراد المجتمع ، الأمن على الأنفس والأموال والأعراض ، وأن يسدوا خلة المحتاج ويرفعوا عوز الفقير والمسكين .

إني امرأة من العرب

بهذه الحجة الواهية أرادت أن تستميل علياً عن دينه وتخرجه عن طريقته . إنها امرأة من العرب ، وكأن للعرب – في نظرهـا – ميزة على غيرهم .. إنها تعيش الروح القبليـة العنصرية التي أتى عليها الإسلام فمحاها من أساسها وقضى على كل مَن يرفع شعار التمايز بالألوان والدماء والأنساب .

إنه الإسلام الذي خاطب البشرية على امتدادها وناداها بهذا النداء العـام : « يا أيها الناس[1] إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عنـد الله أتقاكم » ... فعلى أساسها يتقدم فرد ويتأخر آخر ، وعلى أساسها يكون الإكرام والتقدير والثقة والاطمئنان .

وهذا الدستور القرآني قد عاش في وجدان علي وضميره وانعكس على سائر تصرفاته وأعماله ، حتى في أحرج الظروف وأقساها كان الإمام لا يخالف طريقته التي رسمها له الاسلام وبيّنها له رسوله الأمين .

إن الإسلام قد قضى على الفوارق الاجتماعية التي خلقتها الاعتبارات الطبقية او العنصرية ، فليس للغني ميزة على الفقير ولا للعربي فضل على الأعجمي ولا للأبيض درجة على الأسود ، الناس كلهم عبيد الله وهم أمامه متساوون ، هو خلقهم وإليه مرجعهم ومآبهم .

وهذه إحدى الوقائع التي تجري أمام علي وتقرع سمعه بدعوى باطلة وحجة

(١) سورة الحجرات / ١٣ .

واهية ، إنها واقعة لا تستحق الاهتمام والالتفات ، ولكنها على كل حال احدى الدعاوى التي سوف يواجهها الإمام بالإنكار .

إنها امرأتان تتقدمان من الإمام تدفعها الحاجة ويقودهما العوز فيدفع لكل منهما دراهم وطعاماً بالتساوي كما أراد الله ، إنه ميزان العدل الذي لا تفــاوت فيه ، ميزان واحد يجري على الذكر والانثى، على العربي والعجمي .. إن المال مال الله والناس عبيد الله ، يقسم بينهم بالسوية دون تفاوت او زيادة لأحد على حساب الآخرين .

ولكن احدى المرأتين تأبى ان تتساوى مع اختها المسلمة ، بل تطلب الزيادة عليها قائلة للامام : « اني امرأة من العرب وهذه من العجم » .

إنها امرأة تعيش بعض الكِبْر والعــلوّ وترى لنفسها ميزة تفقدها المرأة الاخرى ، فلذا أرادت بهذه الصفة ان تأخذ أزيد من حقها ، انها تصوّرت بهذه الدعوة انها تكتسب رضا الإمام وتستميله الى جانبها وتحصل على مــا تريد ، ولكن الإمام الذي يمثل العدل بأفقه الكبير لا تحركه هذه الدعوة إلا ضد مَن تدّعيها ، لأنها دعوة جائرة مبتنية على أُسس فاسدة ينكرها الإمام ويحاربها ، فلذا أجابها الإمام قائلاً : « اني والله لا أجد لبني اسماعيل في هذا الفيء فضلاً علي بني اسحاق » .

إنه درس من دروس علي ما أحوجنا إليه في هذه الظروف التي يعتدي فيها الإنسان على أخيه الإنسان ويتجاوز حقوقه ليسطو على حقوق الآخرين .

إن السرقات التي يمارسها المسؤولون والكبار في الحكم قد أصبحت جزءاً من وجودهم وأساساً من أسسهم ، فكيف يقيمون العدل بين الناس ومنهم أتى الجور وعلى أيديهم جرى الظلم والانحراف ؟ ما أشوقنا الى إنسان يمثل علياً ويسير بسلوكه فيطبّق ميزان العدالة ويجري بأمر الله ونهيه ، فيعيش الناس بعــدله ويأمنون بوجوده .

للعدل لا للمصلحة الشخصية

إن المشاهد المختلفة للحكام الجائرين تمرُّ بأشكال مرعبة مخيفة ، فترى الحاكم – حفاظاً على شخصيته وحكمه – يكرّس الاقطاع والعشائرية الظالمة ويرفد رؤساءهم بالأموال والأعطيات ويغدق عليهم بدون حساب، من أجل ان يسبّحوا باسمه ويعلنوا تأييدهم له .. إنه يبصر بأم عينيه كيف يعاني الشعب من ظلم الولاة وجورهم ، ويرى بشكل سافر الممارسات الحمقى الجائرة التي يقوم بها ولاته ومعاونوه.. إنه يرى الرشوة تملأ جيوب الوزراء والنواب والمسؤولين، ومع ذلك يباركها ويسدّد خطى أصحابها خوفاً منهم إن هو حاسبهم أن يقفوا في وجهه فيخذلوه او يعلنوا المعارضة عليه فيحاربوه .

إن الحاكم عند وصوله الى سدّة الحكم يكون قد تعاقد مع نفسه ان يستمر في حكمه ، فيعمل بكل السبل من أجل بقائه في مركزه ، مركز القيادة والرئاسة .

ومن هنا لا يحاول ان يمسّ شؤون المسؤولين في دولته ، إنه يسترضي اولئك الكبار في بلاده ممن يتمتعون بشعبية او يقودون أحزاباً وتكتلات ، مهما كان ضلال هؤلاء القادة ورؤساء هذه الأحزاب .

إنه يرى كيف يتمّ القضاء على العدل ويُعمل بالجور من قِبَل هؤلاء المسؤولين.

إنه على مرأى ومسمع من أنين المظلومين وسغب الجائعين الذين ظُلموا من قبَل المسؤولين الذين أيّدهم هذا الحاكم ووافقهم على ظلمهم .

إنه - لمصلحة نفسه وبقـائه في سدّة الحكم وعلى رأس الدولة - يضحّي بكل المُثل والقيَم والمبادىء الانسانية الشريفة ، فليس من أجل الحق والعدل يعمل، بل من أجل نفسه ، فإذا تعارضت مصلحته مع العدل الاجتماعي فليذهب العدل والعادلون الى حيث لا رجعـة ولا عودة ، إنه إنسان أناني أطاح بكل بنود العدالة من أجل نفسه .

هكذا في حياتنا تبـدو الصور ويمرُّ شريط الحكام والمسؤولين ، عنـد استعراضه .. وهكذا كانوا ولا يزالون ، إلا ثلة قليلة تتجسّد في الأنبياء والأئمة ، هؤلاء فقط استطاعوا أن يدقوا أبواب الحرب على الظلم والظالمين ، أين وُجـد الظلم وأين حلَّ الظالمون .

إنهم الأنبياء والأئمة قادة العدل ولسان الحق ، وقد مثّل الإمام علي عليه السلام دور الأنبياء في تحقيق العدالة ورفع راية الحق ، لقـد عاش مع الشعب وأدرك ما يعانيه هـذا الشعب من المسؤولين والحكام ، لقد قرع سمعه أنين المظلومين والإجحاف بحقوق الفقراء والمساكين ، فلذا أعلنهـا ثورة على الظلم والظالمين ، ثورة لا تنتهي بنظره إلا بالقضاء على الجذور التي خلقت الظلم وأعانت الظالمين .. وقد كان مصداق ما أقول من سيرة الإمام ما روَته كتب التاريخ :

فقد تقدم المغيرة بن شعبة ينصح الإمام بإبقـاء معاوية على الشام .. يقول ابن عباس :

دخلت على الإمام - وكان عنده المغيرة بن شعبة - فجلست حتى خرج ، ثم دخلت عليه فسألني وسألته ، ثم قلت له : ما قال لك الخارج من عنـدك آنفاً ؟ قال : قال لي قبل هذه الدخلة : أرسل[1] الى عبدالله بن عامر بعهده على البصرة

---

(١) الإمامة والسياسة ، ج ١ ص ٤٨ .

وإلى معاوية بعهده على الشام، فإنك تهدّىء عليك البلاد وتسكّن عليك الناس، ثم أتاني الآن فقال لي : إني كنت أشرت عليك برأي لم أتعقبه فلم أرَ ذلك رأياً، وإني أرى ان تنبذ إليهما العداوة فقد كفاك الله عثمان وهما أهون مؤونة منه .

فقال له ابن عباس : أما المرة الاولى فقد نصحك فيها ، وأما الثانية فقد غشّك فيها .

وكان الإمام عليه السلام قد أجاب المغيرة بالرفض المطلق لفكرة إبقاء معاوية على الشام ، إنه يعرف مَن هو معاوية ، وقد وقف الإمام على الطريقة القيصرية التي يسير عليها والي الشام ، إنه يرى إمعانه في الجور والظلم دون رقيب او حسيب ، لقد اطلقت يداه في امور أهل الشام يتصرف كما يحب ويريد ، دون وازع من دين او رادع من ضمير .

فقد ذكر ابن قتيبة في كتاب الإمامة والسياسة : ان معاوية قال لجرير – وكان قد أرسله الإمام الى الشام ليأخذ له البيعة من معاوية – : اني قد رأيت رأياً ، قال جرير : هات ، قال : اكتب الى علي ان يجعل لي الشام ومصر جباية فإن حضرته الوفاة لم يجعل لأحد من بعده في عنقي بيعة واسلم إليه هذا الأمر وأكتب إليه بالخلافة .

وقد ردّ الإمام الجواب الى جرير ، وكان من جملته :

« وقد كان المغيرة بن شعبة أشار عليّ وأنا بالمدينة أن أستعمله – معاوية – على الشام فأبيتُ ذلك عليه ، ولم يكن الله ليراني أتخذ المضلّين عضداً .. » .

إن علياً – لو أراد ان يداهن في الحق ويُقرّ الجور ولو لبضعة شهور – لاستعمل معاوية على الشام ، ولكنه (علي) صاحب المبادىء والمُثُل ، إن وظيفته كراعٍ للحق ومشرّع للناس ، يتنافى مع إقراره لمعاوية وإبقائه على الشام ولو للحظات من الزمن فضلاً عن الشهور .

هذه سيرة علي عليه السلام ترفض التعامل مع الظالمين وإن كان في التعامل معهم

مصلحة شخصية لعلي نفسه ، إنه خط الرفض للظلم بل الإجهاز عليه ، ولو أدّى ذلك الى الحرب والقتال وإراقة الدماء .

أعلن الإمام بصراحة فائقة النظير عدم مهادنته للظلم مهما كانت عواقب ذلك ونتائجه عليه ، فقد رجع الى الكوفة بعد معركة النهروان وأخذ يحث أصحابه للجهاد وملاقاة أهل الشام ، فكانوا يتباطؤون عن إجابته ويلوذون في بيوتهم ، فقام عندها بعض اصحابه إليه قائلاً :

يا امير المؤمنين ، اعطِ هــذه الأموال وفضّلْ هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي ممن يُتخوّف خلافه على الناس وفراقه ، إن هذا هو الذي كان يصنعه معاوية بمن أتاه، وإنما عامة الناس همّهم الدنيا ولها يسعون وفيها يكدحون فاعطِ هؤلاء الأشراف ، فإذا استقام لك مـا تريد عدتَ الى أحسن ما كنت عليه من القسم .

هذا هو الدواء الناجع في نظر هذا الإنسان، فلذا أبدى نصحه للإمام وتوقع منه ان يجور فيفاضل بين الناس ولو في العطاء لبعض الوقت، لقد تخيّل ان هذه الطريقة وإن كانت جائرة يجب على الإمام ان يقوم بها ، لقد نسي مقـام علي ومهمته ، إنه ليس حاكماً كسائر الحكام الذين يعتلون عرش الخلافة فيأخذون منها حاجتهم ويُشبعون رغباتهم ثم ينزلون عنهـا لغيرهم ، لقد نسي ان الإمام دوراً عظيماً رائـداً هو تأسيس وتركيز المثُل الاسلامية والإصرار على الحق والعدالة مهما كانت الظروف والمعوقات ، فلذا أجابه الإمام بكلمة غرّاء ستبقى دستوراً لكل الشرفاء من الحكام الذين يحبون تحقيق العدالة ويصبون إليها ، قال له الإمام :

« أتأمروني ان اطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه من المسلمين ؟ فوالله لا أفعل ذلك مـا لاح في السماء نجم ، والله لو كان المال لي لسوّيت بينهم ، فكيف وهي أموالهم ؟ » .

العدل في الرعية والقسم بالسوية دون محاباة لشريف او طمع في نصرة قوي،

كانت سيرة الأنبياء وعليها سار علي لا يعدوها ولا يتجاوز عنها ، فلذا بقي في سجلّ الخالدين الى يوم الدين .

بل إذا أردت شاهداً أجلى من ذلك يؤكد إصرار الإمام وإيمانه بالعدالة ، فما عليك إلا أن تلقي بنظرك نحو سيرته المباركة لتدرك عمق تعلُّقه بهذا المبدأ الاسلامي العظيم ، إنه يرفض عرش الخلافة الاسلامية الذي يمثل أعظم سلطة في البلاد ، إنه يرفض هذا المقام إذا تضمّن ما يخالف الحق والعدل ، فلذا نرى انه عندما عرض عليه عبد الرحمن بن عوف البيعة شريطة ان يسير بسيرة الشيخين أبى الإمام قبولها بهذا الشرط ، لأنه على علم بالمفارقات التي حصلت بين سيرتي الرجلين، فقد حصل كثير من الوقائع خالف الثاني فيها الأول ، بل هناك أخطاء صدرت من كل منهما ، فكيف يرضى علي بالبيعة ويُقرّ الخطأ والانحراف ؟ إن علياً نفسه هو الحق ومعه الحق،فأعماله وأقواله هي الحجة وبها يدان الله فكيف يتبع غيره في سيرة غير صحيحة ولا سليمة وعلي أحق بالاتباع ؟ ما قيمة الخلافة إذا لم تدفع باطلاً او تحق حقاً ؟ إنها تصبح شهوة من شهوات الحكم واستطالة على رقاب العباد والبلاد ، وهذا يتنافى مع المبادىء التي يؤمن بها علي ويضحّي من أجلها ، فلذا يحدّث ابن عباس قال : دخلت على امير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله ، فقال لي [1] : ما قيمة هذا النعل ؟

فقلت : لا قيمة لها .

فقال عليه السلام : والله لهي أحب إليّ من إمرتكم إلا ان أقيم حقاً او أدفع باطلا.

هكذا يرى علي عظمة العدالة وقيمتها، إنها فوق جميع الاعتبارات الشخصية والميول النفسية ، إنهـــا من أجل الحق ولأجل رفع الظلم عن كاهل المظلومين والمضطهَدين ، فهل لهذا الإمام نظير او مثيل ؟ مَن ادّعى ذلك فقـــد افترى وعجز عن الإتيان بالنظير .

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ، ج ٣ ص ١٨٥ .

الفصل الرّابع

زهد الامام علي عليه السلام

أحرف مضيئة في سماء المجـــد

زهـــد وتقشف وعزوف عن الدنيا كانت تلك سيرة علي عليه السلام ، لا حباً بالزهد لنفسه بل ليهون على الفقير ما هو فيه من المسكنة والحاجـــة ، فالفقير عندما يرى إمام المسلمين في جشوبة عيشه وخشونة ملبسه ،تسكن نفسه ويخفف ذلك من آلامه ومتاعبه ، إنهـــا خلاصة زهديات علي عرفها النبي صلى الله عليه وآله بعلم الغيب والشهادة ، فصاغها بأحرف من نور نطق بها لتكون علامة فارقة لإنسان امتاز عن سائر البشر .

إنها الكلمات المضيئة التي تنير الدرب للسالكين وتكوّن محطات أمان لمن استلهم معناها واسترشد بهداها .

أكرم بكلام رسول الله وحديثه ، إنه الواحات الخضراء المعشوشبة في دنيا الظلام والجفاف ، ففي تلك الربوع يجد الإنسان الهداية والرشد ويأمن بها مزالق الطريق وعثراتها ، فإلى رسول الله تُشدُّ الرحال ، وعلى أعتـــابه وأعتاب أهل بيته تتطلع الأجيال .

بلّغ محمد رسالة ربه وأدّاها أحسن ما أدّاها مَن قبله من الأنبياء والمرسلين فأوضح السبل والمناهج وعيّن القـــادة والقيّمين من بعده ، فكان علي أول تلك الحلقة المباركة ومبدأ اشتقاقها .

لقد امتاز علي عليه السلام بكل صفات الكمال وفاز بها بتفوّق كبير جعلت من رسول الله صلى الله عليه وآله لساناً يفصح عن ذلك ويلهج به ، وكان لزهده صلوات الله عليه وعزوفه عن الدنيا رغبة في الآخرة ومواساة للفقراء ، أثر واضح في حياته قبل خلافته وبعدها ، مما جعله إمام الزهّاد وأرقى العباد .

وهذه بعض الكلمات المضيئة في زهد علي عليه السلام وتقشفه :

١ – عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي : إن الله عز وجل قد زيّنك بزينة لم يزيّن العباد بزينة أحب إليه منها وهي زينة الأبرار عند الله : الزهد [١] في الدنيا ، فجعلك لا ترزأ [٢] من الدنيا ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً ، ووصب [٣] إليك المساكين فجعلك ترضى بهم أتباعاً ويرضون بك إماماً .

٢ – قال عليه السلام :

ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه .. ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه .. ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك ، ولكن أعينوني بورعٍ واجتهاد وعفةٍ وسداد ، فوالله ما كنزتُ من دنياكم تبراً ولا ادّخرتُ من غنائمها وفراً ولا أعددتُ لبالي ثوبي طمراً ولا حزتُ من أرضها شبراً .

٣ – قال عليه السلام :

ولو شئتُ لاهتديتُ الطريقَ إلى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي الى تخيُّر

---

(١) ذخائر العقبى ، ص ١٠٠ .

(٢) ترزأ : تصيب .

(٣) وصب : أدام .

الأطعمة ، ولعل بالحجاز او اليمامة مَن لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع .. أو َأبيتُ مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرّى ؟!..

٤ – قال عليه السلام :

والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها ، ولقـــد قال لي قائل : ألا تنبذها عنك ؟ فقلت : اغرب عني فعند الصباح يحمد القوم السرى .

علـــي الزاهد

لقد وضع علي بسيرته أعظم الاسس التي عليها تشاد أعظم الأفكار وأعلاها في دنيا الزهد والتقشف ، هذا هو الزهد الإسلامي وليس الزهد الصوفي المتقوقع القذر الذي انحرف أصحابه عن جـادة الحق والهدى ، وتخيّلوا أموراً يبرأ الله منها ورسوله كمن يدعي إن الله في جبته ، أو ان الله قـد حل فيه أو غيرها من الإدعاءات الباطلة التي تدل على سفه أهلها وضلالهم وقـلة بضاعتهم في طاعة الله ورسوله ، فكانوا عالة على المجتمع وضريبة ثقيلة ممقوتة وجرائم فساد .

إن علياً مثّل الزهد الإسلامي الشريف الذي يحضّ عليه الشارع خصوصاً ، ممن كان في مركز القيادة ، وكان قادراً ومبسوط اليد لتناول الطيبات ومـا تشتهيه النفس وتلذه العين .

إن زهد علي هو الباب الواسع والمدخل الرئيسي الذي يستطيع الإنسان سلوكه دون أن ينحرف عقائدياً أو يضل فكرياً وسلوكياً ، إنها دعوة إلى الحد من الإسراف في الطيبات وتوفير بعضها ، إنها دعوة للاقتصاد في الملبس من أجل غاية هي أسمى ، إنها غاية أجل وأسمى من الطعام والشراب والملبس ، إنها غاية من أجـل جعل النفس شفافة تنظر إلى الناس ، وخصوصاً المعدمين منهم فتلمس نفوسهم ببعض تلك المتع وتدق على قلوبهم بأوتار المحبة التي تدفع هذا الإنسان كي يعيش آلامهم ويتحسس واقعهم فيرفق بهم ما أمكنه ذلك وسمحت له الظروف .

إن هـذا الزهد الإسلامي هو مفتاح الخير لجعل الإنسان يحس بحاجة أخيه الانسان ، فيندفع يؤثره على نفسه فيجوع ليُشبع غـيره ويسغب من أجل أن يرفع حاجة إنسان،إنه يلبس ما خشن من أجل أن يوفر لأخيه شيئاً من متع الحياة.

إن عملية الزهـد هي ترفع عن حطام الدنيا من أجل الآخرة ، فهو يملك كل الأشياء ولا يملكه شيء ، إن من يملك بعض حطام الدنيا ، ثم لا تسخو نفسه بها على الفقراء والمساكين، مثل هذا الانسان ليس مالكاً للمال ، بل المال هو المالك له ، فلذا لا تسخو نفسه بشيء منه ، ولا يستطيع أن يُخرج درهماً من جيبه إلا وتكاد أن تخرج أنفاسه معه . إن مثل هذا الانسان لا يستحق الحياة لأنه عبد مملوك للدرهم والدينار وحطام هذه الدار .

لقد وضع الإمام أسس الزهد والتنسك بسلوكه وسيرته ، ولعل أبلغ نقطة نكتشف بها شخصية ما نشره في نهجه ، وما خطب به فوق منبره وزهّد فيه أهل عصره ، فاسمعه واملأ نفسك من حديثه وعش معه بضع لحظات، وفكّر في هذه الكلمات لترى سمو هذا الرجل وسر عظمته .

إن خطب الامام تمثّل الروح التي تعيش فيه فكرياً وعقائدياً، وقد انعكس ذلك على سلوكه ، فلم يكن هناك أدنى انفصال بين الفكرة والسلوك ، بـين الشعار والتطبيق، بين القول والعمل، إنها الوحدة المنسجمة مع ذاتها ومع صفاتها فإلى جولة مع زهد الامام كما في نهجه .

الا وإن لكل مأموم إماماً :

يقول الامام في رسالته لابن حنيف عامله على البصرة ، وقد دعي إلى مأدبة أقامها له رجل من فتية أهل البصرة فسمع الامام بذلك ، وعلم أن هذه الوليمة لم يُدع لهـا أهلها من الفقراء والمساكين وأهل المتربة ، وإنما دعي إليها الأغنياء والوجهاء وأهل الدنيا فحسب دون أن يشركهم فيها غيرهم ، فقد كان لهـذه الوليمة شأن كبير عند الامام استدعت منه أن يكوّن كتاباً أخلاقياً رائعاً لعماله

ولكل الناس في عصره،وفي جميع العصور بـيّن فيه أعظم الاسس التي يقام عليها الزهد والتقشف ، وتضع اعلاماً واضحة ودلالات ظاهرة على نسك علي وزهده يقول عليه السلام في ذلك الكتاب :

أما بعد يا ابن حنيف ، فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهـل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان ، ومـــا ظننت إنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو ، فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم ، فما اشتبه عليك علمه فالفظه ، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه.

هذه فقرات من ذلك الكتاب إنها نظرة الامام الكبيرة التي يتطلع فيها إلى اليوم الذي يعيش المجتمع بأفراده مـــع الضعفاء والفقراء ، ويحس فيه الأغنياء والوجهاء وأصحاب المسؤولية بحاجة هؤلاء المستضعفين والفقراء فيوجهون كل جهدهم من أجل رفع الاضطهاد عنهم وإعانتهم في حياتهم ، إنه الحس الداخلي والمسؤولية التي ألقاها الله على كاهل الامام ، فكيف يرى هذا المجتمع بما فيه من فقر وفاقة ، ثم يغمض عينيه سادلاً دونه ستراً وحجاباً ، بل نفس علي الكبيرة تتحرى كل فرد في المجتمع لتؤمن له متطلباته وتوفر له احتياجاته .

إن الامام قـــد سمع بهذه الوليمة ، إنها دعوة للوالي الذي نصبه علي على البصرة ، وللوالي في نظر علي شأن غـير شؤون الناس يجب عليه أن يلتفت إلى الامور من زاوية المسؤولية التي تحمّل ثقلها ورشح نفسه لرفعها ، ولذا ترى إن علياً يتصفح وجوه المدعويين ليرى هـل من المناسب أن يستجيب هذا العامل للدعوة الموجهة إليه أو يرفض الاستجابة ، فإن كانت وليمة ذات طابع إنساني إسلامي تنظر إلى عباد الله من المحتاجين والفقراء وأهل المسكنة ، فهي الوليمة التي يرغـّب الامام في إقامتها ، ويحبّب في الاستجابة لصاحبها ، أما إذا كانت وليمة تتضمن خلفيات ممقوتـــة ، وتحتوي على انحراف في نظرة صاحبها ، إذا كانت وليمة لأجل رضا الوالي الجديـد واكتساب وده ، أو لاظهار ان صاحبها من الوجهاء، إن كانت لأجل الأغنياء والوجهاء وذوو المكانة العالية ، دون أن

يكون للفقراء وأهل المترتبة والمساكين حظ منها، فهي وليمة يترفع الامام وتبعاً له ولاته يترفعون عن الاشتراك فيها والقرب منها .

ثم يشرح الإمام وضعه وهو في منصب الخلافـــة والقيادة يشرحه إلى ابن حنيف كي لا يغتر هذا الوالي ويغتنم الفرصة في الحصول على الملذات والشهوات التي يوفـّرها له منصبه كوالٍ ، فيقول عليه السلام :

ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه ، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمرية ومن طعمه بقرصية ، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد ، فوالله ما كنزتُ من دنياكم تبراً ، ولا أدخرت من غنائمها وفراً ، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً ، ولا حزت من أرضها شبراً ، ولا أخذت منه إلا كقوت أتان دبرة ولهي في عيني أوهى وأهون من عفصة مقرة .

إن لكل مأموم إماماً يقتدي بـــه ويستضيء بنور علمه ، هذه هي القاعدة العامة ، فإن الأئمة تختلف وتتنوع ، فمنهم أئمة حق وهدى كالأنبياء والمرسلين والعظماء من خدمة الإنسانية ، ومنهم أئمـــة كفر وضلالة كمعاوية ويزيد وولاة الأمويين ، من الأئمة أئمة يدعون إلى إعانة الضعفاء والفقراء والمحتاجين ، وهؤلاء أئمة خير ورحمة ، ومنهم أئمـــة يدعون إلى سحق الطبقات الضعيفة والمعوزين، وهؤلاء أئمة الانحراف والطاغوت .

من الأئمة من يُعلـّم الناس الشره والنهم ويفتح بطنه لكل ما يشتهيه ،فلا يهمه غير نفسه ، ولا يشعر أنه أمام مسؤولية يجب القيام بهـــا ، فهو لا ينظر إلا من زاويته الخاصة التي ملكت عليه كل تفكيره وتصرفاته .

هذه هي حالة الأئمـــة على وجه الإجمال ، وهناك يأتي دور الاتباع الذين يختارون أئمتهم ، فمنهم من يختار أئمة الهدى ، الأئمـة الذين يدعون إلى الله وإلى إعانـة الفقراء فيعيشون آلام المعوزين والمحتاجين ، وتذوب نفوسهم عند رؤية فقير أو مسكين ، فيحاولون بجهدهم سدّ عوزه ورفع حاجته ، فيبيتون طاوين

من أجل توفير الحياة الأفضل لغيرهم ، ويبذلون أقصى جهودهم من أجل رفع الحيف والجور عنهم . ومن الأئمة من تشغله أكل الطيبات ، وقد صور الإمام صورة الخليفة الذي تقدمه بقوله : إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه ، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع ، إلى أن انتكث عليه فتله واجهز عليه عمله وكبت به بطنته . إنها الصورة المعبرة عن تمتع هذا الإنسان بمأكله ومشربه ، دون أن يكون له اتجاه أو همة غير ذلك ، وتبعاً له سارت أتباعه ، سار بنو أمية كما سار إمامهم، فكانت النتيجة الطبيعية التي يتوصل إليها حسب هذه المقدمات .

ومن هنا أراد الإمام أن يبيّن لابن حنيف طريقته في الحياة ، وزهده في الملذات ، وإن أكبر همه ليس إلا في توفير رغد الحياة لجميع المسلمين ، فلذا تراه يعرض صورة لنفسه وهو خليفة المسلمين يعرضها على ابن حنيف كي يقتدي به ويسير على منهاجه عاذراً له، إن لم يستطع أن يعيش كما عاش علي نفسه من جميع الجهات ، ولكن إذا لم يستطع أن يمثل الإمام ويقتدى به في كل أعماله وتصرفاته وزهده ، فليس معنى ذلك أن يترك ما يتمكن من الاقتداء به، فعليه أن يقتدي به حسب الإمكان ، وبقدر ما تتحمله قدرته ويطيقه عزمه . إنها صورة معبرة عن واقع الإمام المعاش ، إنها صورة رسمت بريشة الإمام نفسه، وهو أعلم الناس بها فهو يقول :

«ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمرية ومن طعمه بقرصية». إنها الدنيا ملك يديه ، فقد بسط سلطان ولايته على سائر الأقاليم الإسلامية باستثناء ما كان من بلاد الشام حيث يقيم طاغية الأمويين .

إنه خليفة المسلمين وعنده الصلاحيات الواسعة التي بها يستطيع أن يلبس أفخر الثياب وأجملها ، وأحسن أصنافها وأجودها ، هذه الدنيا بسعتها وما فيها من أرزاق وأموال وثياب وطعام، اكتفى منها علي بقرصية وطمرية، إنه منتهى الزهد والتقشف ، وغاية ما يمكن أن يصل إليه إنسان ، بل أقسم في إحدى

خطبه قائلاً : وايم الله – يميناً استثنى فيها بمشيئة الله -- لاروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً ، وتقنع بالملح مأدوماً .

ما أكبرك وأعظمك يا أمير المؤمنين الدنيا ملك يديك وأنت في أعلى منازل الحكم ، ومع كل هذا تتنازل عن متع الحياة كلها، وتترفع عن حطام هذه الدنيا، إنها نفس علوية في مرتقى الكمال وأعلى منازل العروج نحو الله ، إن علياً لا يحرم ذلك على نفسه ، ولا يحظّره على غيره ، وإنما يريد من نفسه ومن الناس أن يكونوا أصحاب شعور جياش وإحساس بحاجة المحتاجين والفقراء والمساكين فلا يتمتعوا بطيب الحياة وحولهم البطون الغرثى والأفواه الجائعة التي تحن إلى القد كما يقول علي نفسه : ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة ، ولعل بالحجاز أو اليمامة ، من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع ، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرى .

إن علياً يهتدي الطريق إلى مصفى هذا العسل، وهو شيء طيب للنفس تهواه ويروق لها ، وكذلك لباب القمح بدل الشعير المطحون ، إنه يستطيع الوصول إليه،ولكن هل هذه هي سيرة الامراء الصالحين الذين يهتمون برعيتهم ويسهرون من أجل صالحهم ، إن علياً يفصح عن السبب الداعي إلى عدم ذلك ، إنه يفكر بمن هو في أطراف دولته ، يفكر في البلاد النائية البعيدة عن أنظاره المتوارية خلف الافق ، لعل في أطراف تلك البلاد من لا يعرف الشبع ، ولا يطمع أن تصل يداه إلى قرص يسد به جوعته ، إنها نفس علي وتفكيره يدفعانه دائماً إلى أن يفكر بهؤلاء البعيدين عنه ، إنهم اناس مثله ، والله ولاه عليهم وهو مسؤول عنهم ، فكيف يتمتع بشيء يفوق ما عليه رعيته ، أن الواجب يدعوه ليتساوى مع أدناهم في المعيشة .

وهل يقنع علي بهذا المنصب ويكتفي أن يقال له أمير المؤمنين، ولا يشارك رعيته مكاره الدهر وجشوبة العيش ، هذا ما أبانه علي حيث قال :

أأقنع من نفسي بـأن يقال : هذا أمير المؤمنين ، ولا اشاركهم في مكاره الدهر أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش ، فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها أو المرسلة شغلها تقمّمها تكترش من اعلافها وتلهو عما يراد بها أو أترك سدى أو أهمـل عابثاً أو أجر حبل الضلالة أو اعتسف طريق المتاهة .

ويقول : أتمتلىء السائمة من رعيها فتبرك وتشبع الربيضة من عشبها فتربض ويأكل علي من زاده فيهجع قرّت إذاً عينه إذا اقتدى بعـد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعية .

هكذا يشرع علي قانون الحاكم والمحكوم، ويضع ميزاناً لرئيس الدولة، فعلى الشعب أن يحاسب هذا الحاكم ، وأن يقف في وجهه عند انحرافه عن هـذا الخط أو يبتعد عنه إلى غيره .

إنه خط واحد وهو المساواة بـين الحاكم والمحكوم ، فليس للخليفة سلطة أزيد مما جعل الله له من الحق ، بـل عليه المسؤولية أكبر وأضخم ، وحسابه أشد وأعسر إذ بيده أسباب الرفاه، وعليه أن يرفع الظلم ويحقق المساواة ، فإذا كان الجور والنهم يسيطران على نفسيته وأعمـاله ، فكيف يستطيع أن يفرض على الناس المساواة والايثار والعدل ، وكيف يضمن نجاح خطته في نشر مبادىء الحق والعدل وإقامة نظام الحياة الكامل .

إن علياً يفكر باولئك الذين اعيتهم السبل فباتوا صُفر اليدين ، فهو لا يأكل إلا ما يأكله ضعاف الناس وفقرائهم ، ولا يلبس إلا مـا يلبسه فقراء المسلمين ومساكينهم، وهذا يتضح بشكل ظاهر من خلال أقوال علي وأفعاله، فهذا هو يقول وقد طولب باستبدال مدرعته فقال : والله لقد رقعت مدرعتي هـذه حتى استحييت من راقعها ، ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت: أغرب عني فعند الصباح يحمد القوم السرى .

بربك فكـّر في هذا الرجل العظيم ، وحلـّل هذه الكلمات التي بين يديك ،

وقد عبّر بها علي عن واقعه الذي يعيشه ، وعن حاله التي هو عليها ، إنه أمير المؤمنين ويحتل المرتبة الاولى بين المسلمين ، وله الحق أن يلبس كما يلبس أواسط الناس ، فلا يلبس أفخر الملابس من الحرير والحلل السندسية ، ولا يلبس الثياب المرقعة البالية ، فعلى الأقل يحق له أن يكون كالكثرة الغالبة من المسلمين، ولكن مع هذا يرفض الإمام إلا أن يعيش كأضعف المسلمين وأفقرهم ، إنه يملك هذه المدرعة ، لا يملك غيرها ، وقد رقعها حتى استحي من راقعها ، ولكن هذه المدرعة المرقعة قد لفّت أطهر نفس بشرية وأسمى روح إنسانية،إنها ضمت إمام العدل والهدى وأعظم الناس وأكملهم ، لقد لفّت هذه المدرعة منتهى الكمال البشري ومفخرة الإنسانية ، إن هذه المدرعة شأن تعتز به الإنسانية ، ويتمنى المجتمع منذ غيابها إلى الآن ، أن تعود إلى الحكام الذين لم يقتدوا بصاحبها ، فلم تنفعهم تلك الثياب الحريرية الناعمة المخاطة بخيوط الذهب والفضة .

لقد خُلدت مدرعة علي المرقعة ، بينما فنيت ثياب الامراء والخلفاء من بعده، ولم يبق لها أثر ، لأن مدرعة علي جمعت خيوطها من كد علي وجهوده وضمت جسده الطاهر ونفسه الكبيرة التي عاشت من أجل الله والناس، وماتت في سبيل الله وهي تحمل هموم البائسين والفقراء ، بينما ثياب الحرير والاستبرق التي يرفل فيها الامراء ، كانت من أموال الشعب فقرائهم ومساكينهم وأراملهم وأيتامهم ، فحق لمدرعة علي أن تخلد بخلود علي وحق لثياب الامراء المصنوعة من الذهب والحرير أن تفنى وتزول، لأن أصحابها سرقوا أموال الناس واعتدوا على حقوقهم وكرامتهم ، ولم يفكروا بحالة البؤساء والمساكين .

إن علياً صاحب النفس الكبيرة لا يتأثر بمدرعته المرقعة، ولا تحجب هذه الرقع التي فيها، ما لنفسيته الكبيرة من طهر وقدسية وشفافية وروحانية، إن كل رقعة فيها ستغرس في نفوس الفقراء والمساكين حباً لعلي وإكباراً له وتعظيماً لشخصيته العظيمة، إذ من أجلهم رقّعها ولتوفير الحياة السعيدة لهم، لم يستبدلها فهل هناك أزهد من علي في هذه الدنيا ، إنه الزهد الإسلامي الذي يحض عليه الإسلام ويرغّب فيه .

الدنيا في نظر علي

لم يكن للدنيا من علي حظ ولا نصيب ، لقـد تمكنت أن تصطاد بشراكها خلقاً كثيراً ولكنها عجزت عن علي، إذ كان من الرعيل الذي كُشِف له النقاب فأدركها على حقيقتها وُهتِك الستر له فرأى وجهها الطبيعي كما هو واقعهـا ، لم تغرره محاسنها ولم تُمِله مشتهياتها ، فقد وقف منها موقف الخصم العنيد وانتصر عليها بإرادته وقوّته وعزيمته .

إن علياً نظر الى الدنيا نظرة مَن لا يستقر فيها ولا يخلد ، إذ لم يُخلق لها بل خُلق لأجل الآخرة ، وما الدنيا في نظره إلا دار ممر لا دار مقر ، بينما الآخرة هي دار القرار ، وإذا كان هذا هو الواقع وقد أيقن به علي ، فما عليه إلا أن يكون في هذا الممر كأشرف إنسان يشتغل في الدنيا لصالح الآخرة ويعيش فيها ليكتسب ما يؤهله في الآخرة لأرفع الدرجات وأعلى المرتقيات .. فاسمع لبعض مواقفه منها حيث يقول عليه السلام :

أيها الناس ، إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار ، فخذوا من ممركم لمقركم ولا تهتكوا أستاركم عند مَن يعلم أسراركم ، وأخرجوا من الدنيـا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها اختبرتم ولغيرها ُخلقتم .

ويقول عليه السلام :

وإنمـا الدنيا منتهى بصر الأعمى لا يبصر مما وراءها شيئاً ، والبصير ينفذها

بصره ويعلم أن الدار وراءهـا ، فالبصير منها شاخص والأعمى إليها شاخص ، والبصير منها متزوّد والأعمى لها متزوّد .

ويقول عليه السلام :

عباد الله ، اوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم ، وإن لم تحبوا تركها والمبلية لأجسامكم وإن كنتم تحبون تجديدها ، فلا تنافسوا في عز الدنيا وفخرها ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها ولا تجزعوا من ضرّائها وبؤسها ، فإن عزها وفخرها الى انقطاع وإن زينتها ونعيمها الى زوال ، وضرّاؤها وبؤسها الى نفاد .

إن علياً صبّ كل قدرته الهجومية على هذه الدنيا التي لا تدوم ، وقد كانت في نظره أحقر من أن يهتم بها او يعمل لها ، كيف يكون لها في قلب علي مقدار ذرّة من الحب وهو الذي صوّرها بأبشع صورة وأقبحها ، صورة تنفر منهـا الطباع وتشمئزّ من رؤيتها النفوس ، إنها صورة ممسوخة أصيبت بأقبح الأمراض وأشدّها عدوة وتنفيراً !.. لقد صوّرها الإمام كما في احدى خطبه بقوله :

« والله لدنيا كم هذه أهون في عيني من عراق خنزير في يد مجزوم » .

وهو الذي طلّق الدنيا ثلاثاً لا رجعة فيها ، إنها طلاق بائن لا يأسف عليها ولا يتحسر ، قـد طلّقها وهي مُلك يديه وهو في أوج مجده وعظمته ، فقد خاطبها بقوله :

« اغربي عني ، فوالله لا اذلّ لكِ فتستذليني ولا اسلس لكِ فتقوديني ، وايم الله يميناً استثنى فيهـا بمشيئة الله لاروضنّ نفسي رياضة تهش معها الى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً وتقنع بالملح مأدوماً » .

هذه وقفـة لعلي من الدنيا وما أكثر وقفاته معها ، إن له معها جولات ومحاورات ، لقد نفّر عنها كل من صلحت نفسه وحكّم عقله وضميره ، فقـد وعظ أصحابه وحذّرهم منهـا وعرّفهم شرها وخيرها وما تنطوي عليه أيامها ولياليها ، وقد خاطبها الإمام أكثر من مرة وبألحان مختلفة ، فهـا هو يخاطبها

خطاب مَن يعقل – وإن كانت لا تعقل – فلعل أهلها يعقلون، يخاطبها في جوف الليل عندما يسدل الظلام سدوله في تلك الآنات الهادئة الحالمة حيث أعين العباد في رقود وأعين العبّاد في سجود حيث تخشع نفس علي وتتوجه نحو بارئها ، إنه يتوجه الى الله يناجيه والقلب العلوي لم يرَ غيره ولم يشغله سواه ، يتوجه إليه بمراده ثم يُقبل على الدنيا ليعلن رفضه لها وإنكاره لكل زخارفها، ولعل أصدق صورة لهذا الإمام العظيم ما وصفه به ضرار بن ضمرة وقد دخل على معاوية بعد وفاة علي فقال له : صِفْ لي علياً .

فقال : أوَتعفيني من ذلك ؟

فقال : لا اعفيك .

فقال : كان والله بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلاً ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل ووحشته ، كان والله غزير العبرة طويل الفكرة ، يقلّب كفيه ويخاطب نفسه ويناجي ربه، يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب،كان والله فينا كأحدنا يُدنينا إذا أتيناه ويجيبنا إذا سألناه،وكان مع دنوّه منا وقربنا منه لا نكلمه لهيبته ولا نرفع أعيننا لعظمته ، فإن تبسّم فمن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ويحب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الفقير من عدله ، فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه وهو قائم في محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين فكأني الآن أسمعه وهو يقول :

يا دنيا ، يا دنيا ، أبي تعرّضتِ أم إليّ تشوّقتِ ؟ هيهات هيهات ، غرّي غيري لا حاجة لي فيكِ ، قد طلّقتكِ ثلاثاً لا رجعة لي فيكِ ، فعمركِ قصير وخطركِ يسير وأملكِ حقير ، آه آه من قلة الزاد وبُعد السفر ووحشة الطريق وعظم المورد ...

فسالت دموع معاوية على لحيته فنشفها بكمّه واختنق القوم بالبكاء،ثم قال:

كان والله أبو الحسن كذلك ، فكيف صبرك عنه يا ضرار[1] ؟ قال : صبر مَن ذبح واحدها على صدرها فهي لا ترقى عبرتهـــا ولا تسكن حسرتها .. ثم قام وخرج وهو باكٍ .

فقال معاوية: أما إنكم لو فقدتموني لمَا كان فيكم مَن يثني عليّ هذا الثناء.

فقال بعض مَن حضر : الصاحب على قدر صاحبه .

هذه هي نظرة علي الى الدنيا ، إنهـا نظرة واحدة انسجمت مع يقينه وما وصل إليه من حقائقها وانكشف له من واقعها ، وقد بقيت هـذه النظرة حتى آخر أيام حياته ، فقد أوصى لولديه الحسن والحسين لما ضربه ابن ملجم (لعنه الله) بقوله : اوصيكما بتقوى الله وألاّ تبغيا الدنيا وإن بَغتكما ، ولا تأسفا على شيء منهـــا زوي عنكما ، وقولا الحق واعمـلا للأجر ، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً .

---

(١) البحار ج ٤١ ص ١٢١ ، ابن أبي الحديد ج ١٨ ص ٢٢٥ .

نعم للزهـــد .. لا للرهبنة

الإسلام دين الحيـاة الخالد ورسالة السماء التي لا فناء لها ولا اضمحلال ، إنها الاطروحة الخـاتمة التي استجمعت في تشريعاتها كل مقوّمات السعادة والرفاهية لهذا الإنسان ، إنه التشريـع الذي صدر من الله جلّ جلاله ، من الحقيقة المطلقة التي خلقت هذا الإنسان وعلمت ما يصلحه مما يفسده وما يسعده مما يشقيه وما يأخذ بيده تصعيداً نحو الكرامة والعزة مما يضعه ويشدّه الى الذلّ والهوان ..

إن هذا الإسلام ليس نتاج عقل بشري محدود مؤطّر بأطـُر الزمان والمكان وخاضع للعوامل النفسية والأمزجة البشرية التيتتغير وفقاً لعواطف هذا المخلوق عن ذاك وتختلف من إنسان لآخر .

إن هذا الإنسان تتحكـّم فيه نزعاته الشخصية وعوامل تربيته وتتدخل في تشريعه — لو أراد ذلك — مصلحته التي تتوافق مع رغباته وشهواته التي هي تتغير من إنسان لآخر ، مضافاً إلى قصوره الذاتي النـاشىء عن إمكانه المحدود الذي لايسمح له أن يستكنه ذاته ويدخل إلىمسارب النفسالبشرية ومنعرجاتها ومتغيراتها ، إنه يقف أمام ذاته عاجزاً عن تفسيرها ُمقرّاً بقصوره معترفاً أنه أمام مجهول لا يقف منه على نتيجة ولا يحصل على مطلوب ، بينما الله تعالى الذي خلق هـــذا الإنسان هو أعرف بما ُيصلحه وأدرى بالذي به تكون سعادته ورفاهيته ، فلذا أرسل الرسل وشرع الشرائع وأنزل الكتب ، وقد كان الإسلام

هو الرسالة الخاتمة التي جاءت بما يكفل سعادة الإنسان ويوفر له جميع متطلباته التي تستجدّ أو تتطوّر .

نزلت رسالة الإسلام على قلب أشرف إنسان ، إنها روح محمد التي عطّرت هذه الحياة وشرّفت الأحياء ، فقام بتبليغها إلى الناس بحذافيرها مؤدّياً لها أبلغ أداء وأحسنه ، ثم قام من بعده ورثته وأهل بيته الأئمة المعصومين من ذرّيته ، فكانوا حراس هذه الشريعة وأمناء هـذه الامة وحفظة هذا الدين ، لقد سهروا على الإسلام ومن أجله ، وقدموا أنفسهم في سبيله ، فأرشدوا الضال وهدوا التائه وردّوا المنحرف . وإن هذه الرسالة لا تؤخذ إلا من أهلها ، ولا يعتمد في تفسير مضامينها ونظرياتها إلا على الذين هبطت في بيوتهم ، واختارهم الله أمناء عليها ، فلذا ترى كيف أن بعض من لم يختمر الإسلام في نفوسهم ، ولم يقفوا في استجلاء الغموض على اعتاب أهـل بيت رسول الله ، كيف انحرفوا عن الخط المستقيم ؟ فانحرفوا نحو الإفراط تارة والتفريط أخرى ، واستهانوا بما يبرء الإسلام منه ، ولا يعترف بشرعيته ، وقـد وقف الأئمة موقفاً متشدداً منهم إذ أنكروا تلك البدع ، وجاهروا بردّها واستخفوا بمن جاء بها حتى جُعل القياس عـلم ألسنتهم محقاً للشريعة والدين ، وشُبّه من استعمل القياس بابليس ، إذ كان اللعين هو أول من قاس إذ قال : خلقتني من نار وخلقته من طين .

ومن جملة المفاهيم التي سيء فهمها من قبل بعض المسلمين،ولم يستوعبوا مدلولها على حقيقته مفهوم الزهد في الدنيا ، فقد تخيّلوا أن الزهد عبارة عن لبس الثياب البالية والاعتزال عن الناس والتعبد لله بالصلاة والصيام، دون التدخل في شؤون الحياة وما تعجّ بـه من مشاكل وأحداث ، إنهم تخيّلوا أن الزهد هو أن يكف المرء نفسه عن الزواج ، ولا يدنو من متع الحياة وملذاتها ، بل عليه أن يسد باب داره أو يعتزل في صومعة ويتوجه إلى الله،هكذا سيء فهم هذا المفهوم الإسلامي وقد وقع في زمان الإمام قضية أوجبت عليه أن يتدخل بنفسه لتوضيح هـــذا المفهوم وبيان وجه الحق فيه .

دخل الإمام على العلاء بن زياد الحارثي وهو من أصحابه يعوده ، فلما رأى سعة داره قال : ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا وأنت إليها في الآخرة كنت أحوج ؟ وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة : تقري فيها الضيف وتصل فيها الرحم ، وتطلع منها الحقوق مطالعها ، فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة .

فقال له العلاء : يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد .

قال : وما له ؟

قال لبس العباءة وتخلى عن الدنيا .

قال علي : عليّ به فلما جاءه قال :

يا عديّ نفسه لقد استهام بك الخبيث ، أما رحمت أهلك وولدك ، أترى الله أحل لك الطيبات ، وهو يكره أن تأخذها أنت أهون على الله من ذلك .

قال : يا أمير المؤمنين ، هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك .

قال : ويحك إني لست كأنت ، ان الله تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيّغ بالفقير فقره .

فهذا مفهوم خاطىء قد ارتكبه بعض أصحاب الامام ، فبادر عليه السلام يبيّن له الحقيقة ويجلي له الأمر بأن الزهد ليس في اعتزال الحياة وترك الأهل والولد يتكففون على الأبواب يستجدون لقمة العيش بالصدقة والعطية ، بل الانسان الشريف في نظر الاسلام ، هو الانسان الذي يكافح من أجل نفسه وعائلته ومن أجل الناس والمجتمع ، فهذا لسان الحق يصدر عن أهل الحق من أهل البيت حيث يقول : (الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله) أو يقول : (نعم العون على تقوى الله الغنى) .

إن هذا الانسان قد تخيّل أن الزهد عبارة عن الرهبنة التي ابتدعها المنحرفون من قساوسة المسيحية التي تعبّر عن رفض هذه الدنيا ، والتخلص منها بالابتعاد

عن الحياة والاحياء إلى الصوامع ورؤوس الجبال طلباً للوحدة التي تصلهم بالواحد الأحد ، فكأن الحياة الدنيا والمسؤوليات التي في دروبها تتنافى مع القرب من الله والانس به ، فلا زواج ولا متعة ولا لذة ، إنها كلها أمور محرمة في رأي الرهبان وأفكارهم ، إن فلسفة الرهبنة ومنطلقاتها الفكرية تقوم على أساس يخالف فكرة الزهـد وفلسفته في الاسلام ، إن نظرة الراهب إلى الدنيا نظرة سلبية نظرة العدو اللدود إلى عدوّه الذي لا يمكن التخلص منه إلا بالابتعاد عنه واعتزاله ، إنها نظرة مشوّهة نحو الدنيا حيث لا علاج لها في نظر الراهب إلا بالهروب منها والتنكر لها ولسكانها ، فـلا لقاء مع الدنيا لمن أراد الحياة الآخرة ، فلذا يعيش الراهب في صومعته بعيداً عن الناس وعن المجتمع يتكفف وجوه الناس وينتظر عطاءهم وفضلات زادهم ، ينتظر أن تمنّ عليه أيدي غـيره ليقيم صلبه ويواصل تهجده اربه .

وأين هـذا من الزاهد ، فإنه ينظر إلى الآخرة ، وإنها هي الهدف والغاية ، ولكن هذا الهدف وهذه الغاية لا يمكن الحصول عليه إلا بمقدار مـا يقدّمه في الدنيا من جهاد وخير وعمـل صالح ، إنه يحب العمل ويعده المصدر الشريف لكسبه ، يعده جهاداً يحقق له الأجر والثواب وأرفع الدرجات ، إن كانت نيته من أجل شيء شريف ، ان قصد به كفّ نفسه وعائلته عن الحاجة إلى الناس .

إن الزاهد رجل يغالب الحياة فيسعى فيها ويجاهد من أجل أن يرفع عن ذي حاجة حاجته وعن فقير فقره ، إنه رجل يكافح ويكدح ليحصل على الأموال فيؤثر بها غيره ويقدّمها لأصحاب الحاجة والفاقة من الأرامل والأيتام والمساكين وأبناء السبيل ، إنه رجل يقتّر على نفسه ، فـلا يطلق لها العنان في الشهوات والملذات من أجل أن يوفّرها لغيره من أبناء المجتمع الذين لا حظ لهم بهـا ولا عهد لهم بامثالها .

وإن علي بن أبي طالب مع ما كان فيه من سعة المـال ، إذ كانت تأتيه نفقته

من غلته بينبع ، فكان [1] يطعم الناس منها الخبز واللحم ، ويأكل هو الثريد بالزيت ، إنـه علي يؤثر غيره من أبناء مجتمعه ، فيجمعهم على موائده اللذيذة ، ويحرم نفسه من أجلهم ، إنه كان يمثل القيادة الاسلامية الواعية التي استوعبت عمق الاسلام وسعته ، كان يمثل أروع الأنبياء وأعظمهم يمثل رسول الله خـاتم المرسلين محمد ، إنـه كان في مأكله يمثل ضعاف الناس وفقرائهم ، بل أفقر الناس وأضعفهم .

يقول سويد بن غفلة : دخلت على علي عليه‌السلام بالكوفة ، فإذا بين يديه قعب لبن أجد ريحه من شدة حموضته ، وفي يده رغيف يرى قشار الشعير على وجهه وهو يكسره ويستعين أحياناً بركبته ، وإذا جاريته فضة قائمة على رأسه ، فقلت : يا فضة أما تتقون الله في هـذا الشيخ ؟ ألا نخلتم دقيقه ؟ فقالت : إنا نكره أن تؤجر ونأثم نحن ، قد أخذ علينا أن لا ننخل له دقيقاً ما صحبناه ، وكان علي لا يسمع ما تقول ، فالتفت إليها فقال : ما تقول ؟ قالت : سله فقال لي : ما قلت لها ؟ قال : إني قلت لها : لو نخلتم دقيقه؟ فبكى ثم قال : بأبي وأمي من لم يشبع ثلاثاً متوالية من خبز بر حتى فارق الدنيا ، ولم ينخل دقيقه — يعني رسول الله.

فرسول الله وبعده علي كانوا أزهد الناس من أجل الناس من أجل فرد في أقصى بلاد الاسلام ، لا عهد له بالشبع ولا طمع له بالقرص ، وكيف يجلس علي على مائدة مملوءة بالطعام الدسم والأصناف المتنوعة ، وهناك من رعيته من يكابد ألم الحياة ومرها ، ويجاهد ليحصل على كسيرات خبز يسدّ بها رمقه فلا يجدها ، إنه علي الذي عاش من أجل المجتمع والناس وآثر الآخرة على الدنيا ، فأعطاه الله الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

وفي ختام الحديث عن علي يتبيّن لنا أنـه القائد الرسالي الذي كان أشجع الناس وأعلمهم أعدلهم وأزهدهم ، وهذه الصفات هي أهم ما يجب أن تتوفر في

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ج ٢ ص ٢٠٠ .

القيادة الصالحة لتولي أمور الناس ، وبذلك يتحقق شروط وليّ الأمر التي حددها الامام بقوله : (ان احق الناس بهذا الأمر اقواهم عليه واعلمهم بأمر الله فيه ..) . فإن القائد إذا كان اشجع الناس واعلمهم ثم اعدلهم وازهدهم ، فالخلافة له وحده دون سواه ، ممن فقد ذلك وأخذ يستجدي الحلول من غيره او كان جشعاً متكالباً على الدنيا او جائراً حائداً عن طريق الحق والصواب ، فلا يستحق الخلافة وليس له نصيب منها ، وصدق الله تعالى حيث قال : (افمن يهدي إلى الحق احق [1] ان يتّبع امنّ لا يهدّي إلا ان يهدى ، فما لكم كيف تحكمون) .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين والصلاة على محمد وآله الطاهرين .

---

(١) يونس : ٣٥ .

الفهرس